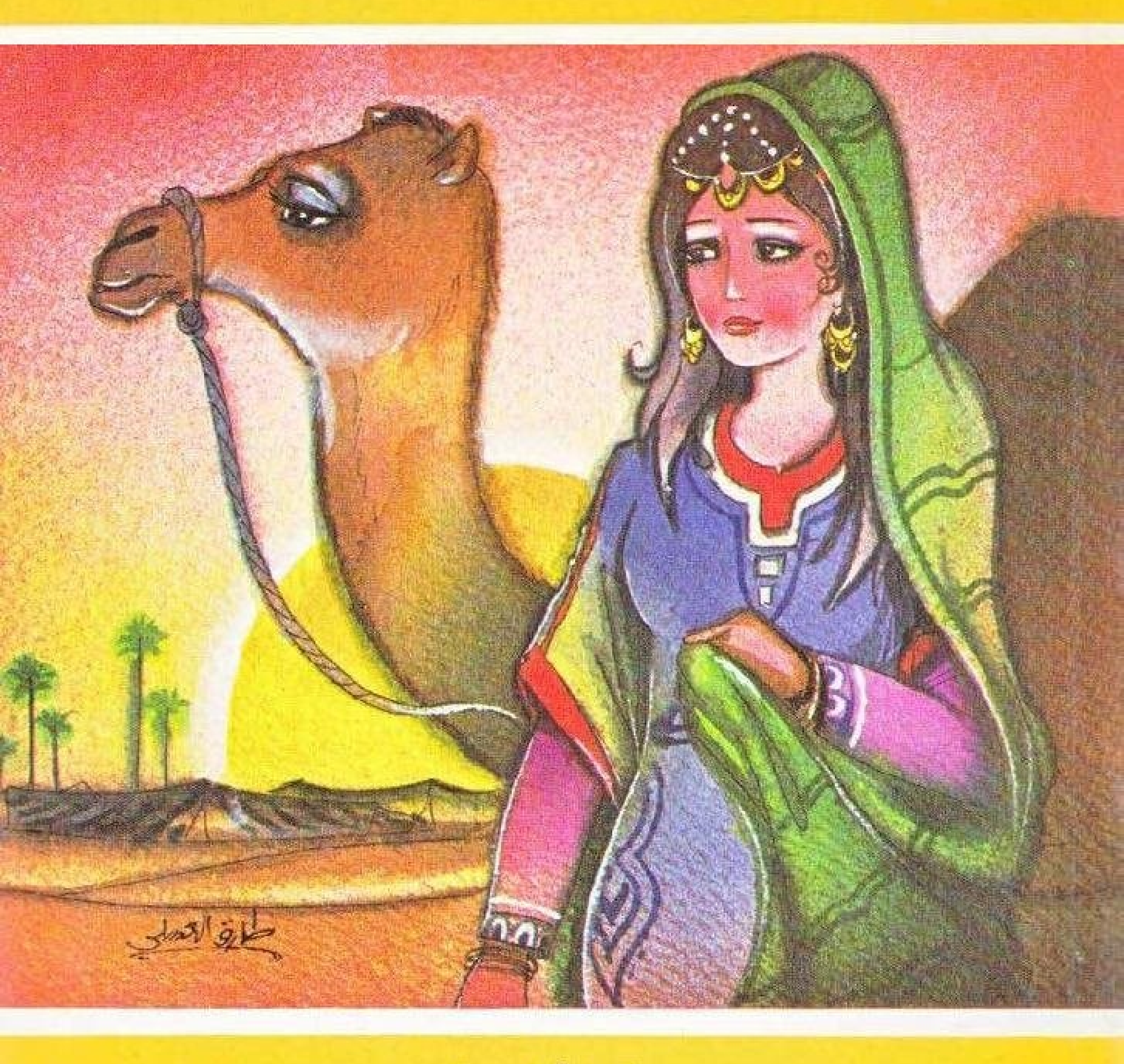
روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

حسناء الحجاز ①



دار الأندلس

حَسْناءُ الحِجاز

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر

حسناء الحجاز

الجزء الأول

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

تصدير

البيان الذي تقرأه بعد هذه الصفحة ، مقدمة مختصرة نذكر لك فيها شيئاً عن احوال العرب قبل الاسلام ، لتستطيع – وانت تقرأ تاريخ الحجاز في روايتنا هذه – ان تفهم كل شيء ، دون أن ترجع الى كتابٍ آخر .

وانت تعلم ، ان الغاية من نشر هذه الروايات في الامة ، نشر التاريخ العربي بالقالب الذي اخترناه ، ومن الجهل ان نرسل روايةً لا بيان لها . ونبدأ بحوادثها الغرامية والسياسية والحربية « مثلاً » دون ان نمهد لك جميع الاسباب .

نحن لم نزل قبل الاسلام ، فاذا قرأت المقدمة المختصرة ، فلا تضجر . بل ندعوك الى قراءتها بتروٍ وامعان ، شأن الاديب الراقي لذي يعنى بدرس تاريخ قومه وبلاده ، درساً هادئاً تاماً ، يشبع ذهنه ، ويغذّي نفسه ؛ حتى اذا قرأت حوادث الرواية، قرأتها وانت عارف كل شيء. وبدت لك جليةً واضحة لا غموض فيها ولا ابهام .

وتاريخ الحجاز لذيذ ومفيد ، ويكفي انك ستقرأ فيه ، تاريخ البيت الذي تقدسه وتحج إليه الملايين من اخوانك .

والسلام عليك ورحمة الله .

العرب

العرب . في نظر المؤرخين واهـل الادب قسمان : العرب البـائدة التي ضيعتها حوادث الزمان ، والعرب الباقية المنتشرة في الاقطار .

والعرب الباقية في نظرهم قسمان : اهل اليمن ومن جاورهم من الناس سلالة قحطان المتحدر من سام بن نوح ؛ واهل الحجاز ونجد ومن جـاورهم من سكان اواسط الجزيرة ، سلالة اسماعيل بن ابراهيم الخليل من زوجته هاجر ، ويعرفون ايضاً بالعدنانيين ، نسبة الى عدنان كما يقال لهم مضر ومعد .

اما القبائل البائدة ، فأشهرها في التاريخ ، العمالقة ، وعـاد وثمود وجرهم وطسم وجديس . ولعلك تريد الآن ان تقرأ شيئاً عنها .

العمالقة

يريدون بهم قدماء العرب الذين كانوا يقيمون في شمالي الحجاز مما يلي جزيرة سيناء . وهم الذين استولوا على العراق « بابل » في الجيل الرابع والعشرين قبل المسيح. وفتحوا مصر في أواخر الجيل الثالث والعشرين ، وعرفوا باسم الشاسو « البدو او الرعاة » ويسميهم مؤرخو اليونان « هيكسوس » وهذه اللفظة ترد في الاصل الهيروغليفي الى لفظتين : هيك وشاسو . الاولى معناهـا ملك . والثانية ، بدو او بادية .

قال ابن خلدون عندما ذكر القبائل البائدة التي ذكرنا :

« وكان لهذه الامم ملوك ودول في جزيرة العرب . وامتـد ملكهم فيها الى الشام ومصر في شعوب منهم ، ويقال انهم انتقلوا الى الجزيرة من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام . فسكنوا جزيرة العرب، بادية مخيمـين . ثم كان لكل فرقة منهم ملوك واطام وقصور . الى ان غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان » .

وقال في مكان آخر : « ان قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق »

والعمالقة اصل سائر العرب البائدة . او هو اسم يشمل جميع هذه القبائـل دون استثناء .

كان البابليون يسمون العماليق مـاليق او مالوق . فأضاف اليها اليهود في التوراة لفظة « عم » اي الامة ؛ فصارت عم ماليق او عم مالوق . وقالت العرب عماليق ؛ ثم اطلقت الاسم على طائفة كبيرة من قدماء العرب .

بابـــل

استولت العرب على بابل حوالي سنة ٢٤٦٠ قبل المسيح . وشيدت فيهـا ملكاً واسعاً اكتنفه جميع اسباب المجد والعز ، من ملوك هذه الدولة حمورابي صاحب اقدم شريعة في العالم وحامل اول لواء من ألوية التمدن والرقي في تلك الاجيـال .

عاشت تلك الدولة العربية ٣٣٤ سنة . ثم غلبتها على امرها دولة اخرى ليس لنا فائدة من ذكرها الآن .

وأي شيء يفعله المغلوب امام سيف الغـالب القاهر ؟ انه يفرّ من الساحة تاركاً كل شيء راضياً بما بقي له من حياة كلها ذكريات ..

هكذا تركت قبائل العرب بابل ، لاجئة الى الجزيرة ، حيث تقيم القبـائل الاخرى التي تربطها بها روابط النسب والجنس .

ولكنها لم تستسلم الى الخمول . بل مشت الى اليمن لتبني فيها ملكاً عربياً له شأنه في تاريخ ذلـك القطر اليمني ، توارثه ستة وعشرون ملكاً عرفت دولتهم

بدولة المعينين ، نسبة الى معين عاصمة ملكهم وذلك قبـــل ان يشيد « سبا » القحطاني دولته في بلاد اليمن .

عاد وثمود

من الامم الارامية التي شيدت وبنت . وهما القبيلتان اللتان ورد ذكرهما للعبرة والموعظة في القرآن الكريم .

يبـالغ المؤرخون العرب كثيراً وكثيراً جداً في وصف امجاد القبيلتين وقد كتبوا عن شداذ بن عاد ، فصولاً هي الغرابة كلها والغلو كله . السكوت عنهـا اولى بنا وبجميع المؤرخين .

وتقول كتب العرب ، ان عـــاداً اقامت في اليمن . وان ثموداً اقامت في الحجر ، « اي مدائن صالح » التي هي في وادي القرى على طريق الحاج من الشام الى مكة . وقد نزلها اليهود قبل الاسلام .

ويقول ابن خلدون: ان يعرب بن قحطان عندما نزل اليمن استولى على عرش عاد ، وعـــلى جميع البلاد . فولىّ اخاه جرهماً على الحجاز ، واخاه عاداً على الشحر ، واخاه خضرموت على جبال الشحر ، واخاه عمان على عمان .

اما ثمود فقد ذكرت بين القبائل التي سحقها الفاتح الاشوري سرجون في الحجاز في اواخر الجيل الثامن قبل المسيح .

ووصف ذلك الفتح يدلنا على ان ثموداً كانت بالقرب من مكة جنوبي الحجر ، كما أثبت ذلك مؤرخو اليونان الذين كتبوا عن العرب قبـــل التاريخ المسيحي وبعـــده .

وهم يسمونها ثموديني « Thamudeni » ويسمون الحجر « Agra » .

ويقول صاحب كتاب فتوح الشام : « ان قبيلة ثمود ملأت الارض بين بصرى وعدن. » ولعلها لم تملأ هذه الارض. الا عندما هجرت بلادها متجهة نحو الشمال.

الحجر

واما الحجر ، او مدائن صالح . فقد ثبت انها كانت قبيل التاريخ المسيحي في حوزة الانباط . اصحاب بطرا الكائنة في وادي موسى ، والتي ورد ذكرها في الروايتين ، الحارث الاكبر ، وزينب .

اجل . ذلك ثابت لا شك فيه . بدليل ما على الانقاض من النقوش والآثار التي قرأها غير واحد من المستشرقين .

وهذا ما قرأوه بالحرف النبطي على احد القبور :

« هذا القبر الذي بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم ، وكليبة ابنتها لانفسهن وذريتهن في شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه . فعسى ذو الشرى وعرشه . واللات وعمند ومنوت وقيس « اسماء الآلهة » تلعن من يبيع هذا القبر او يشتريه او يرهنه او يخرج منه جثة او عضواً او يدفن فيه احداً غير كمكم وابنتها وذريتها . ومن يخالف ما كتب عليه فيلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر غرامة مقدارها الف درهم حارثي الامن كان بيده تصريح من يد كمكم او كليبة ابنتها بشأن هذا القبر . والتصريح المذكور يجب ان يكون صحيحاً . صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة » .

وتاريخ هذه الكتابة حوالي تاريخ الميلاد وليس لها كما رأيت قيمة تاريخية الا ما ورد من اسماء الاعلام . ولغة الانقاض جميعها في مدائن صالح ارامية كما كانت لغة بطرا .

وعثر المستشرقون ايضاً على كتابات كثيرة بالحرف المسند الذي كتب به أهل اليمن ، في مواضع كثيرة في الحجاز ، يعود تاريخها ايضاً الى اوائل الميلاد ، فسموا بعضها ثمودية ، والبعض الآخر لحيانية لان فيه اسماء ملوك لحيان . ويرى غلازر ، احد المستشرقين ، ان لحيان بقية من ثمود .

طسم وجديس

وهما من أرم . لم تمتد بعد الى اثارهما ايدي المستشرقين والعلماء .

وهذا هو تاريخها المختصر :

كانت طسم وجديس تقيمان في اليمامة . شرقي نجـد . واليمامة أخصب البلاد واعمرها واكثرها خيراً . لهم فيها الحدائق والقصور وصنوف الثمار .

ظلوا على ذلك حقبة من الدهر ، حتى انتهى الملك الى رجل من طسم . لا ينهاه شيء عن هواه ، يقال له عمليق ، تمادى في الظلم والسيرة بغير الحق .

وقد أضر بجديس وأذلها ..

وكانت له سنّة غريبه هي سنّة الوحش الضاري ، فقد امر بان لا تهدى بكر من جديس الى زوجها قبل ان يدخل هو عليها .. وطال الامر على القوم حتى زوّجت الشموس « وهي عفيرة بن غفار » اخت الاسود بن غفار . فأساء اليها عمليق وضربها بجديدة فأدماها فقـالت تحرّض قومها في شعر طيب نذكر منه بضعة ابيات ، قالت :

أيجمل ما يؤتى الى فتياتكم ... وانتم رجال فيكم عدد الرمل

أيجمل تمشي في الدماء عفيرة ... صبيحة زفت في النساء الى بعل

ولو اننا كنا رجالاً وكنتم ... نساء لكنا لا نقرّ بذا الفعل

فموتوا كراماً او اميتوا عدوكم ... ودبوا لنار الحرب بالحطب الجزل

وكان اخوها الاسود مطاعاً في قومه فقال لرؤسائهم :

يا معشر جديس ان هؤلاء القوم ليسوا باعز منكم في داركم الا بما كان من ملك صاحبهم علينا وعليهم . ولولا عجزنا ما كان له فضـل علينا ، فأطيعوني فيما آمركم به فانه عزّ الدهر وذهاب الذل . قالوا: وما ذاك ? قال : اني صانع للملك ولقومه طعاماً فاذا جاءوا نهضنا اليهم باسيافنـا وانفردت به فقتلته واجهز كل رجل منكم على جليسه . فأجابوه الى ذلك واجمع رأيهم عليه . فأعـد طعاماً . وأمر قومه فانتضوا سيوفهم ودفنوها في الرمل وقال : اذا اتاكم القوم يرفلون في حللهم فخذوا سيوفهم ،ثم شدوا عليهم قبل ان يأخذوا مجالسهم ،ثم اقتلوا الرؤساء فانكم اذا قتلتموهم لم تكن السفلة شيئاً .

ثم صنع طعاماً كثيراً وخرج به الى ظهر البلد ودعا عمليقاً وسأله ان يتغذى عنده هو وأهل بيته ورجال بلاطه . فاجابهم الى ذلك وخرج مع اهله يرفلون في الحلي والحلل ؛ حتى اذا اخذوا مجالسهم ومدوا ايديهم الى الطعام اخذوا سيوفهم من تحت اقدامهم؛ فشد الاسود على عمليق فقتله وكل رجل منهم على جليسه حتى اماتوهم . ثم شدوا على السفلة منهم فلم يدعوا منهم احداً .

فهرب رجل من طسم يقال له رياح بن مرة حتى اتى حسان بن تبع ملك اليمن فاستغاث به . فخرج حسان مع رجاله حمير ، فلما كان من اليامة على ثلاث مراحل قال له رياح : ابيت اللعن ان لي اختاً متزوجة في جديس يقال لها اليامة ليس على وجه الارض ابصر منها انها لتبصر الراكب من مسيرة ثلاث واني اخاف ان تنذر قومها . فمر اصحابك فليقطع كل رجل منهم شجرة فليجعلها امامه ويسير وهي في يده . فأمرهم حسان ففعلوا ، فنظرت اليامة فابصرتهم فقالت لجديس : لقد سارت حمير . قالوا : وما الذي ترين . قالت أرى شجراً يسير . فقالوا كذبت واستهانوا بقولها .

فلما اصبحوا صبحهم القوم فاكتسحوا اموالهم وابادوهم وهدموا قصورهم وحصونهم لم يبقوا شيئاً .

وحسان المذكور . في اوائل الجيل الخامس للمسيح .

وللقبيلتين آثار كثيرة ذكرها ياقوت . منها :

قلعة المشقر من بناء طسم . وللمشقر هذه ذكر في حروب العرب . والمعنق اعظم قصور اليامة من بناء طسم ايضاً وفيه يقول الشاعر :

ابت شرفات من شموس ومعنق لدى القصر منا ان تضام وتضهدا

والشموس المذكور قصر آخر بنته جديس .

واشهر مدنهم : القرية ، ويقال لها خضراء حجر وهي عاصمتهم . وفيها حصونهم وابراجهم المربعة المستطيلة في السماء . وكلها من طين . وقد رآها المسلمون في القرن الرابع للهجرة وذكر احدهم انه رأى برجاً طوله ٥٠٠ ذراع.

ولعل زرقاء اليمامة ابصرت جيش اليمن من احد هذه الابراج .

تلك هي القبائل الارامية التي يسميها المؤرخون ، العرب البائدة .

عدنان

يتضح لك، عندما تقرأ التاريخ العربي القديم، ان العرب مرّت بثلاثة ادوار لكل دور منها شأنه وعظمته .

الدور الاول : دور العرب البائدة التي سادت فيه ، ومعظمها من قبائل القسم الشمالي من الجزيرة . اي الحجاز وما يليه كما قرأت .

والدور الثاني : ظهور قبائل الجنوب في اليمن . المنتسبة الى قحطان . ولا يتسع لنا المجال لنتبسط في البحث عنه .

اما الدور الثالث . فهو الذي عادت السيادة فيه الى الشمال. وانتهى بظهور الاسلام. ومعظم قبائله ينتسب الى معدّ بن عدنان. وعدنان من اعقاب اسماعيل .

وبين اهل الجنوب واهل الشمال ، فروق في الاجتماع واللغة والدين . تظهر لكل من درس احوال الشعبين .

اولئك اهل مدن واصحاب قصور ومغارس واسوار . وهؤلاء اهل غزو وابل وخيام . لا يبنون بيوتاً ولا يشيدون مدناً . ولا يستقرون في مقام .

ولفظ « العرب » في الاصل اطلق على سكان بادية الجزيرة . ثم اطلق بعد ذلك على جميع المقيمين فيها ، وهو في اللغات السامية ، يرادف لفظ « البدو » عندنا . فالعرب هم البدو ، وهذا التعبير يصدق على قبائل معدّ التي نكتب عنها الآن .

كذلك لغة اليمن، تختلف كثيراً عن لغة الحجاز. وان كانتا من اصل واحد. يقوم هذا الاختلاف في كثير من احوال الاشتقاق والضمائر والاعراب كما يختلف الشعبان في كثير من العادات والاخلاق .

وفي بعض ضروب العبادة يشترك الاثنان فكلاهما يعبد الصنم ويسجد للحجر ولكن آلهة اليمن ، عشتار وايل وبعل ، اقرب الى معبودات الشعب البابلي . وآلهة الحجاز اللات والعزى ومناة وهبل . وليس بين آلهة الشعبين صلة نسب..

ومن مقتضيات البداوة الاسمـــاء، لذلك رأيت عرب الشمال يسمون ابناءهم « أسد ونمر وثعلبة وكلب » وغير ذلك من اسماء الحيوانات التي الفوها . ورأيت عرب الجنوب يسمون ابناءهم « ياسر انعم واليفع وشمريرعش » ، وغيرهـا ممـا يشبه اسماء البابليين .

* * *

لقد قرأت ان عرب الشمال ينتمي معظمها الى معد بن عدنان ، ومعد هذا من ابنـاء الجيل السادس قبل الميلاد ، بدليل مـــا ورد في كتب العرب عن فتح نبوخذنصر الاشوري بلاد الجزيرة . ودفاع معد عنها ، قالوا :

« وسار بختنصر « نبوخذنصر » الى معد فلقي جموع العرب فقاتلهم وهزمهم واكثر القتل فيهم . وسار الى الحجاز فجمع عدنان العرب والتقى هو وبختنصر في ذات عرق فاقتتلوا قتالا شديداً . فانهزم عدنان وتبعه بختنصر الى حصون هناك واجتمع عليه العرب وخندق كل واحـد من الفريقين على نفسه واصحابه فكمن بختنصر كميناً هو اول كمين عمـل . واخذتهم السيوف فنادوا بالويل ونهى عدنان عن بختنصر وبختنصر عن عدنان وافترقا »

على ان الكثيرين من ملوك اشور غزوا الجزيرة في القرن التاسع قبل المسيح فما بعد . لكن مؤرخي العرب لم يذكروا غزوهم ولم يقولوا عنه شيئاً .

ومن ذلك الجيل امست الجزيرة ميداناً لغزو الفاتحين الاشوريين ، يفاجئونها بالسيف الواحد بعد الآخر وهي تؤدي لهم الجزية على غير نظام .

حتى استولى قورش الفارسي على بلاد أشور. واخضعها لسلطانه بقوة سيفه . فاستسلمت العرب الى الفرس كما استسلمت اليهم بابل وكانت القبائل على ما يذكر هيرودوتس تدفع جزيتها كل سنة الف وزنة من اللبان والبخور .

ولما زحف قمبيز الفارسي الى مصر كانت العرب في صفوفه تمد الماء في الباديه لجيشة الزاحف . كذلك كانت العرب في صفوف الفرس عندما زحف هؤلاء الى اليونان . زحفهم المشهور في التاريخ .

الفتنة

أجـل ، خضع بنو معد للفرس خضوعاً هو العجز . وكانوا قد انتشروا في ربوع الشمال وهم فروع وبطون تملأ البلاد .

على ان تفرقهم لم يمنع اتحادهم في المحن وانضمامهم عند الشدة الى صف واحد . وما زالوا على وفاق ، كأنهم قبيلة واحدة تجمعهم المجامع والمواسم ، حتى وقعت الفتنة بينهم فنزحوا الى اماكن كثيرة وقد امتلأت الصدور حقداً وبغضاً .

قرأت في روايتنا الاولى ، الحـــارث الاكبر شيئاً عن هذا النزوح واسبابه، وليس عليك من بأس اذا قرأته مرة ثانية لتصل الى الموضوع .

كان اول النازحين بنو قضاعة ثم تبعهم انمار ثم اياد . ثم غيرهم وغيرهم فنزلوا نجداً وشواطىء البحر الاحمر والبحرين وغمر ذي كندة ووادي القرى وبقي في تهـامة من القبائل الكبرى ربيعة ومضر . وقد اصبحت الاثنتان وفروعهما جيشاً جراراً .

ثم تفرق هؤلاء ايضاً ، لفتنة وقعت بينهم ، فنزلت ربيعة في ظواهر نجـــد والحجاز . ونزل البعض من مضر بين اليمامة وهجر . والبعض الآخر في اطراف البحرين مما يلي البصرة . والبعض الآخر في تهامة وما جاورها من سهل وجبل. اما بنو النضر بن كنانة فقد اقاموا حول مكة .

وجميـع الذين نزلوا الحجاز ، من اسد وعبس وغطفان وفزارة وسليم وهذيل وعدوان وطيء ، جميع هؤلاء من البدو ، يرحلون الى هـذا الموضع في الشتاء والى الموضع الآخر في الصيف ، الا كنـــانة او قريشاً فقد تحضروا في مكة ، كما سيجيء .

بدأ هذا التفرق على الغالب في القرون الاولى قبل المسيح واستمروا على هذه الحال الى القرون الاولى بعده .

العصيان

ولم يكن لهم في ذلك الحين دولة تجمع كلمتهم ورئيس عام يعنى بامرهم . فهم السادة النبلاء في الاخلاق . والابطال الاشداء خواضو الغمرات وجميعهم اهل عزٍ وشرف . وانفة وذمام ، لكنهم فوضى في معظم الشؤون .

وهم القوم الذين يغضبون للكرامات. ويأنفون من الذل. وينتصرون للجار. بل هم القوم الذين يبذلون حياتهم ويهرقون دماءهم دفاعاً عن عرض .

وقد كثروا حتى ضاقت بهم الارض، ومرّت عليهم اجيال وهم اتباع للفرس، يدفعون جزيتهم من دم الجباه .

وكانوا على حالهم هذه من احوج الامم الى اسباب السعة والرغد والتوسع في البلاد التي تكثر فيها النعم . تخلصاً من شظف العيش .

وهم لا يرون لهم ملجأ الا بلاد فارس ، انها واسعة الارجاء ، كثيرة المرعى. وقد يستطيعون الاستيلاء عليها بقوة السيف .

لكن هرمز بن نرسي ملك الفرس ملك شديد الوطأة واسع النفوذ وهم يخافونه.

فجعلوا يتشاورون . ويدعون بعضهم البعض الآخر الى الصبر . حتى مات هرمز ، واحدى نسائه حبلى بولي عهده .

فساس وزراء البلاط الفارسي ، ذلك الملك الواسع ، ريثما يكبر ذلك الطفل الذي ولد للملك الميت .

والدولة التي لا ملك لها ، يستضعفها الناس ويطمع بها الطامعون .

وقد فشا الخبر ان الفرس لا ملك لهم وانهم ينتظرون ذلك الصبي حتى يكبر وهم لا يعلمون ما يكون من امره .

فثارت الروم ، وراح امبراطورهم يحشد جيوشه ليزحف الى فـارس وطمع الملك بدولة الاكاسرة وتحفزو للوثوب. فلم ترَ العرب الا ان تنهض للأمر وتخرج من الموضوع الضيق الى المجال الفسيح .

ومشت جموعها الى بلاد الخيرات .. مشت في البحر من خليج العجم ونزلت الى سواحل اردشير خرّة ، وغلبت اهلهـا على المواشي والاموال واستولت على ذلك الاقليم .

ومعظم هذه الجموع من بني عبد القيس .

والفرس ساكتون . لا يجسرون على البراز ولا يريدون ان يضعفوا قواهم المجتمعة خوفاً من العدو الروماني ، الذي يحيطهم بنطاق من العيون ..

وقد طاب للعرب المنام في ذلك الساحل وفي سواد العراق وعبثوا مـا طاب لهم العبث .

اجل ، الخير كثير . وقد وفر لهم المال ..

لكن السنين تمر . والصبي القاصر يترعرع ، والفرس جميعهم يعدون عدة الحرب . . .

وكانوا يقصون عليه اخبار العرب وهو صغير ،فيأمرهم بحكمة الشيوخ بالتؤدة والصبر ، ويقول لاصحابه :

لا يخرج العرب من بلاد الملك الا الملك ..

حتى انقضت بضع عشرة سنة على الحـادث ، وأطاق سابور حمل السيف وركوب الخيل .

فقام في رجاله خطيباً . وذكر مـا اختل من امور الدولة في ايام صغره . ثم قـال :

انظروا الآن في امر الحرب فقد اتت الساعة .

قالوا : اختر لها ايها الملك من تشاء من القواد .

قال : اما القائد فقد اخترناه وهو نحن .. واما انتم فانتخبوا لنا الف رجل نزحف بهم الى العرب .

فسألوه ان يزيد الجيش الزاحف ، فأبى ، وهكذا ، على رأس الف من ابطال الفرس المجربين . خرج سابور من عاصمته ليطرد عـدوه العربي الذي خرج عن طاعته . وهاجمه في عقر داره .

وقد تقدم الى اولئـك الرجال . بان يسحقوا كل من رأوه من العرب دون ان يستشيروه ..

نعم . وفي ذلك العدد القليــل ظفر الملك الفتى بعدوه . فقتل من العرب أبرح القتل ، وأسر اعنف الأسر ، ولم ينجُ منهم غير الذي استطاع ان يفر من الموت ...

ثم قطع البحر في اصحابه الى البحرين ، يقتـل اهلها ولا يقبل فداء ولا يعبأ بالغنائم ، ثم مضى على وجهه فورد هجر وفيها ناس من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس فأفشى فيهم القتل وسفك دماءهم حتى سالت كسيل المطر وحتى كان الهارب منهم يرى انه لن ينجيه منه غار في جبل ولا جزيرة في بحر ..

ثم عطف الى بلاد عبد القيس . فأباد اهلها الا من هرب منهم لاحقاً بالرمال ثم اتى اليامة ففعل فيها مثل ذلك . ولم يمر بماء من مياه العرب الا غوّره وببئر من آبارهم الا طمها حتى قارب المدينة « يثرب » فقتل من وجد هنالك ثم مشى الى ديار ربيعة وبكر ، بين مملكة الفرس ومملكة الروم في الجزيرة . وهناك .. هناك جنّ سابور فجعل ينزع اكتاف العرب فسمي ذا الاكتاف .

وهو من اعقاب سابور الذي عرفه القارىء في رواية زينب ، وقد ولد سنة ٣٠٩ وتوفي سنة ٣٧٩ .

الجـاهلية

ليس لنـــا ان نبحث في جاهلية العرب الأولى التي تقدمت الاسلام ببضعة عشرين جيلاً ايام استولت العرب على بابـل ثم استولت على اليمن ، ان البحث هذا ليس شأننا ولا تتسع له هذه الصفحات .

ولكن نكتب سطوراً قليلة . عن الجاهلية في الجزيرة وفي الحجاز قبـــل الاسلام ببضعة اجيال .

ان للحجاز تاريخاً يكاد يكون تاريخاً خاصاً منفرداً عن تاريخ الجزيرة العام ، ذلك لان العرب في جنوبي الجزيرة وفي الشمال . في الجاهلية الثانية التي ذكرنا . رفعت اعلام التمدن والعمران في دولها التي انشأت وفي اختـلاطها بدول ذلك الزمان ، الا اهـل الحجاز في اواسط الجزيرة الذين لم يشيدوا دولاً فهؤلاء ظلوا على بداوتهم لجدب الارض وجفـــاف التربة ولوجودهم في الصحراء بعيدين عن العالم الراقي .

اجل ، والمسالك الى الحجاز وعرة ، والاخطار كثيرة ، وليس فيه من المـــدن العامرة التي تكثر فيها اسباب الرفاه ، الا الطائف والمدينة ومكة ، والشعب الحجازي كثير الاختلاط بابناء جنسه البدو الذين حوله. وقليله بالشعب المتمدن المقيم في اليمن وربوع الشام وفارس ؛ اللهم الا التجار واصحاب القوافل منه الذين يحملون الشمع والسكر وصنوف الانسجة من والى تلك الديار ؛ حتى ان الفاتحين ، الفراعنة واليونان ، والرومان والفرس ، الذين دوخوا الاقطار وفتحوا الممالك ، تهيبوا ذلـك القطر المنفرد ، الذي يمتنع ببعده وانفراده وقوة رجاله ، على الغزاة طلاب التوسع والفتح .

ومن الطبيعي ان يستسلم الشعب الامين الهادىء الى الراحة والى الاطمئنان كما انه من الطبيعي ان ينشأ على الاثرة والانفـــة والعز ، صفات هي من مزايا الشعوب التي استطاعت ان تصون قوميتها وتستقل بلادها .

ولكن ، عندما يكثر الشعب في بلدٍ لا عمران فيه تكثر الخصومة ويقوم

النزاع والعز . نعم والعز يدفع صاحبه الى الاستبداد والظلم والقتل ثم هو يسمي كل ذلك عزاً ..

أضف الى ذلك الحاجة التي لا تطاق . وليس اهون من الالتجاء الى السيف عند قبائل العرب . فاذا اجدب القوم سنةً خلق الجدب حرباً عملاً بناموس تنازع البقاء ... واذا لطمت ناقة استعرت بعد تلك اللطمة النار ، واذا احب رجلان فتاة جرّ ذلك الحب على الاثنين . بل على القبيلتين ، بل على العرب الفناء والدمار ...

تلك كانت حال العرب في الجاهلية .. مدّ ابليس اصبعه بينهم فغلت الصدور كما تغلي المراجل . واضمر كل واحد لأخيه حقداً لا يزول مع الايام .

ثم راحت سوق الغزو ، بل قل اصبح الغزو السبب الاول للارتزاق ، فقضوا زمانهم يعدون العدة له . وشغلهم النظر في شؤونه عن النظر في شؤون التقدم والاجتماع .

وكانوا بحكم الحاجة قد اوجدوا الاسواق للبيع والشراء . اعظمها جميعاً سوق عكاظ التي تجاور الطائف . يقصدها الناس في الاشهر الحرم فيبيعون ويشترون ، ولهم اسواق اخرى غير عكاظ يجتمع فيها اهل البلد المجاورون .

والجاهلية تحرّم القتال في الاشهر الحُرم لا يستحله من العرب الا خثعم وطيء ، فكان الذين ينسأون الشهور ايام الموسم يقولون :

« حرّمنا عليكم القتال الا دماء المحلّين »

والنسء في اللغة بمعنى التأخير . كانوا اذا جاء شهر حرام وهم محاربون احلوه وأخّروه اي انهم يحرمون مكانه شهراً آخر .

وكانوا يكرهون ان تتوالى عليهم الاشهر الحرم وهم لا يغزون فيها ولا يغيرون ...

على ان في التاريخ قبائل غير خثعم وطيء استحلت القتال في تلك الشهور لاسباب لا نرى مجالاً لذكرها الآن .

اما الزمان الذي قضاه اهل الحجاز في حال البداوة فلا نعلم مقداره . كانوا بدواً في كل ما في هذه اللفظة من قوة، لا يعرفون من معاني الاجتماع الا العادات والتقاليد التي ورثوها من جاهليتهم الأولى ، والا بعض الاداب التي اقتبسوها من الشعوب التي نزلت بينهم ، كالشعب اليمني جارهم . والانباط وهم اهل تمدن كما رأيت . واليهود اللاجئين الى الحجاز خصوصاً في القرون الاخيرة قبل الميلاد فراراً من ظلم الروم لا سيا بعد خراب بيت المقدس .

وهذه الشعوب جميعها جعلت المدن الثلاث في الحجاز داراً لهجرتها الا اليهود فمعظمهم كان يقيم في المدينة .

وقد اخذت العرب اشياء كثيرة من هؤلاء اليهود كالذبائح والحج والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالاعياد . كما انها تعلمت منهم بعض اقاصيص التوراة وبعض الفصول من التلمود ، فانتشرت في ذلك بين العرب طائفة من تقاليد الشعب اليهودي وعاداته وطائفة اخرى من عادات الامم التي تحيط بالجزيرة كالكلدان والمصريين والاحباش وغير هؤلاء حتى اصبح الحجازيون بعد ذلك الامتزاج ، فريقين : اهل البادية الذين يجعلون السهل مدنهم والخيام قصوراً لهم . واهل المدن الذين جعلوا مكة ويثرب والطائف مقراً لهم .

- ٢ -

مكة

مدينة قديمة جداً لم يجمع المؤرخون على تعيين الزمن الذي بنيت فيه .

يقول ابو جعفر الطبري ، ن ابراهيم الخليل واسماعيل ابنه عندما قدما ليبنيا البيت كانت مكة ارضاً تنبت العضاه والسمر « شجر له شوك » وخارج مكة وحولها ناس من العماليق والبيت يومئذٍ ربوة حمراء » .

كما انهم لم يجمعوا على واضع الحجر الاول فيها وعلى الامم التي توالت عليها .

واسم مكة ، كما يرجع كتاب العرب قبل الاسلام ، اسم اشوري او بابلي لان « مكا » في البابلية : « البيت » وهو اسم الكعبة عند العرب .

وذلك يدل على قدم هذه المدينة كأنها سميت بهذا الاسم من عهد العمالقة الذين هجروا بابل اليها ، اشارة الى امتيازها بالبناء الحجري عن كل ما يحيط بها من البادية .

والمعروف، ان اول من سكنها العمالقة . تأييداً لاسمها البابلي وتولوا امرها، ثم خلفت العماليق « جرهم » فرقة من بني قحطان نزحت قديماً من اليمن ، ثم اقبل بنو خزاعة ، بعد تهدم السد في مأرب كما يقولون ، فغلبوا بني جرهم على امرهم واستولوا على الكعبة . وفي مكة وجوارها بطن من مضر يدعى كنانة ، استعانت به خزاعة على هذا الاستيلاء .

ذلك هو ناموس الزمان . امة تسود ثم تضعف فتخلفها امة اخرى ، ثم تصير هذه الى ما صارت التي قبلها ، من التراجع والسقوط .

لم يذكر مؤرخو اليونان مكة في كتبهم، كما انهم لم يذكروا الكعبة ، ولكن جاء في كتاب ديودورس الصقلي في الجيل الاول قبل المسيح في معرض كلامه عن الانباط ، اصحاب وادي موسى ، كلمة ليست صريحة ولكنها تعني الكعبة ، قال :

« ووراء ارض الانباط بلاد بني زومين « ولعله يريد بهم جرهم وغيرهم » هيكل تحترمه العرب كافة احتراماً كثيراً » .

والغالب انه يريد جرهم التي يسمونها الثانية . اذ يؤخذ من اسماء ملوكها الذين تولوا امر البيت ، ان ولايتهم دامت الى تاريخ الميلاد بدليل وجود اسم عبد المسيح بينها .

اجل كان بنو جرهم ملوكاً . وكان بنو مضر ضعافاً حولهم لا يجرأون على امتشاق السيف في وجه اولئك الملوك .

وليس غريباً ان تتجه انظار القبائل القوية الى مكة ، ويطمع بها اصحاب السيف وابطال العرب ، ففيها البيت الذي تحجه القبائل من جميع الاقطار . وهي المدينة التجارية الكبرى التي تجتمع فيها الالوف في المواسم كل عام ، من جميع اللغات والاجناس ، حتى امست محجاً للتجار تحمل اليها صنوف الحاجات والسلع من اقاصي الارض .

كما انه ليس بالغريب ، ان تشتهر مكة وتعظم في عيون الناس ، وهي اذ ذاك لؤلؤة الجزيرة ومفخرة الحجاز .

اما ملوكها . فليسوا ملوك فتح واطماع . انهم راضون بسدانة الكعبة يفتحون ابوابها ساعة يشاؤون ، ويقضون في اتباعهم قضاءهم النافذ الذي لا يرد وهم يتقلبون في اسباب النعم والملذات ..

- ٣ -

جـرهـم

عندما خرجت جرهم من اليمن تريد مكة ، خرجت معها فرقة اخرى تدعى قطوراء . والفرقتان بطنان ينتمون الى قحطان .

فنزلت الاثنتان الاولى تعشر من جاء مكة من اعلاها « اي تأخذ العشر » والاخرى تعشر من جاءها من اسفلها وهما راضيتان لا تدخل احداهما على صاحبتها في الامر الذي تراه .

ثم ان الشعبين بغى كل واحد منهما على الآخر ، فتنازعا السلطان ، حتى نشبت الحرب بينهما ، وكانت ولاية البيت الى جرهم ، فخرج السميدع ملك قطوراء وخرجت جرهم حتى التقوا في موضع يقال له فاضح ، فاقتتلوا قتالا شديداً قتل فيه السميدع وفضحت قطوراء .

ثم تداعى القوم الى الصلح ، فساروا حتى نزلوا المطابخ وهي شعب بأعلى مكة . فاصطلحوا هناك وسلموا الامر الى جرهم .

وفي هذا يقول مضاض احد ملوكها :

ونحن قتلنـــا سيد الحي عنوةً فاصبح منها وهو حيران موجع
وما كان يبغي ان يكون سواؤنا بهـــا ملكاً حتى اتانا السميدع

فذاق وبالا حين حـاول ملكنا وحـــاول منـا غصة تتجرع
ونحن عمرنا البيت كنا ولاتــه نضـــارب عنه من اتانا وندفع

وما كان يبغي ذاك في الناس غيرنا ولم يك حي قبلنـــا ثم يمنـع
وكنا ملوكاً في الدهور التي مضت ورثنـــا ملوكاً لا ترام فتوضع

وقد استأثرت جرهم بأمر البيت بضعة اجيال منها الجيل الاول بعد الميلاد . والزمان صافٍ .. والحياة هادئة . حتى انتهى بها ذلك الصفاء وهـذا الهدوء . الى الاستخفاف بأمر الكعبة وانتهاك حرمتها واحداث الاحداث القبيحة فيها .

اما ملوكها فاثنا عشر ملكاً على رواية ابي الفداء ، آخرهم مضاض بن بشر ابن عمر والذي هدم السيل البيت في ايامه فأعاده على بناء ابراهيم واسماعيل بناه رجل منهم يقال له ابو الجدرة واسمه عمر الجارود .

ومضاض هـذا صاحب خلق طيب واباء ، غير ان قومه جاوزوا حدهم في البغي ولم يسمعوا له ، وابطرتهم النعم التي تحيط بهم فاستباحوا كل شيء .

حتى ان خمسة من اشرارهم تواعدوا على ان يسرقوا خزانة الكعبة . وهي بئر يلقى فيها الحلي والمتاع الذي يهدى من الناس؛ لكن الحظ خانهم فسقط الذي اقتحم البئر فهلك وفر الاربعة الآخرون .

ثم كثر البغي . فجمع مضاض قومه وقال :

يا معشر جرهم . احذروا البغي فانه لا بقاء لأهله ، وقد رأيتم من كان قبلكم من العماليق استخفوا بالحرم ولم يعظموه وتنازعوا بينهم واختلفوا حتى سلطكم الله عليهم فاجتحتموهم فتفرقوا في البلاد . فلا تستخفوا بحق الحرم وحرمة بيت الله ولا تظلموا من دخـله وجاءه معظماً لحرماته او خائفاً او رغب في جواره .

فانكم ان فعلتم ذلك تخوفت ان تخرجوا منه خروج ذل حتى لا يقدر احد منكم ان يصل الى الحرم ولا الى زيارة البيت الذي هو لكم حرز وأمن، والطير تأمن فيه .

فقام واحد منهم يقال له مجدع فقال :

ومن الذي يخرجنا منه ألسنا اعز العرب واكثرهم مالاً وسلاحاً ؟

فقال مضاض: اذا جاء الامر بطل ما تذكرون فقد رأيتم ما صنع الله بالعماليق.

ومع ذلك ، فلم يسمعوا ولم يبالوا بقول ملكهم الذي كان يرى خراب ملكه بعينيه وهو عاجز عن ان يحفظ هيبته في القوم .

فعمد الى كنوز الكعبة . وهي غزلان من ذهب واسياف . فحفر لها ليلاً في موضع بئر زمزم ودفنها .

واقام يعمل على رتق الفتق فلا يقدر ويحاول ان يرد قومه الى الهدى ولا يستطيع ...

- ٤ -

خزاعة

فبينا هم على ذلك خرجت القبائل من اهل اليمن وعليها عمرو بن الحي .

فلما انتهوا الى مكة واهلها . ارسل اليهم عمرو ابنه ثعلبة فقال لجرهم :

يا قوم انّا قد خرجنا من بلادنا فلم ننزل بلدة افسح لنا اهلها وتزحزحوا عنا فنقيم معهم حتى نرسل روّاداً فيرتادوا لنا بلداً يحملنا . فافسحوا لنا في بلادكم حتى نقيم قدر ما نستريح ونرسل رواداً الى الشام والى الشرق فحيثما بلغنا انهم وجدوا لنا مقراً لحقنا به . وارجوا ان يكون مقامنا معكم يسيراً .

فأبت ذلك جرهم اباءً شديداً واستكبروا في انفسهم لا يقبلون نصح مضاض الذي اراد ان يفسح للقوم .

وقالو لثعلبة بن عمرو :

لا والله ما نحب ان تنزلوا فتضيقوا علينا مرابعنا ومواردنا . فارحلوا عنا حيث احببتم فلا حاجة لنا بجواركم .

وكان عمرو سيد خزاعة من ابطال زمانه . فلما نقل اليه ولده جواب القوم، تميز غيظاً وقال له: قل لجرهم : « انه لا بد من المقام بهذا البلد حولا حتى نرجع الى رسلي التي ارسلت . فان انزلتموني طوعاً نزلت وحمدتكم وآسيتكم في المرعى والماء . وان ابيتم اقمت على كرهكم ثم لم تربعوا معي الا فضلاً ولا تشربوا الا رنقاً . وان قاتلتموني قاتلتكم ثم ان ظهرت عليكم سبيت النساء وقتلت الرجال ولم اترك منكم احداً ينزل الحرم ابداً » .

ولكن جرهم لم تقبل وأبت ان تنزله طوعاً فجردت السيوف . ومشى الفريقان الى القتال ... الا الملك فقد اعتزل الحرب . والا بني كنانة المقيمين حول مكة فلم يعينوا القوم ، وكان القتال شديداً وهو قتال فناء ، وقد مكثوا في الساحة ثلاثة ايام حصد فيها السيف اصحاب الكعبة لم يفلت منهم الا الشريد.

فرحل مضاض بن بشر هو وولده واهل بيته حتى نزلوا « قنونا » وفني الباقون في تلك الحروب .

قالوا : فلما حازت خزاعة امر مكة وصاروا اهلها . جاءهم بنو كنانة فسألوهم السكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم. وارسل مضاض الى القوم يستأذنهم في الاقامة بينهم ويذكر لهم رأيه واعتزاله الحرب . فأبت خزاعة ان يقروهم ونفوهم عن الحرم قائلين : من دخله منكم فدمه هدر .

فقال مضاض من قصيدة :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر
ولم يتربع واسطاً فجنوبه الى المنحنى من ذي الأراكة حاضر
بلى . نحن كنا اهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر
وأبدلنا ربي بها دار غربة بها الذئب يعوي والعدو المخامر

ومنها :

فصرنا احاديثاً وكنا بغبطةٍ كذلك عضتنا السنون الغوابر
فهل فرج آتٍ بشيء تحبـه وهل جزع منجيك مما تحاذر

وهكذ دالت دولة جرهم في الحجاز . وقامت على انقاضها دولة بني خزاعة، حوالي الجيل الثاني للميلاد .

والمشهور عند العرب . ان عمراً امير خزاعة . ادخـــل الوثنية على عرب الحجاز . وهو الذي جاء عنه في الحديث النبوي :

« رأيت عمرو بن لحي يجرّ قصبة في النار » يعني احشاءه .

حبى بنت حليل

نحن الآن، في اواخر الجيل الرابع للمسيح ، وقد مضى على دولة بني خزاعة في الكعبة زهاء ثلاثة اجيال ، وهم يرثون الامارة وسدانة الكعبة . ويولون بعض الناس غير ذلك من المناصب .. ولم تكن مناصب الدولة كثيرة في ذلك الجيل ، ان عظمة الحجاز وشهرته تقومان بالناس الذين يحجون البيت ، وجميع المناصب التي تسند الى النبلاء ، تتعلق بالحاج ، واصحاب المناصب امراء ، امراء في حياتهم وفي جميع المظاهر التي تكتنفهم ، العبيـد والجواري في قصورهم ، واسباب الرفاه والنعم تحيط بتلك القصور .

سيدهم جميعاً صاحب الكعبة ، الملك او امير الامراء .

وكانت الحجابة في ذلك الزمن قد انتهت إلى حليل بن حبشية الخزاعي سليل اولئك الملوك الذين تولوا أمر البيت ، وهو رجل طـــاهر الوجدان ، شريف القصد . خدم الكعبة كما يجب ان يخدمها الحـاجب الصادق . باشد ما منحه الله من أدب نفس واخلاص .

الرأي في الحجاز رأيه . والأمر امره . والناس يطيعونه ويمشون وراءه في

كل ما يحدث له من امور ، وحوله بنو خزاعة قومه . وبطن آخر هو بنو بكر . يشدون أزره ويعينونه في الملمات ...

وحليل ولدان ، ذكر وانثى ، هما المحترش وحبّى الاول ضعيف الارادة فاسد الرأي استسلم الى اللذات وملاهي الشباب . وحبّى ، نبيلة الخلق كثيرة الذكاء بعيدة النظر ، لها بين فتيات الحجاز ونسائه المقام الاول ليس لانها بنت حاجب البيت بل لأن لها من الادب ما عظمها في عيون القوم ، حتى ان اباها كان شديد الوثوق بها الى حدّ انه لا يصدر امراً الا اذا استشارها فيه، فهي كاتبة اسراره .. وامين داره .. ومجلس مشورته .. وهي النور الذي يضيء في تلك الدار التي تغص بجماعات الناس ، كل يوم .

واخوها المحترش . لا يعبأ بشيء من هذا ، كأن امر الكعبة التي جعلتها الاقدار في يد ابيه لا يعنيه . بل كأن الحجاز كله ، بما له من شهرة ومجد . لا يساوي في نظره ساعة واحدة من ساعات لهوه وضعف نفسه ..

وليس لسادن الكعبة الذي تنحني له الجباه ، حيلة في رد ذلك الولد الطائش الى الهدى ، ولم يكن له قوة ، على تقويم ما اعوجّ من اخلاقه ، على رغم جميع وسائل التهديد والنصح التي يلجأ اليها الاباء مع البنين ..!

والخمر .. ان الخمر احب شيء الى المحترش ، يشربها في الصباح وفي المساء ، لا يأنف من شربها ولا يرتوي ، وحبّى ترى كل ذلك بكآبة وألم . لأن اخاها لا يستطيع ان يخلف اباه في السدانة والامارة وهو على الحالة التي قرأت .

اجل . ان والدها شيخ جاوز السبعين ، وقد يموت في ساعة لا يجد فيها امامه ولداً صالحاً يسلم اليه مفاتيح البيت، وكانت تعلم ان الامارة لا تثبت لأخيها بعد موت حليل . لانه اضعف من ان يقوم بأمور الناس ، فبانت حزينة يملأ صدرها الهم . وهي تفكر في الامر الذي تصير اليه الكعبة بعد موت ابيها الشيخ .

وحبّى في الثامنة عشرة ، غير ان في صدرها نفساً كبيرة عاقلة تعرف جميع

معاني الحياة .. وهي تأبى الزواج ولا تريد ان تنظر في امره .. ان خروجها من بيت ابيها يفقد ذلك البيت نفوذه وقوته ..

وكان الفتيان الاشراف من خزاعة وبكر ، وبني كنانة النازلين في مكة يرون حبّى ، ويتمنى كل واحد منهم ان تنظر اليه نظرة رضى ليجسر على ان يخطبها الى ابيها حليل ، فلم تكن هذه النظرة لتفلت من عيني الفتاة . ولم يرها الناس تبتسم لفتى ابتسامة حب واغراء .

كانت تعلم نسب اولئك الفتيان وشرفهم ومنزلتهم في القوم ، وكانت ترى العز يمشي حيث يمشون ، والكرامة تكتنفهم حيث يقيمون . والعبيد والخيل بسروجها المذهبة تتبعهم حيث يرحلون . ولكن ... ولكن جميع هذه المظاهر لا تؤثر في حبّى . ولا تحملها على التفكير في امر اولئك الفتيان الا كما تفكر الملكة في الرعية التي سلطها عليها الله .

كأنها لم تجد بين نبلاء مكة . على رغم عواطف الشباب وميوله . فتى كفؤاً لها في المقام . بل لعلها لم تجد كفؤاً لها في الاخلاق ... انها لم تكن اكرم نسباً من ابناء قومها الذين ينتمون وتنتمي الى اصل واحد ، ومن بني كنانة المتحدرين من معدّ وهم فرعة اسماعيل .

نعم.وكانت تنظر الى النفس النبيلة قبل ان تنظر الى المحتد النبيل.والشباب الذين يطوفون حول الكعبة . ويجولون في ساحات مكة واسواقها وميادينها لا يعبأون الا بما يخلب الالباب من مظاهر وصور ، هؤلاء الشباب لا تريد احداً منهم زوجاً لها ... وعندما كان ابوها يسألها رأيها في فتيان قومه ويحدثها بأمر الزواج . كانت تقول له باسمة : دعني يا ابي فلا ارغب في هذا الآن .. اي ان سادن الكعبة لم يكن يزوج ابنته قبل ان يستشيرها في الامر وذلك ما لم تتعوده العرب في الجاهلية .

كان الناس يخطبون الى الاباء فتياتهم وينتهي امر الزواج دون ان يكون للفتاة رأي . ان المرأة كانت سلعة يساوم بها ، بين البائع والشاري كالسلع التي تباع

في الاسواق .!! الا نفر قلائل هذبتهم التجارب ، فلا يزوجون بناتهم الا بعد ان يسألوهنّ وحليل بن حبشية من هؤلاء .

حتى انك لتجد اليوم. في هذا الجيل . الجماعات الكثيرة من الناس ، تقذف بناتها الى المستقبل الاسود لا تحترم لهن عاطفة ولا تسمع لهن رأياً .

الوالد لا ينظر الا الى مصلحته ، والام تخضع لمشيئة زوجها القاسية عن جهلٍ او عن عجز ، وبين تلك القساوة وهذا الجهل تضيع الفتاة في مجاهل هذه الحياة ...

فكف حليل عن السؤال ، جاعلاً لحبّى مجالا واسعاً لاختيار من تشاء من الرجال .

وحبّى وحدها عزاء ذلك الشيخ، في كآبة نفسه، التي اوجدها طيش اخيها المحترش ، وفساد اخلاقه .

ليلى بنت زياد

كان الناس عندما يفرغون من سوق عكاظ . يقفون في عرفة « موضع بينه وبين مكة بضعة اميال » ثم اذا اتوا منى ، « موضع آخر » وارادوا الذهاب الى مكة . فبنو صوفة وحدهم هم الذين يجيرونهم اي يعطونهم الاذن في المسير ..

ذلك منصب كبير من مناصبهم كان لبني صوفة لا يخطو احد الحجاج خطوةً واحدة بدون اذن هؤلاء . وكانوا يقولون ، عندما يريدون ان يتركوا منى .

« اجيزي صوفة » .

فيمشي القائم بالامر امام الناس ، امام الالوف الذين قدموا ليزوروا البيت. ثم تندفع تلك الالوف بعد ذلك تريد مكة .

نعم ، ليس لأحد من العرب ، ان ينفر من منى يوم النفر . قبل ان ينفر اولئك النبلاء،وقد عرفت العرب ذلك الحق لبني صوفة وجعلوه ديناً في انفسهم

قبل ان تصبح ولاية الكعبة في يد خزاعة،لا ينازعونهم اياه ولا يحاولون الخروج عنه ، كما كانت النسأة « أي تأخير الشهور الحرم » كما مرّ . لبني مالك بن كنانة، وهي منصب آخر له شأنه .

اما أمير صوفة في ذلك الحين فزياد بن كعب ، وهو احد الاشراف الذين يجرون في الحجاز اذيال النعم .. وله ما لأمثاله من النفوذ والجاه .. وقد وفر له الذهب . وكثرت الخيرات بين يديه يعيش منها عبيده ومواليه والمقربون اليه .

وله فتاة هي ليلى ليس له غيرها ..

ولم يتزوج زياد بعد موت امها لئلا ترى من زوجته ما لا تحب ، وهي التي نشأت في احضان الدلال وبلغت الخامسة عشرة من السنين محمولة على اكتاف الجواري والعبيد .

نعم . ان زياد لا يطيق ان يكون في بيته الذي يشبه بلاط ملك ، سلطان فوق سلطان ليلى وصوت يرتفع قبل صوتها ، وقد عرفت الفتاة ذلك . وأكبرت تلك العاطفة العالية التي تجول في صدر ابيها البار .

لأجل هذا ، لم يكن لها همّ الا ان يكون ذلك الوالد راضياً في جميع الايام التي يقضيها في قصره بين ابناء قومه واضيافه ، وكانت توصي جميع غلمانه باعداد وسائل الراحة والعناية به عندما يكون في سفر ، وليس في ديار بني صوفة ، من يعصي لليلى امراً او يرد لها قولا . فهي سيد القوم بعد زياد . ولها الارادة النافذة في جميع الشؤون .

وفي الحجاز كله . من اقصاه الى اقصاه . لا تقع عيون الناس على جمال اروع من جمال ليلى ، ووجهٍ احسن من وجهها الضاحك . كأن الله اراد ان يرسلها آية الجمال ..

عينان فيهما الخلابة وجفنان فيهما الفتور . وثغر هو العذوبة التي ليس لها حدّ . . . .

سبحان من خلق ليلى لقد جعلها في ذلك البهـــاء . وذلك الحسن . فتنة للناظرين ، وفي خفة روحها وابتسامتها الدائمة سحراً خلاباً للعقول .

وكان جدها، ابو زياد حياً ، لا يخرج من المنزل الا ليرى الشمس الطالعة من وراء الجبال ، ويشهد الناس يروحون ويجيئون في اسواق مكة ذاكراً ايام الصبا وحياة الشباب ، وهو من الرجال الذين خبروا العالم من جميع نواحيه ، وقـد تخلى منصبه لزياد . ليستريح من متاعب ماضيه ، ولكي يهذّب المعترك البشري ولده ، وينتشر نفوذه في الحجاز . وهو حي ، فيفرح قلبه . ويرحل الى الآخر مطمئن الضمير ، وهو الشيخ المحترم النافذ الكلمة في بيته ، على زياد وليلى ان يمهدا له سبل الهناء والراحة وليس لهما ان يراجعاه في شيء .

وابو زياد احرص الناس على الشرف الموروث وعلى التقاليد التي قدسهـــا اجداده ، لا ينزل عن شيء منها ولو قتلوه .

وكان عزيزاً أبياً . لا يصبر على ضيم . ولا ينام على ذل ..

وليس غريباً ان يكون كذلك . فبنو صوفة قومه يمنعونه في المحن . والعز والاباء شيمه الاشراف والعامة من العرب .

وام ليلى ، التي ماتت منذ اثنتي عشرة سنة ، لم تكن من بني صوفة، بل هي احدى بنات بني الخزرج من المدينة « يثرب » ، ولهـا في المدينة خمسة اخوة ، اخوال ليلى ، جميعهم احياء . ولهم فيها المقام والشرف والمال .

* * *

حبّى وليلى صديقتان . أحبت الواحدة منهما اخلاق الأخرى ووثقت الايام عرى المودة بين الاثنتين .

الأولى في الثامنة عشرة . والثانية في الخامسة عشرة كما قرأت . وهو العمر الذي تثبت فيه العاطفة وتكثر الآمال ..

والقلبان . يغمرهما الشعور والاحساس ولكنهما لا يعرفان الغرام .

كانت الفتاتان مع فريق من بنات النبلاء معهن الجواري يصعدن في الجبل ويهبطن الوادي ؛ فوق مكة وحولها ، يتنزهن في الخلاء . والحياة عند العذراء ذات القلب الخلي ، مرح وطرب . لهو وفرح. لا تعرف تعباً ولا تحمل هماً. وهي لا تشعر بالنار تذيب حشاشتها الا بعد ان تصيبها سهام الحب .

وعلى كثيب او على قمة . تجلس عذارى الحجاز ينظرن الى طوائف النوق تحجب وجه الافق والى الرعاة الفتيان يتغنون ويرتجزون .

وقد يمر بهن فريق من الفتيان النبلاء . هذا يطلب ابله . وهذا يطلب خيله، فتحدق العيون الى جمال حبّى وليلى السافرتين ، ثم تتيه نظرات الفتيان وفي قلوبهم لوعة الغرام .

يستهويهم ذلك الجمال ولكنهم لا يجرأون على الظهور امام الاميرتين بمظهر المحبين .

وكثيراً ما كانت الاثنتان ، تنفردان عن الجماعة لتتحدثا عن هذا الفتى وعن الآخر ، ثم ينتهي الحديث بينهما الى الضحك والاستهزاء .

ان تلك النظرات التي احاطها بها القوم ليس فيها نظرة واحدة تفتح القلبين الخليين ..

على ان حبّى لا تستسلم الى الضحك حتى تعود الى التفكير في امر اخيها المحترش . وفي هذا العز الذي قد يسلبها اياه الزمان .

فتقبض نفسها ، وتظهر صورة الألم في عينيها الطافيتين ، وليلى لا ترى تلك الصورة ولا تفكر في الآلام ..

ولولا الخامسة عشرة .. اجل لولا سن الاحلام والمنى ، لكانت ترى في المستقبل خطراً اشد واروع من الخطر الذي يهدد حبّى .

جدها شيخ، وابوها ليس له ولد ذكر يرث منصبه العالي، فاذا مات الاثنان، الجد والوالد ، اصبحت ليلى وحيدة في البيت الذي نشأت فيه .. وامتدت الى

امارة زياد ايدي قومها الطامعين .. فتنتقل من عزٍ الى ذل . وقد يجور الزمان فتخسر كل شيء .

وهب ان اباها جعل امارة « النفر » الى واحد من ابناء صوفة ، قبل ان يموت . فالأمر على كل حال خارج من يد ليلى . لان الانثى لا يولونها المناصب التي لا يستطيع القيام بها الا الرجال .

وهل ترضى العرب ان تجيزها فتاة وتنفر قبلها من منى الى مكة ؟؟ وهل مني الحجاز بقحط في الرجال حتى تقوم النساء بأمره ؟

وماذا تصنع ليلى وزياد يرفض الزواج ويكره ان يسلط امرأةً غريبة على ابنته ؟

اذن، فالفتاة على شفير الهاوية وهي لا تدري. وزياد ايضاً الذي هو صاحب الامر لا يفكر فيه .

اما حبّى فقد اضناها التفكير . وعليها ، بالاشتراك مع ليلى ، ان تجد لهما وسيلة . تضمن في الزمن الآتي . بهجة البيتين ، والعز الذي يعيشان فيه .

* * *

بين نبلاء صوفة . فتى ربعة في الخامسة والعشرين من عمره ، اسود العينين صغيرهما . واسع الجبهة كبير الوجه . قصير العنق حتى يبدو كأنه لا عنق له .

وهو ذو مال كثير ، تركه له ابوه كله . كما ترك له المئات من صنوف النوق .

تزوج فتاةً من خزاعة وابوه حي . ثم طلقها بعد موته ، ليختار له فتاة أخرى من بنات الاشراف ، وليس على صاحبنا من بأس . اذا هو اختار في كل يوم زوجة ، بطلاق او بدون طلاق . ان الذهب يملأ جرابه . ومواشيه تملأ السهل . وعاطفته الهوجاء لا تستقر على حال .

اما اسمه فجبير بن عبادة .

وكانت له هيبة في نفوس القوم . ليس لأنه ذو سلطان وذو مال ، بـل لأنه حسود خبيث ، يحب السعاية والشر .

والذكاء الكثير الذي وهبه الله لجبير . وجّهه كله الى الفساد والاكاذيب لا يثنيه شيء ولا يمل ، وهو – بفضل المال الذي انتهى اليه – كثير الخيلاء وكثير الغرور ، وقد يقوم في ذهنه ان مكة بمن فيهـا من النبلاء والامراء . وما حولها من قبائل وأمم ، بحاجة الى رضـاه .. وكثيرون في هـــذا الزمن لهم جنون جبير ... حتى دفعه ذلك الغرور الى الطمع بالامارة ، امارة زياد ، وحتى بات واثقاً بان هذه الامارة تسعى اليه ، عندما يرتفع في بني صوفة ، اول صوت له .

لكن مولى له من اليمن ، نصح له بالعـدول عن هذا الرأي ، لان بني صوفة لا يتركون زياداً .. وسائر بني بكر لا يطيعون سواه . وهذان الحيان لا يؤخذان بالسيف .

وطلب الامارة ، في مثل تلك الجرأة الغريبة . يفضي الى حرب تستعر نارها في قلب الحجاز ، وجبير لسوء حظـه ، لا يملك شيئاً من اسباب هذه الحرب ، اضف الى ذلـــك ان بني خزاعة انفسهم وعلى رأسهم امير الكعبة ، يكونون عوناً لزياد ، فيكون الموت طعناً بالرماح ، نصيب المغرور .

فلم يقبل جبير نصيحة مولاه . واستمر عـلى رأيه يفكر في امر الحصول على المنصب الكبير الذي لم يخلق الا له .

وعبده اليمني الذي نشأ في بيت عبـادة ابي جبير . لا يطيق ان يرى سيده في ذلك الموقف الصعب الذي لا يستطيع ، اذا اصبح فيه ان ينجو منه ...

ففي ليلة من ليـــالي الشتاء هجر النوم جفني جبير فنهض يهم بالذهاب الى عشراء صباه يستشيرهم في امره .. ان الأمل الذي يجول في صدره ، ولم يبح به الا لعبده عدوان لم يعد قادراً على حفظه في ذلك الصدر ، ولم يجد بين رفاقه من يكون عوناً له على بلوغ الغاية ، لكنه لم يلبس قلنسوته ويتناول العباءة ، حتى استفاق عدوان من نومه ، فرأى سيده يهم بالخروج ، فقال له وقد نهض مذعوراً :

ماذا تفعل يا مولاي ؟

قال : اخرج من هذا المنزل كما ترى ..

- : الى اين ؟

- : الى حيث اجد اعواناً يحملون السيف عندما ادعوهم الى حمله .

فقال : اصبر يا مولاي حتى اقص عليك ما رأيته في الحلم .

- : ليست القضية قضية احلام ايها اللعين ..

- : ولكنها قصة جديدة يخيـل اليّ ان ملاكاً من السماء رواها لي وانا بين مستيقظ ونائم ..

- : سيكون حلمك نصيحة اخرى تبعدني عما ارغب فيه فلا حاجة لي اليه .

وجعل عباءته على رأسه ومشى الى الباب .

فتصدى له عدوان وهو يقول :

اسألك بتربة عبادة ان تصغي الى ما اقول .

فتراجع جبير الى فراشه وجلس عليه ثم قال :

أتريد ان تهزأ بي يا عدوان ؟

- : لا ورب الكعبة يا جبير ، ما اردت لك ولأبيك من قبلك الا الخير .

- : واي خير تراه الآن ؟

قال : التمس من مولاي ان يطلعني على اسماء اصحابه الذين اراد ان يفضي اليهم بسره .

فقال : حسبت انك استوقفتني لتقص علي حلمك .

- : هو ذاك يا مولاي ولكن بعد ان تذكر لي هذه الاسماء .

- : واذا أبيت ؟

- : بل تفعل وقد استحلفتك بتربة عبادة .

قال : اذكر لك فلاناً .

قال : هذا لا خير فيه وهو لا يملك الا سيفه .

فذكر له رجلاً آخر فقال :

وهذا يعيش من بيت زياد ..

ثم جعل يذكر اوصاف الرجال الذين سمّاهم جبير فكانوا جميعهم من الفتيان الأغرار . . .

– : اذن فانت لا ترى في بني صوفة الا زياداً أتظن ان عشيرتنا كلها تحب صاحبك ؟

قال : ما رأيت احداً يكرهه يا مولاي .

قال : انا .

– : ولكنك وحدك وهذا لا يكفي .

– : نعم . ولكن سترى بعد قليل ان خلفي جيشاً جراراً يطلبون الامارة في بني صوفة لابن عبادة .

– : واظن انك ستشتري هذا الجيش بالمال :

– : اجل . وزياد لا يستطيع ان يعطي الناس شيئاً .

فابتسم الرجل قائلاً :

خير لك يا مولاي ان تحفظ هذا المال للأيام السود .

قال : أتنحني الرؤوس لابن كعب وانا حي ؟

– : ذلك ارث أجداده لم يستولِ فيه على حق احد .

– : ولكني لا اطيق هذا وانا أغنى رجال العشيرة .

– : وماذا تفعل . ان الحرب لا قبل لك بها وجميع ما عندك من المال يذوب في يوم . . .

– : اذن اقتل زياداً وينتهي الأمر .

قال : كأنك نسيت ان الرجل من ابطالَ العرب .

– : أقتله غدراً في ليلةٍ من ليالي هذا الشتاء .

– : وبعد ذلك ؟

— : يثور الانصار الذين حولي ويجعلوني سيد القوم .

قال : أفلا تعلم يا مولاي ان امـــارة زياد بن كعب دين في انفس العرب لا يريدون ان تخرج من بيته ؟

— : ولكنه سيقتل وليس له ولد .

— : عنده ليلى يا مولاي ..

فقهقه جبير ضاحكاً وقال :

وليلى هذه تدفع بالناس من عرفة وتجيرهم لينفروا من منى كما يفعل ابوها ؟

— : قد يكون ذلك .

— : بل لا يكون وفي العرب شرف ..

— : انهم يفعلون هذا ليقهروا قاتل زياد الذي هو انت .

— : اراك تجعل النور في وجه مولاك ظلاماً ، كأنك حليف اعدائه ..

— : ومن هم اعداؤك يا مولاي ؟

— : زياد ومن ينتمي اليه من العرب ..

فاستوى عدوان في مجلسه وهو يقول :

ان هؤلاء لم يفكروا قط في ان يكونوا اعداء لك.. لقد خلقت هذه العداوة الآن .. خلقت في صدرك الطامع بالامارة والناس لا يعلمون عنها شيئاً .. نعم يا مولاي ، ان زياداً وقومه ابرياء ولو رجعت الى نفسك لرأيت انك أنت الجاني . وان الاقدام على قتل البريء جريمة لا تغفرها لك العرب ولا يغفرها الزمان .

— : قلت اني لا اطيق ان يكون رجل من قومي سيداً لي .

— : اذا كان ذلك فادخل على السيادة من الابواب ..

— : ومعنى هذا ؟

— : معناه انك تستطيع ان تخلف زياداً دون ان تهرق الدماء ..

فتردد الرجل في الجواب ثم قال :

بالاستعطاف ام بماذا ؟

— : بالدهاء الذي تصبح معه سيد الناس .
فجعل يتفرس فيه وقد برقت عيناه .
اما عدوان فاستطرد قائلاً :
الا تعرف ليلى ؟
— : اعرفها وهي تلعب في فناء الدار .
— : انها تبلغ الخامسة عشرة من السنين .
— : أجل . وهي اميرة الحسان في الحجاز .. ولكني لم أزر زياداً بعد موت أبي ولم افكر في طفلته ...
قال : واراك ترغب في الزواج وتبحث عن حسان العرب .
قال : نعم .
— : وقد نسيت ليلى كأنك لا تعرفها وكأنك في اليمن او في الشام .
— : أتريد أن اجعل ليلى زوجة لي ؟
نعم وفي الزواج تضم اليك الجمال والشرف وترث زياداً .
قال : لم أرَ في هذا الرأي شيئاً من الدهاء الذي ذكرت
— : لمــــاذا ؟
— : لأن ابن كعب في مقتبل عمره وقد يموت بعد خمسين سنة ..
— : بل قد تموت قبله وليس هذا الذي أردت .
— : اذن كيف أرث الرجل ؟
— : ترثه وهو حي ..
قال : اما الارث فلا يكون قبل الموت .
— : ألم يكن كعب سيد الناس قبل زياد ؟
— : بــــلى .
— : وأنت ترى الآن زياداً في منصب أبيه وأبوه في الوجود .
— : ولكنه ولده وقد جعله أميراً في حياته ..

– : كما يوليك زياد الامارة بعد أن تصبح زوجاً لليلى .. ان هذه الطفلة هي في نظرك حياة الوالد والجد . وسيدة البيت الذي ولدت فيه ، ولولاها ، جل لولا ليلى لكان لزياد بضع زوجات له منهن بضعة عشر ولداً .

– : واذا لم ينزل الرجل عن منصبه فماذا نفعل .

– : ان إرادته وإرادة أبيه تضيعان عندما تريد ليلى . فاذا رغبت في السيادة فمن هذه الناحية ليس غير .

فأخذ جبير يفكر فيما سمع وقد بدت له الآمال من وراء ذلك التفكير ثم قال: لكنك نسيت امراً يا عدوان .

– : اذكر هذا الامر يا مولاي .

قال : أليس الرضى هو الشرط الأول للزواج ؟

– : نعم .

– : ومن يضمن لنا رضى ليلاك ..؟

– : ليس لنا أن نضمن رضاها عندما يرضى زياد .

قال : ان هؤلاء الامراء جعلوا الرأي لفتياتهم وعلموهن الدلال .. أفلم ترَ ان حليل بن حبشية سادن الكعبة لا يزّف حبّى الا الى من تختار ؟

– : وهل يكون زياد مثله ؟

– : من يعلم فقد يتردد في الرضى ريثما يسأل ابنته .

قال : لا اظن أن في مكة رجلاً يأبى ان تكون فتاته زوجة لك .

– : وإذا حدث ما لا تظن ؟

– : تعود عندئذٍ إلى رأيك الأول الذي هو الحرب أم القتل .

فقال دون أن يتردد : لقد رضيت . ولم يبق الا أن أرى ليلى .

– : احذر أن تحدثها بأمر الزواج قبل ان ترى أباها .

– : بل اريد أن أرى وجهها بعد أن اضحت سيدة الحسان ، فأين يكون هذا ؟

قال : لو أردت أن ترى جميع عذارى مكة لتمّ لك ذلك .

قال : ان فيهن من لا تنزع عن وجهها الحجاب .

— : ذلك في بيوتهن . اما خارج المدينة فجميعهن سافرات .

— : أتعرف لهنّ موضعاً يخرجن اليه ؟

قال: في هذا الجبل الذي يقوم شرقي مكة بقعة حمراء تنبسط امامها الأرض..

— : أعرفها وهنالك ترعى الخيل والفصلان .

— : ووراء البقعة الحمراء صخراً أملس كبير يسع قبيلة .

— وأعرف هذا أيضاً .

— اذن فأعلم أن حبّى وليلى ومن يتبعهما من الجواري والفتيات يخرجن الى ذلك الموضع مرتين او ثلاثاً كل ثمانية ايام .

— : ومن يلحق بهن من العبيد ؟

— : انك لا ترى وراءهن أحداً .

— : وهل رأيت ليلى عن قرب ؟

— : اكثر من عشرين مرة يا مولاي ... ووجهها يفيض نوراً وعيناهـــا للبيضان سحراً ...

ثم قال : وقد تقع عينيك قبل غروب الشمس على فريق من فتيان مكة يدورون حول ذلك الصخر الاملس كما يدورون حول الكعبة وهم يطمعون بابتسامة ولا ينالونها .

— : وفيهم من بني صوفة ؟

— : من جميع بطون بني بكر وخزاعة. ومن بنى لؤي أنسباء زهرة بن كلاب الكناني ، وليس لحبّى ذكر بين هؤلاء الفتيان يا مولاي .. انهم جميعهم يريدون ليلى التي يحجب جمالها جمال بنت حليل .

— : اذن نذهب غداً إلى البقعة الحمراء فنرى من وصفت .

قال : لقد ذهلت عن هذا الشتاء الغزير الذي ازعجنـا منذ يومين ، فانتظر ريثا يصحو الجو ...

قال : اصبت ويظهر أن ليلى ستنسينا كل شيء .

وقد اكتفى بما سمع . فطرح عباءته وقلنسوته وقال لعدوان :

اذهب ونم ملء جفنيك فقد احييت الأمل في هذا الصدر .

واستلقى على فراشه ثم استسلم الى نوم كله احلام .

* * *

أتعرفين يا ليلى هذا الفتى الذي يشمخ بأنفه الى السماء .

— : أعرفه كما أعرف فتيان قومي واحداً واحداً . انه جبين بن عبادة .

— : وهل تعلمين شيئاً عن أخلاقه ؟

— : اما أخلاقه فلا.رأيته على فرس أدهم يوم اجتمعت العرب في مكة للنظر في أمر الخراج الذي يدفعونه لملوك اليمن، وكنت في إحدى شرفات المنزل انظر الى وفود الناس تمر بالقرب منه ، فسألت عبدالله ، مولى جدي أبي زياد ، فقال انه ابن عبادة . وانه ورث أباه وما عنده من مال كثير .

ثم قالت :

وعبدالله يا حبّي . نسابة يعرف أصول العرب . ويحدثك عن جميع فتيان مكة الذين شرف نسبهم . وكثرت اموالهم وسادت اجدادهم . حتى ان ابا زياد في شيخوخته وصمته . لا يستلذ غير أحاديثه . ولا يفتر ثغره لأحـدٍ غيره من الرجال . وقد منع ابي من ان يتخذ له مولىً آخر في حياة عبدالله .

وهو كثير الذكاء وشديد الاخلاص . لا يفارق ابي ساعة ، ولا ينظر الا في وسائل العناية بنا والوفاء لنا ...

وله،على رغم السنين التي يحمل، قوة الشباب ومروءتهم واستخفافهم بالأخطار، كما انه من رفقاء جدي ابي زياد في الميادين ومن ابطال الحرب ..

فقاطعتها حبى قائلة :

دعينا من عبدالله الآن وانظري الى جبير يدنو منا ... من هذا الذي يماشيه ويومىء بيديه ..؟

— : انه تابعه من اليمن ولا أعرف اسمه . وقد رأيته وراءه في ذلك اليوم .

فابتسمت حبّى ابتسامه خفية كأنها تعرف ابن عبادة قبل اليوم . ثم قالت: لقد وقفا ...

وكان الفتيان قد اصبحا على بعد بضع عشرة خطوة .

فهامس عدوان سيده قائلاً :

وجعلا يتحدثان عن النوق . وينظران إلى الافق كأنهما يريان شيئاً معيناً يدلان عليه ..

يفعلان هذا . خوفاً من أن يستولي الخجل على حبّى ورفيقاتها فينصرفن قبل الغروب .

وهما انما يريدان ان تبقيا ليرى جبير زوجته ليلى بنت زياد ..

ولكن حبّى عرفت الغرض من دنو الاثنين .

غير انها لم تعرف من هي الفتاة التي كان ابن عبادة يفكر فيها في ذلك الحين..

فكثت قليلاً.وحسان مكة يتبعنها وهي تبتسم لهنّ وتحدثهن كأن الرجلين لا وجود لهما .

ومررن امام جبير ومولاه.فجعل الأول منهما يحدّق الى ليلى بعينين ملتهبتين وقد سحره ذلك الجمال .

وعندما توارت الجماعة عن النظر تنهد الفتى وقال لرفيقه :

لقد كنت طامعاً بإمارة زياد .. اما الآن فلا اطمع الا بالحصول على ابنته ..

فأجابه عدوان قائلاً :

وانا أرى انك ستستولي على الاثنين .

* * *

لا اظن ان في الارض كلها فتاة لها وجه ليلى ، ففي اي ذهولٍ كنت ... وكيف لم أرَ هذا الحسن من قبل .

– : قلت لك يا مولاي ان بنت زياد آية الجمال أفرأيت الآن اني كنت صادقاً فيما قلت ؟

– : بل كنت عاجزاً يا عدوان ولم تحسن الوصف . فليلى هبة من السماء ورب الكعبة ...

– : وعلى ماذا عوّلت الآن ؟

– : على ان أخطبها الى ابيها عند الصباح ..

قال : ان الذي يريد ان يسود قومه لا يتعجل في اموره .

– : لا تذكر لي السيادة بعد اليوم فقد تركتها لأصحابها وعدلت عن ذلك الرأي .

فهزّ رأسه قائلاً: لأن ليلى اصبحت في نظرك فوق كل شيء.. وقال في نفسه: والله لو امست ليلى زوجة لك وهي اجمل النساء لمللتها بعد شهر ..

ثم قال : الا تصبر يا مولاي بضعة ايام ؟

– : وأي معنى لهذا الصبر الذي تقترح .

– : معناه اني اريد ان أدرس أحوال زياد وأتبين رأيه ورأي ابنته قبل ان تخطب اليه ..

– : وكيف تستطيع هذا ؟

– : أنسيت عبدالله مولى ابي زياد ؟

– : لا . ولكن هل يعرف عبدالله اسرار ليلى ؟

– : انه كثير الكلام ويعرف أسرار العرب كلها ..

– : ولكن أتبوح للمولى بأمرٍ مثل هذا قبل ان تبوح لسيده ؟

قال : ان عدوان يأخذ اولاً ثم يعطي ..

– : وإذا رفض أن يعطيك قبل أن يأخذ ؟

- : ذلك شأني يا مولاي وأرى أن تنصرف الى عملك وانصرف الى عملي التقي . . .

قال : اما عملك فمعروف ولكن ما هو عملي ايها اللعين .

فقال: تركب جوادك الأدهم مثلاً، ثم تطوف في احياء مكة باحثاً عن حسناء جديدة تجعلها زوجة لك بعد ان تطلق ليلى . . .

فقطب جبير حاجبه قائلاً : وكيف اطلقها وهي لم تزفّ اليّ بعدُ ؟

- : ولكني افترض يا مولاي . . .

قال: افترض ما شئت الا هذا، فليلى اذا اصبحت لي فلا تخرج من هذا البيت الا الى القبر . . .

- : اي انك لا تعمد الى الطلاق عندما تملّ بل الى القتل . .

- : ومن يملك مثل ليلى ويفكر في الطلاق ؟

قال : ذلك الذي يملك جراباً محشواً بالذهب مثل مولاي جبير بن عبادة .

- : اترك المزاح وانظر في الأمر من طريق آخر .

- : سأفعل يا مولاي . .

قال : الآن . . .

- : نعم الآن . وفي هذه الساعة .

فقال: أما أنا فسأسير الى ديار بني هذيل لأرى ابلا لي واعود بعد بضعة ايام.

- : أتترك مكة ؟

- : أجل وأتركها اليوم .

- : ولكن العاشق لا يطيق ان يغيب الحبيب عن عينيه . . .

قال : لو لم تكن ابله ، لعرفت ان الغيبة في بني هذيل خير من الانتظار في مكة . ربما تنتهي مهمتك ، اذهب الآن . . . فخرج عـــدوان من المنزل وهو يقول : ان الابله هو الذي لا يعرف أن يتزوج ولا يعرف ان يسود . .

* * *

مرّ يومان وعدوان لا يستطيع ان يرى عبدالله ، لا في ظاهر مكة ولا في السوق ، ذلك لان أبا زياد مريض ، وعبدالله وليلى لا يبتعدان عنه ، فقام في ذهنه ان الحظ يخون سيده ، وهب انه استطاع ان يرى عبدالله ، فليس من الدهاء ان يذكر له امر الزواج وابو زياد في فراش مرضه ، ولكنه اخطأ . فالاقدار تخدمه ، من هذه الناحية وتخدم مولاه من حيث لا يعلمان ، وكأنها تمهد للاثنين سبل الاجتماع بمن يريدون .

كان الاشراف من بني صوفة ، يرسلون ابلهم او بعضها الى ديار بني هذيل قبل فصل الشتاء ، وكان رعاتها والغلمان يقيمون معها حتى يقبل الربيع فتنتقل الى موضع آخر ترتبع فيه ، ولزياد بن كعب طائفة كبيرة من النوق في ذلك الحي ، والعرب تعرف صاحبها فلا تعرض لها بسوء ، حتى كانت تلك السنة . وكان العام الماضي مجدباً ، والضيق شديداً ، في الحجاز وفي نجد ، فاخذت القبيلة تغزو القبيلة ، والحي يغير على الحي . بينهم الغازي المعوز والطامع بحق الجار . ولم يبقَ حي من الاحياء الا واشترك في الغزو . هذا يهاجم ديار عدوّه وهذا يدافع عن نفسه او عن حليفه ، وقد استعرت النار ، قبل سفر جبير ببضعة ايام ومعظم اهل مكة لا يعلمون ، فلما قارب ابن عبادة ديار هذيل . رأى الحي خالياً من الرجال فعرف ان القوم في غارة لهم ، وخبّرته النساء والغلمان ان قوماً من جيرانهم بني ثقيف ، استاقوا بعض ابلهم ، بينها ابل زياد ابن كعب سيد بني صوفة .

قال : وابلي وابل القوم ؟

قالوا : في الجهة الاخرى لم تمر بها ثقيف ، فلمعت عينا جبير واشرق جبينه.. ان ماله باقٍ ونوقه لم تمس ...

ونوق زياد في ايدي العرب وقد اغار بنو هذيل ليسترجعوها الى الحي .

وهي نوق ابي ليلي .. وهذه فرصة يبلغ بها ابن عبادة غايته من القوم ، اذن فليمد اصبعه وليدله الغلمان على مكان القتال . ليشترك فيه ..

أجل ، فبنو هذيل رجال شدة وبأس . ولا يلبثون حتى يستعيدوا مـــا سلبهم جيرانهم اياه ، انها ضربة خبير يريد ان يضربها ابن عبـــادة ، ليس عن مروءة تدب في صدره اذ لا تجد في ذلك الصدر أثراً للمروءة . بل لغرض خاص هو الحصول على ليلى كما ترى ، وسيقول بني صوفة في مكة : كان ابن عبـادة وحده من قومنا . في طليعة الرجال الذين حموا المال ، وفي ذلك مـا فيه من شهرة وشرف . تسعى اليه بعدهما ليلى الساحرة ، وعلى هذا الامـل اغار ... وشاءت الاقدار ان يظفر بنو هذيل ويسترجعوا نوقهم ونوق صاحبهم ، فتحدث الناس قائلين : كان ابن عبادة يصرع الرجال من بني ثقيف واحداً بعد واحـد حتى فرّوا من وجهه وتركوا ما سلبوه ..

وبلغ الخبر بني صوفة في مكة . فركب زياد بابطال قومه يريد ان يسترجع ماله . ونهض بنو خزاعة بأمر سادن الكعبة . يعـــدون عدتهم ليكونوا عوناً لاخوانهم قوم زياد.. لكن خبراً آخر ملأ الاحياء هو خبر فرار بني ثقيف وغارة جبير بن عبادة مع بني هذيل غاضباً لكرامة قومه ، فردّ زياد الرجال ومكثوا في مكة ينتظرون رجوع جبير وقد اكبروا مروءته واندفاعه وحده في سبيل شرفه .. وراحت النساء والعذارى يرتجزن وينشدن الاناشيد لحـــامي اموال صوفة الظافر ..

ولم يبالغ الناس في شيء وما ذكروه عن جبير ، فقد كان في تلك الغارة سيد السيف ..

* * *

ماذا فعل صاحبنا جبير يا ليلى ؟

– : انه لم يفعل الا ما يفعله جميع الناس الذين يسودهم زياد .

– : ولكنه كان كبير القلب نبيل القصد عندما لحق بالقوم وحفظ لأبيك مـــاله ...

– : ومع ذلك فليس له فضل يا حبّي. ان ابي يصون اموال صوفة ويحفظها منذ ولاّه جدّي أمر العشيرة وجعله اميراً ..

ـ : اذن فالرجل الذي يدافع عن قومه ويقذف بنفسه بين اشداق الموت ليذود عنهم العار ، ان هذا الرجل لا يكون في نظر ليلى شيئاً ..

قالت : يدعونه بطلاً ، ويحيطه الناس بمظاهر التكريم والاعجاب . وهذا يكفيه .. واما ان يكون له علينا فضل ، فلا ..

قالت : يخيل اليّ ان اباك زياداً سيكون اول المعترفين بهذا الفضل .

ـ : نعم ، سيهز يده ويثني على مروءته امام القوم ..

ـ : بل يجاوز الثناء الى اعظم منه ..

ـ : الى ماذا ؟

ـ : الى الرضى بان يكون جبير زوجاً لابنته ..

فابتسمت ليلى ابتسامة انفة وكبرياء ثم قالت :

أيصبح ابن عبادة زوجاً لي ؟..

ـ : أجل ، وسيخطبك الى ابيك على مرأى ومسمع من القوم فلا يجد زياد سبيلاً الى ردّه ..

قالت : أتظنين ؟

ـ : بل انا واثقة بهذا ..

ـ : اذن يعزّ عليّ ان تجاوزي الحد في هذا الوثوق .

ـ : كما يعزّ عليّ ان تستسلمي الى هذه الكبرياء .

قالت : ان زياداً لا يزوج ابنته قبل ان يسألها ، واذا سألها فلا يكرهها على الزواج بمن لا تحب ..

ـ : مع ان الآباء جميعهم في الحجاز لا يفعلون هذا الا واحداً منهم في مكة هو ابي حليل ..

فاجابتها قائلة : وواحداً آخر هو زياد بن كعب .

قالت : لنفرض ان جبيراً جاءكم خاطباً وقام ابوك يسألك الرضى به فماذا تصنعين ؟

- : ان أبي لا يسألني الرضى بل يسألني إبداء رأيي في ذلك الذي يخطبني اليه . . .

- : واذا كان هذا فماذا تقولين له ؟

- : أرفضه كما رفضت الكثيرين من النبلاء .

- : لكنه شجاع وكثير المال كما ترين ..

- : ليكن اطول الناس سيفاً واكثرهم مالاً فأنا لا ارضاه .

- : وهو جميل الوجه فصيح اللسان ..

- : هي ان له وجه يوسف بن يعقوب الذي يقصّ علينا اليهود حكاية جماله فلا خير فيه .

- : واذا أراد ابوك ان تذكري له سبب هذا الرفض ؟

قالت : اما السبب فصريح جداً هو اني لا أحبه ..

- : وأي فتاة في العرب تجرؤ على ذكر الحب ؟ ان النساء يا ليلى تماثيل ليس لهن ارادة ولا يملكن حق القبول او الرفض فيما يختاره لهن الرجال . لاسيما عندما تكون القضية قضية زواج ..

- : وعندئذٍ يغضب اذ تذكرين له ذلك وقد يسألك عمن تحبين .

قالت : وعند ذلك اقسم له برأسه اني لا أحب أحداً ولا اريد أن اخرج من بيته لأدخل بيتاً آخر . ثم قالت : كنت اظن انك لا تعرفين ابن عبادة .

- : بل أعرفه كما يعرفه عبدالله الذي دلك عليه .

قالت : الا تذكرين ذلك المساء الذي رأيناه فيه ، في هذا المكان ؟

- : بلى اذكره .

قالت : كنتِ في ذلك الحين تسألينني عنه كأنك لم تري وجهه من قبل ..

-: ذلك لأني عرفت ان له غرضاً من المجيء الى هذا الصخر الذي نجلس فوقه .

- : واردت أن تكتميني الأمر . لتلمسي بيدك من وراء الستار ذلك الغرض الذي جاء من اجله .

– : هو ذاك .

– : واليوم ؟

– : اما اليوم فقد عرفت غرضه وهو الذي ذكرته لك الآن .

– : اي انه اراد أولاً ان يراني ثم ينصرف الى أبي خاطباً أليس كذلك ؟

– : هذا الذي يبدو لي يا ليلى وافكر فيه .

فضحكت قائلة : وانا أفكر في الامر من ناحيته الاخرى ...

فاجابتها حبّى وهي تضحك مثلها : أتريدين ان تقولي انه جـــاء ليراني ؟ ليراني أنا ؟

– : نعم ثم ينصرف الى سادن الكعبة خاطباً ..

– : ولكن هذا لا يكون اذ لا سبيل اليه ..

قالت : وهل وهب لك رب الكعبة قوةً خفية تعرفين بها مـــا في قلوب النـــاس ؟ . .

قالت : لا ولكني اعرف ان ابن عبادة لا يحاول ان يرى حبّى بنت حليل .

– : لمـــاذا ؟

– : لانه خطبني الى أبي فردّ عليه طلبه .. اسمعي يا ليلى اني أحدثك الآن بجلاء لأن الامر اعظم مما تظنين .

– : وانا اسألك قبل ذلك سؤالا .

– : سلي ما تشائين .

– : ما الذي دعاك الى الاعتقاد ان الرجل سيخطبني الى أبي وهو يستطيع ان يشتري بماله اجمل نساء العرب .

قالت : هذه هي الحكاية التي اريد ان اقصها الآن. النساء كثيرات في الحجاز كما تقولين وليس فيهن من تأبى ان تكون زوجاً لابن عبادة ، غير ان هذا الفتى لا يفكر الآن في الزواج الا لأمر ..

فنظرت اليها ليلى وعلى وجهها دلائل الاستغراب .

، قالت : سيزول هــذا الاستغرب عندما تصغين اليّ ، لقد أخطأت في قولي ان الرجـــل يفكر في الزواج . وكان عليّ ان اقول انه سيجعل زواجه وسيلة للحصول على أمر آخر .

- : وماذا يكون هذا الامر ؟

فهامستها قائلة : انه يطمع بالامــارة ولا يخطب الا بنات الامراء واحدة بعد واحـــدة .

- : وهل يصبح الرجل اميراً عندما يتزوج بنت امير ؟

- : نعم عندما لا يكون لهذا الامير ولد ذكر يرث امارته .. فحنت ليلى رأسها وهي تقول : لقد فهمت الآن .

- : اذن فجبير بن عبادة لم يخطبني الا ليكون سادن الكعبة بعد حليل وهو لا يطلب ليلى الا ليخلف اباها في السيادة .

قالت : انظري فيما تقولين يا حبتي ..

- : لقد تدبرت ما اقول ..

- : ولكنك نسيت امراً لا اعرف سبباً لنسيانه .

: ما نسيت قط ان لابي ولداً ذكراً هو اخي المحترش .. أليس هـــذا الذي تعنين ؟

- : أجل .

- : اذن فاعلمي ان المحترش لا يصلح للولاية فكأنه غير موجود .

: ولكنه يرث اباه على كل حال ..

قالت : لا يرثه حتى تخرج الولاية من يده الى رجلٍ اقوى منه . فاكتفي بما اسمعينه الآن واعلمي ان ابن عبادة يريد ان تكوني زوجة له ليصبح سيد القوم.

: وأبي حي ؟

: من يعلم فقد يموت ابوكِ بطعنة خنجر بعد ان يمضي شهر واحد عـــلى الزواج ..

فهمت ليلى بالكلام ، فاسكتتها قائلة: ثم يطلق زوجته ليلى كما طلق زوجته الأولى ويتزوج أخرى لتقيم معه بضعة ايام ثم يعمد الى الطلاق،وهكذا تمر الايام وابن عبادة يتزوج ويطلق وهو لا يبالي بما يسمعه وبما يراه ..

– : اذن فحامي اموالنا لا يستقر على حال ..

قالت : انه يشبه عبادة، اشهر مطلاق عرفته العرب .

– : اراك تصفين الوالد والولد كأنك تعيشين بين الاثنين .

– : ان الذي قص عليّ خبرهما اعظم رجـال الحجـاز شأناً وارفعهم مقاماً وهو لا يعرف الكذب ..

– : ليس في الحجاز اعظم من سادن الكعبة ..

– : اجل ان سادن الكعبة نفسه هو الذي خبرّ ما اذكره الآن .. وهـذا المـال الكثير الذي يراه الناس بين يدي جبير .. آه لو تعرفين يا ليلى قصة هذا المال لصدقت كل ما يقال عن صاحبه ..

– : ولكن أحب ان أعرف كل شيء ..

قالت : انه المال الحرام ، سرقه عبادة لينفقه جبير في الملذات .

– : اذن فأبو جبير سارق ؟

– : وغدار .. قتل حماه وهو نائم ثم سرق .

– : وبعد ذلك ..

– : فرّ من البحرين لاجئاً الى مكة تاركاً زوجته التي خسرته وخسرت اباها الى الابد .

– : وولده ؟

– اما ولده فقد كان في الثانية عشرة يوم الفرار . وهو ابن زوجة أخرى لا يعرفها بنو صوفة حتى ان جبيراً نفسه لا يعرف امه؛ أرأيت فتىً اكرم نسباً من هذا الفتى المغرور الطامع بالرئاسات ؟

قالت : وهل يجهل ابي وجدي ماضي الرجل ؟

- : امـــا زياد فانه يجهل هذ واما ابو زياد ومولاه عبدالله فهما يعلمان كل شيء.. هذا ما قاله لي أبي نقلته اليك كما رواه فانظري في الامر من كل وجوهه.

قالت : لقد أبغضت ابن عبادة قبل ان اعرف ماضي ابيه . أفأحبه الآن وهو يحمل مالاً حراماً ويجر ثوب العار ؟ ثم قالت : واللات والعزّى لا ارضى ابن عبادة زوجاً لي ولو قتلت .

فرأت حبّى عندئذٍ ان تسير في نصحها الى النهاية فقالت: ولكن حبّى بنت حليل . وليلى بنت زياد لا تبقيان بدون زواج ..

قالت : لا نتزوج الا من نحب ..

- : وذلك وحده لا يكفي ..

- : وماذا نفعل اذن ؟

- : اما انا فسأختار من الفتيان من هو اهـل لسدانة الكعبة وان كنت لا احبه ..

- : وهل تعرفين قبل الزواج انه اهل لذلك ؟

- : اجل . اعرف هذا من شمائله الغر ..

- : اذن فانت تستطيعين الآن ان تختاري هذا الزوج لان اباك سادن الكعبة يعرف جميع الفتيان النبلاء من خزاعة ..

قالت : انك لا تجدين في بني خزاعة من ارغب فيه ..

- : وفي بني بكر ؟

- : وليس في بني بكر غير الفتيان الاغرار ..

- : اذن ستصبحين زوجة لرجل ليس من قومك .

- : هذا الذي اراه ويراه ابي .

- : وهذا الذي يدعو سادن الكعبة الى رفض الايدي التي امتدت اليه .

— : نعم ولم يبق في مكة من الاشراف غير بني كنانة ..

— : وهل يرضى حليل بأن يمسي امر الكعبة في ايدي هؤلاء ؟

— : اذا لم يكن في قومه من يقدر على حراسة بيت الله فهو مكره على الرضى ..وسيرضى زياد . أجل سيرضى بما رضي به حليل ، عندما لا يجد في بني صوفة من هو أهل للامارة بعد موته .

فنهضت ليلى وهي تقول: لقد احسست ان في الصدر الآن عواطف جديدة..

قالت : وهـــذا الذي اردت ان يكون ... وكانت الشمس تحتجب وراء الافق عندما تركت الاثنتان الجبل ، راجعتين الى مكة ...

* * *

كان الحداة. اذا خرجت النوق من مرابطها عند الفجر، يحدون لها ويتغنون حتى تخرج من الاحياء ، وتلك هي النوق الرعاوي اي التي ترعى حوالي القوم ولا تفارقهم لحاجتهم اليها ..

وكان بنو صوفة ، اذا خرجت ابلهم يمشون صفاً واحداً الى ظاهر البلد ، في طليعتهم غلمان زياد بن كعب سيد الجمـــاعة ، حتى اذا أصبحوا في المراعي تفرقوا وتفرقت نوقهم وارتفعت اصوات القوم في الرجز والغنـــاء .. وليس في تلك العادة تبديـل وتغيير . النوق تخرج في كل يوم صفت سماؤه ، الا اذا كان اصحابها سفر .

ففي ذلك اليوم الذي نعنيه . كان عبدالله مولى زياد وعدوان مولى جبير في القوم . هذا خرج لغاية له والآخر اراد ان يرى نور الشمس بعد ان تماثـــل ابو زياد من علته .. وقد اجتمعا في مرعى الابل . وعدوان هو الذي مهد سبيل هذا الاجتماع .

كيف تركت ابا زياد يا عبدالله ؟

– : لقد عادت الى ذلك الوجه نضارته ونوره . ولولا هذا لما خطر بالبال ان اخرج مع النوق .

– : وعنده ليلى ترعاه اذا غاب زياد ..

– : ان مولاي لا يترك مكة في الشتاء كما تعلم .. وكأنه عرف ما يجول في خاطر الرجل فقال ، اجل . لقد همّ بالذهاب الى ديار بني ثقيف ليغزوهم ويسترجع ماله . فسبقه بنو هذيل ومعهم مولاك . ان زياداً ينتظر رجوع جبير ليشكره على ما فعل ..

قال : سمعتهم يقولون ان النصر كان لبني ثقيف قبل وصول جبير ..

– : يقولون ...

– : وانه ضرب اكثر من عشرين رأساً .

– : يقولون .

– : وانه اول من ردّ النوق الى الوراء .

فقال : خير لك يا عدوان ان تقول : ان مولاك كان رجل الساعة وينتهي الامر ...

– : ولكن يخيل اليّ أنك تهزأ بي .

– : ليس في القضية مجال للهزء ، لقد سلمت اليك بكل ما ذكرت دون ان اجعل لك سبيلاً الى هذا الاعتقاد .

قيل : أفلم يصبح مولاي بعد هذا الظفر بطل صوفة وحاميها ؟

– : بلى وسيعترف له زياد بهذا ، فبرقت عينا عدوان واشرق جبينه . ان عبدالله لا يعمد الى مثل هذه الصراحة في حديثه الا لخير . ثم قال :

أيعترف له بما ذكرت امام القوم ؟

– : لا تسألني عما لا استطيع ان اعرفه ، ان مولاي يحب ابن عبادة ويثني على مروءته . وهذا يكفي ..

— : ومن يعلم فقد يفضي بهما هذا الحب الى .. الى شيء آخر لا أبوح بـــه الآن ...

فقال عبدالله في نفسه : لقد قرأت سرك في عينيك ايهـا اللعين .. ولكنه بقي هادئاً يتظاهر بالتفكير .

ثم قال عدوان : واي رأي لك في هذا يا عبدالله ؟

— : ليس لي رأي فيما لا اعلم .

— : وهل دبّ الهرم في ذاكرتك ؟

قال : في الذاكرة وفي العقل حتى كاد يقضي على الاثنين . افلا ترى الوجه الذي جعّدته السنون والشعر الذي بيضته الايام ؟ .

— : ولكن القوم في مكة يعترفون لك بالذكاء ..

— : كان ذلك في أيام صبـــاي . وكنت انظر الى وجوه القوم فأعرف اسرارهم .. اما اليوم فقد ذهبت أيام الشباب .. واذا حدثني الناس حدثوني بوضوح دون ان يكون هنالك غموض وابهام .. فاذكر يا عدوان ، اذكر ذلك الشيء الذي تعنيه ولا تخف . اني كنت مخلصاً من قبل محباً لك وانا باقٍ على العهـــد ..

— : وتساعدني في ذلك ؟

— : وهل تريد ان اعدك بشيء لا ادري ما هو ؟

قال : أبوح لك به على هذا الامل .

— : أعدك بالمساعدة اذا قدرت .

— : ألا يريد زياد ان يزوج ليلى يا عبدالله ؟

فقهقه الخبيث ضاحكاً وهو يقول :

هذا هو البله بعينه . أرأيت في العرب كلها رجلاً واحداً يأبى ان يزوج بنته؟

– : وهل يطمع زياد بصهر اعز نفساً وأثبت جناناً واكثر مالاً من جبير ؟

قال : لو طاف بين سكان الارض وسكان الجنة لما وجد مثله .

– : وليلى الحسناء لا يقع نظرها على اكفأ منه .

– : أصبت ولكن ليس عند العرب عدل .

– : لماذا ؟

– : لان الناس ، لو انصفوا ، لجعلوا مولاك سيد الكعبة وكانوا جميعهم من حوله عبيداً .

فترنح الرجل من فرحه كالسكران ثم قال : ليصبح صهراً لزياد بن كعب . ثم ينظر الاثنان بعد ذلك في امر سدانة البيت . أتضمن رضى زياد ؟

– : وهل نسيت ان أبا زياد حي ؟

قال : لا اظن ان لهذا الشيخ رأياً في ذلك .

– : بل ليس للولد رأي وأبوه موجود .

– : اذن ارجو ان تضمن رضى الاثنين .

قال : اعد بالسعي ولا اضمن احداً .

– : وانا واثق بان سعيك ينتهي بالظفر .

قال : لا يتعجل في الحكم فقد يفضي السعي الى ما نكره .

– : أعبدالله يقول هذا ؟ فلم يبالِ باغرائه ، بل اجابه وهو هادىء ، هب ان الاثنين رضيا فالأمر لا يتم لنا كما نشاء .

- وماذا يبقى بعد ذلك ؟

– : تبقى الكلمة الاخيرة التي تقولها ليلى .. فذعر عدوان من هذا الجواب وكيف لا يستولي عليه الذعر وقد سمع بأذنه ان لفتاة من العرب رأياً في الزواج ..

فقال : الكلمة الاخيرة التي تقولها ليلى ؟!

— : اجل . اذا قالت نعم تزوجها جبير . وان قالت لا فقد ضاع الامل .

— : ومن يصدق هذا في الحجاز ؟

— : يصدقه جميع الذين يعرفون زياداً وابنته .

— : اما انا فلا يقوم في ذهني انها تجرؤ على الرفض ، وابوها وجدها يرغبان في جبير ، وهو الفتى الذي تعرفه احياء العرب وساداتها ..

قال : لك ان تظن ما شئت . وعلي ان أمهد لمولاك جميع السبل التي يبلغ بها غايته ، ولكن اخشى ان يكون مولاك مطلاقاً كأبيه ..

قال : الرجل الذي يكون عنده مثل ليلى لا يفكر في الطلاق .

— : ومتى يعود مولاك ؟

— : قد يعود بعد يومين .

— : وهل حدثك بهذا الزواج قبل سفره ؟

قال : لم يذكر شيئاً من هذا .

— : وكيف عرفت انه سيطلب ليلى .

— : ليس لي في ذلك علم ولكني سأحمله على هـذا الطلب قبل ان تمسي ليلى لغيره ..

— : اذن انت الذي تختار الزوجات لابن عبادة ..

— : انصح له بان يختار ثم يفعل ما يشاء . وكان عبدالله قد ملّ . فرأى ان يعبث بمحدثه من وجه آخر فقال : اي الاثنين أحب اليك يا عدوان ، عبادة أم جبير ؟

قال : ان عبادة قد مات وليس لنا ان نتحدث عنه .

— : نفعل ذلك من باب المزاح ، أتستطيع ان تعد النساء اللواتي طلقهنّ في حياته ؟ ...

قال : وأي شأن لنا بهذا ؟

قال : ألا يدور البحث بيننا على الزواج الآن ؟

- : بـــلى .
- : اذن علينا ان نبحث عن الطلاق لأنه فرع من ذلك الاصل .. مـــا هو عدد اولئك النساء ؟
فرأى الآخر ان يمازحه لئلا يغضب فقال : مات عبـــادة وهو في الثانية والسبعين .
- : نعم
- : وقد زوجه ابوه في العشرين من عمره ..
- : نعم .
- : اي انه عاش بعد زواجه الاول اكثر من خمسين سنة .
- : وبعد ذلك ؟
- : فاذا اردت ان تعرف عدد النساء اللواتي تزوجهنّ فاقسم سني عمره الى اسابيع ...
قال : لقد فعلت ..
قال : واجعل له في كل اسبوع زوجة ، يظهر لك العدد الذي طلبت ..
ملأت ضحكة عبدالله ، ذلك الوادي الصغير القائم بين الجبلين ، قـــال : ولاجل هذا كان الوالد احب اليك من ابنه ، أليس كذلك ؟
قال : أتريد أن تقول اني كنت أسرّ بما أراه .
- : بل اريد ان أقول انك كنت تهيء الاسباب لمولاك لترى في كل اسبوع وجهاً جديداً ... وكان عبادة بخيلاً يا عدوان كما يقولون ..
- : اجل الاّ على النساء فهو اكرم الناس .
- : وهل تظن ان جبيراً يتبع اباه في هذا ؟
- : اذا تزوج ليلى ضمنت لك انها تبقى في بيته ما بقي والا فليتزوج كل يوم عشرين وثلاثين من النساء .
قال : سأقترح عليك اقتراحاً .
- : ما هو ؟

– : هب ان ليلى اصبحت زوجة لمولاك ثم خطر له ان يطلقها بعد شهر او بعد سنة ، اتعرف ماذا افعل ؟

– : لا .

قال : اذهب الى فراشك في ساعه من ساعات الليل وانزع قلبك من صدرك بهذه اليد المرتجفة الصفراء ..

قال : ذلك رأي املاه عليك ابليس ومع ذلك فقد رضيت به .

– : ولكني اعود الى نفسي فأرى ان الاقدام على الغدر وقتل رجل آمن في فراشه عيب لا يأتية الا النذل.. فاقترح عليك ان تسلم اليّ رأس جبير عندما يتم طلاق ليلى .

فتردد الرجل قليلاً ثم قال : أفعل ..

– : وبعد ذلك تضع رأسك على التراب ثم اضربه بسيفي حتى اقطعه .. أترضى ؟

قال : أتأخذ رأسين بطلاق ليلى يا عبدالله ؟

– : نعم . ولا أبالي .

فأطرق اللعين كأنه يفكر . ثم رفع رأسه قائلاً :

قبلت باقتراحك . قال هذا ولمعت عيناه .

فابتسم عبدالله وهو يقول :

لقد عرفت الآن انك تفكر في قتلي قبل الطلاق بساعة واحدة .

– : بل كنت اقول في نفسي الويل لي ولجبير اذا طلق ليلى .

– : اذن فقد اتفقنا الآن وسنبدأ بالعمل .

قال : سيكون جبير البادىء بالامر بعد رجوعه وبعد ان تهيىء له جميع الاسباب .

– : وعلى هذا الامل ننصرف الآن . ولكن لا تنسَ ما اقترحت عليك .

– : سأذكر دائماً ان رأسي لا يثبت على هذا الجسد اذا نسيته ..

ونهض الاثنان يطردان النوق مع الغلمان للرجوع الى مكة .
وعدوان يظن ان عبدالله اصبح عبداً لارادته ..

* * *

- ٥ -

يا عبدالله . ان في صدرك سراً لا تطيق كتمانه ..
- : وكيف عرفت ذلك يا مولاي ؟
فقال ابو زياد : عرفته من عينيك . ومن هذه الابتسامة التي تظهر ثم تغيب
قال : ولكنه سر تضطرب نفسي كلما فكرت فيه .
- : وتحاول ان تكتمني اياه ؟
- : لا يا مولاي بل انتظر اليوم الذي استطيع فيه ان ابوح به ..
فنظر اليه الشيخ نظرة عتاب ثم قال : ليس لك ان تجعل لاسرارك مواعيد
اجلس الآن وخبرني به .
- : وليلى ؟
- : وما هو شأن ليلى ؟
: يجب ان لا تسمع الحديث الذي افضي اليك به . وكانت ليلى بين جواريها تروح في المنزل وتجيء فقال : اغلقي يا ليلى هذا الباب .. ففعلت دون ان تتردد في الامر .
: والآن يا عبدالله ؟
: اما الآن يا مولاي فجبير بن عبادة سيخطب الاميرة .
قال : حبّى بنت حليل ؟
: بل ليلى بنت زياد .
فوضع الرجل يده على جبينه الاصفر وتمتم قائلاً :
لقد فكرت في هذا الامر قبل ان تذكره . ان ابن عبادة صهر نفاخر به

العرب .. ومن قال لك ذلك ؟

- : مولاه عدوان .

- : ذلك الرجل اليمني الخبيث القلب ؟

- : نعم وستكون الخطبة اول عمل يأتيه جبير بعـد رجوعه من ديار بني هـــذيل ..

والشيخ كما قرأت كثير الحرص على شرفه وعلى تقاليد اجداده . فقـال : اعد عليّ كل ما سمعت يا عبدالله .

فجعل الشيخ الآخر يقص حكايته وابو زياد يعبث بلحيتـه وهو مطرق لا ينظر اليه حتى ذكر قضية الطلاق واقتراحه على عدوان .

فرفع عندئذٍ رأسه وقال :

وهل تصبح ليلى زوجة للرجل لتذكر الطلاق ؟

فأجابه هادئاً : وماذا يمنعها من هذا ؟

- : يمنعها ان أرفع النساء مقاماً في صوفة لا تزف الى رجل لا يعرف امه .

- : ولكنه يعرف أباه ، وعبادة من الاشراف ..

- : اجـل . غير انه ضيع شرفه بهذا المـال المسروق الذي تركه لجبير .. أنسيت ماضيه ؟

- : لم أنس شيئاً .. ولكن ..

- : ولكن ماذا ؟

- : ما هو ذنب الفتى يا مولاي ؟

- : ذنبه انه ابن سارق وهذا يكفي ..

- ولكن الناس بينهم مولاي زياد لا يعرفون ذلك .

- : امـا انا فقد عرفته . كما اعرف فتاك الكذوب الشرير الذي يطمع بان يصير صهراً لزياد بن كعب ..

- : ومع ذلك فالقوم يحترمونه ويلتفون حوله .

قال : انهم يخافون غدره وشره وليس في ذلك شيء من الاحترام .. واما اولئك الفتيــان الذين يمشون وراءه فهم الاغرار الذين يبيعون انفسهم بقبضة من المــال ..

قال : والمال يا مولاي سيد الموقف في كل زمان .

– : أيغرنا اللعين به ونحن نبذل منه لقومنا في كل عــام ما لا يستطيع ابن عبادة أن يملك نصفه في كل حياته؟ وحق من رفع البيت لئن رضي زياد به صهراً لاقتلنّ ليلى ..

ولمع الغضب في عينيه وهو يقول :

اخرج من هنا ايها اللعين فلا حاجة لي الى هذه الاسرار التي تسلبني شرفي وانا في آخر العمر .. وهم بالنهوض وجسمه يضطرب .

فانطرح عبدالله على قدميه يقبلهما قائلا : أتظن يا مولاي ان عبدالله يرضى بان تكون سيدة نساء الحي زوجة لابن عبــادة ؟ اني أردت أن أسمع رأيك في هذا قبل ان أبوح لك بما في الصدر ، فابتسم بعد ذلك الغضب ثم قــال : ومــاذا رأيت الآن ؟

– : رأيت ان ابن عبادة لا يبلغ غــايته ولو استعان بسكان السماء ، فجعل يقول : اي ورب الكعبة لو استعــان بالسماء لمــا رضيت به .. ومتى يعود من غزوته ..

– : قد يعود اليوم ..

– : اذن نذكر لليلى شيئاً عنه قبل ان يجيء . افتح الباب .

قال : قد يكون البحث عن ذلك سابقاً لأوانه .

قال : امرتك بان تفعل فلا تتردد ونادِ ليلى .

فخرج الرجل وهو يحدث نفسه قائلاً :

ان في صدر ابي زياد اموراً لم يذكرها لي ..

* * *

واقبلت الفتاة ووراءها عبدالله .

فقال الشيخ : اجلسي يا ليلى اقص عليك حكاية غريبة اوردها اليهود في كتبهم .. فجلست وهي تقول : ولماذا يريد مولاي في هذه الساعة ان يقص عليّ الحكايات .

— : لان لي لذة وولعاً في ذكر الاساطير .. ، فعرفت الفتاة ان هنالك حديثاً خاصاً ، فقالت : وليس شيء أحب اليّ من سماع اخبار الاقدمين .

قال : كان لليهود النازلين في الحجاز من قديم الزمان امير بعيد الصوت كثير الجاه والمال ..

— : نعم

— : ولهذا الامير فتاة هي احدى نساء الجنة .

— : نعم

— : وقد احبها ابوها الحب كله وسلطها على بيته واحاطها بجميع اسباب العناية والعطف ..

قالت : كما سلطني ابي على جميع ما هو له ..

— : هو ذاك ، حتى ضرب المثل بجمال الفتاة وحب ابيها اياها وايثاره رضاها على كل ما في الوجود .

وكانت عينا عبدالله تنظران الى الارض وهو يبتسم ..

ثم قال : وحول الامير ، قومه وابناء عشيرته وجميعهم من النبلاء . وكانت الفتاة في سن الزواج والفتيان الراغبون فيها كثيرون لكنهم لا يجسرون على اظهار رغبتهم خوفاً من الفشل .. على انه كان هنالك فتى مغرور كثير الخبث والشر . اراد ان يتزوج الفتاة لينال في ذلك الزواج غرضاً آخر هو في نظره خير من جميع النساء ..

قالت : وليس للفتاة اخوة يا مولاي أليس كذلك ؟

— : لا . انها وحدها في ذلك البيت الزاهي بنبالة اهله .

فضحكت قائلة : لقد عرفت هذه اليهودية الحسناء .

قال : من هي ؟

- : هي ليلى بنت زياد .

- : انت ؟ ..

- : نعم انا .. وانا كما ترى لست من اليهود .

فحنى عبدالله رأسه ليخفي ابتسامته .

اما ابو زياد فلم تفارق الرصانة وجهه . فقـــال : ولكنها حكاية قديمة كما ذكرت .

قالت : حدثني بجلاء يا مولاي فقد عرفت حـكايتك وانا ارويها عنك اذا شئت .

قال : افعلي ..

قالت : اما الطامع بزواج ليلى فهو جبير بن عبادة .

- : وما هي غايته من الزواج ؟

- : ان يتخلى له زياد عن الامارة فيصبح سيد القوم وينفر من منى قبـل جميع الناس .

فنظر الى مولاه مستغرباً ثم قال : ليلى .. من حدثك بهذا ؟ فقالت وهي لا تبالي : وبعد ان يستقيم له الامر يطرد ليلى من بيته ثم يتزوج أخرى على عادتـه وعادة ابيه .. فقال لعبدالله غاضباً :

أتبوح للفتاة بسر لا يعرفه زياد ؟

قال : لم اذكر لها شيئاً من هذا يا مولاي .

- : ومن اين لليلى ان تعرفه ؟

قالت : قرأته في الاساطير ..

قال : اتركي المزاح فلا مجال له الآن .

قالت : اهذه حكايتك ام ماذا ؟

قال : بلى ..

— : وهل خطبني جبير ؟

— : سيفعل بعد ان يعود . ولكن قولي لي من هو الرجل الذي قص عليك ما تذكرين .

قالت : يكفي ان تعلم يا مولاي اني اعلم من أمر ذلك الفتى ما تعلمه انت .

— : وهذا معناه انه لولا عنايتك بشأنه لما عرفت شيئاً عنه .

قالت : ان حكايتك حديث الناس .

— : بل لا يعرفها في مكة الا ثلاثة رجال رواها لهم شيخ من البحرين فكتموها حفظاً لشرف العشيرة .

— : لعلّ احد هؤلاء الرجال لم يحسن الكتمان .

— : وهذا الذي يجب ان اعرفه الآن .

قالت : الا يجوز يا مولاي ان يروي ذلك الشيخ روايته لغير هؤلاء الثلاثة الذين ذكرت ؟

— : لا . فقد رواها لاول مرة وهو على فراش الموت . ثم مات بعد ذلك ولم يقل كلمة .

ونظر ثانية الى عبدالله .

قالت : اتشك في عبدالله يا مولاي ؟

— : اجل . فهو احد الثلاثة

— : والاثنان الآخران ؟

— : سادن الكعبة نفسه وانا ..

— : اذن فاعلم ان حبّى بنت حليل تعرف ما تعرفون .

فأطرق ملياً ثم قال : وهي التي باحت لك به ؟

— : نعم . وابوها كما تعلم لا يكتمها شيئاً

— : وما هو رأيك الآن ؟

قالت : اسألك سؤالاً قبل ان اذكر هذا الرأي .

- : سلي ما تشائين .

- : أيقوم في ذهنك ان عبدالله فضح عشيرته ؟

- : اما الان فلا .

فقال عبدالله : هذه هي المرة الاولى التي يتهمني فيها مولاي إبو زياد .

قال : لنترك هذا ولننظر في الامر من الوجه الاخر . اهـذا هو سؤالك يا ليلى ؟

- : لا . ولكني اسأل الان . وسكتت قليلاً وهي تفكر ثم قالت : لقد ذكرت لي حبّى ان عبادة قتل حماه ثم سرق ماله .. افكانت صادقة ؟

- : يظهر ان حبّى لا تنسى شيئاً . نعم قتله وسرق ماله ونحن نذكر لك اسم ذلك القتيل فهو ربيعة بن سلول .

- : ومن كان مع عبادة في ذلك الليل ؟

- : جبير وحده وهو غلام .

- : وأهل القتيل ؟

- : ان ربيعة وعبادة كانا في اطراف البحرين يشتريان المسك والعود ومعهما من اهلها جبير كما قلت . فبينا هم في خيمة لهم على الشاطىء وقد بسط السكون ظله وساد الصمت والهدوء عمد عبادة الى خنجره فأغمده في صدر ربيعة وتناول جراب الرجل من فراشه وخرج من الخيمة مع ولده كما يخرج اللص .

: وجبير يرى ؟ .

- : نعم . وجبير يرى كل هذا ويخيل اليّ انه كان يبتسم للدم المسفوك .

: وجثة ربيعة ؟

- : نقلها بعض الرعاة في اليوم الثاني الى حي لهم ولم يقم لهـا ذكر من ذلك الحين .

قالت : وهذا هو موضع الريب

- : وكيف ذلك ؟

قالت : قتل ربيعة داخل خيمته في ظلام الليل ولم يرَ عبادة احد من الناس

-- : واذا كان هذا ؟

– : اذا كان هذا فقد يكون الشيخ الذي روى حادثة القتل كاذباً في روايته .. والظنون وحدها تجعل عبادة من المجرمين

– : ولكن الناس يعلمون ان ربيعة كان مع صهره .

– : وهذا وحده لا يكفي يا مولاي ..

– : وانهم لم يروا لذلك الصهر اثراً بعد ذلك الليل .

– : وذلك ما دعاهم الى الظن وليس لهم على ظنونهم دليل .

وكانت تخاطب جدها كما يخاطب محامي الدفاع قضاة المتهمين .

فقال : وما هو عذر عبادة في ذلك الفرار ؟

– : ان له في ذلك اعذاراً كثيرة يا مولاي .

– : اذكري واحداً منها .

قالت : ان صعاليك العرب منتشرون في جميع الاقطار وقد عرف احدهم او بعضهم ان ربيعة بن سلول الذي يطوف في البحرين يحمل جراباً من الذهب فتعقبوه حتى آوى الى خيمته . ودخلوا عليه فقتلوه وعبادة ينظر اليهم ولم يستطع الا ان يفرّ مع ولده خوفاً من ان يجيء دوره .

قال : كان عليه ان يلجأ الى حي من احياء القوم فيقصّ عليهم خبره ..

– : انه غريب وقد لا يصدقونه . بل قد يكون مغفلاً فلم يفكر في هذا .

قال : لو سمع احد غيري وغير عبدالله ما تقولين لخيّل اليك انك تحبين ابن عبادة .

قالت : ليس لنا الان ان نبحث عن الحب يا مولاي، ان الرجل من اشراف بني صوفة وسيخطبني الى ابي كما تقولين .

– : نعم

– : وستردونه رداً قبيحاً لانكم واثقون بأنه ابن سارق .

– : نعم .
ولكني لم اجد في ايديكم شيئاً يثبت جريمة ابيه .
قال : لقد اكتفينا بما نعلم .
– : اما انا فلا اسلم بهذا الأمر ..
– : ليلى ؟..
– : نعم .. وسأسأل ابي كما اسألك الآن أن ترضيا .

فلم يصدق ما سمع .. ان كلمته في بيته الكلمة الاولى التي لا ترد . وزياد وليلى لا يعصيان له امراً .. فكيف تسأله ليلى الصغيرة السن الكريمة الخلق .. كيف تسأله ، بلهجة هادئة ، ولغة صريحة ، ان يرضى بذلك الخاطب الذي يعيش من جريمة ابيه ؟..

ذلك يدل على ان هنالك صلة بين الاثنين .. فقال هازئاً : وان لم يتم لك هذا الرضى ؟

– : اعلم عندئذٍ ان لكما من الزواج غرضاً آخر وان خاطباً غير جبير بن عبادة تريدان أن تزوجاه .

فاغتصب ابو زياد ابتسامة قصيرة اخفى وراءها مرارة نفسه ثم قال : لم يخطبك احد ولم نفكر في الزواج من قبل ..

– : واذا قلت لك اني أحب الفتى الذي تكره ..

فارتجفت شفتاه قائلا : أوثر أن يختنق في صدرك هذا الحب وان تموتي بعد ذلك على أن اراك عبدة في بيت جبير .

– : وذلك لأن شيخاً من شيوخ البحرين روى لك في ساعة من ساعات الذهول حكاية كاذبة عن جراب لا وجود له ..

قالت هذا وهي تتفرس فيه. كأنها تحاول ان تنتزع ذلك السر من صدره..

فقام في ذهنه انها تحب الرجل . وقد فاته انها لم تظهر بذلك المظهر الغريب الا ليطلعها جدها على كل شيء كما فعل حليل بن حبشية مع حبّى .

فتنهد قائلا : ان ذلك الشيخ الذي لا تثقين بقوله. هو في نظري ونظر سادن الكعبة اصدق الناس ..

— : لأنه حدثكم بهذا عند الموت ؟

— : بل لأنه رأى بعينه وسمع باذنه ..

— : ولكنك قلت ان حادث القتل لم يره احد .

— : واعيد الآن ذلك القول ..

— : اذن كان ذلك الشيخ جنّياً يرى من الخارج ما يفعله الناس داخل الجدر.

فرفع صوته قائلا :

بل كان ربيعة بن سلول نفسه ..

فتراجعت ليلى الى الوراء وهي تقول :

لا .. لا يا مولاي . ان هذا لا يكون .. والاموات لا يعودون الى هـــذا العـــالم . .

— : الا ربيعة فقد مات ثم بعث حياً .

قالت : انك الآن تسخر بي يا مولاي .

— : بل أذكر لك الحادث كما جرى لتثقي بكل ما أقول .

— : اذن فالرجل لم يمت .

— : لا . فان خنجر عبادة غـاص تحت القلب بين الاضلاع فنجـــا ربيعة من المـــوت .

— وبعد ذلك ؟

— : نقلوه الى منازل عبد القيس وجعلوا يعالجونه حتى شفي وترك الحي عائداً الى قومه .. ولكنه كتم امره فلم يبح به لأحد وكره ان يذكر للناس غدر ذلك الرجل الذي كان اعز عليه من ولده .. غير انه لم ينس عبادة .. بل كان يبحث عنه طائفاً في بـــلاد العرب بضع سنين وهو لا يعرف مقره حتى قيل له انه في مكة فأقبل عليها يسأل عنه وكان عبادة قد مات .

— : وماذا فعل ؟

— : كان يريـــد ان يراه في السوق ثم يطعنه بخنجره على مرأى ومسمع من الناس قائلا له :

هكذا يموت سارق الاموال. فلما انتهى اليه خبر موته برّح به الأمر واستولى اليأس على قلبه فأغمض الموت عينيه في بيت حليل بـــين يدي عبدالله بعد ان اعترف لنا بكل شيء.

ومن يعرف من أهل مكة انه ربيعة بن سلول ؟

— : انا ..

فنهضت عندئذٍ وضمت ذلك الشيخ الى صدرها وهي تقبل رأسه وتقول لقد احزنت نفسك يا مولاي فاغفر لي ما فعلت.

قال : ولكن أريد أن أعلم اذا كنت تعرفين ابن عبادة ..

قالت : اعرفه كما أعرف سواه من الفتيـــان . ألا تذكر ذلك اليوم الذي اجتمعت فيه العرب امام البيت للنظر في أمر الخراج ؟

— : بـــلى .

— : لقد لفت نظري في ذلك اليوم فرسه الأدهم فسألت عنــه عبدالله . ثم رأيته في ظـــاهر مكة مع مولاه اليمني وكان ذلك آخر العهد به .. والآن مــاذا تريــد ؟

قال : اني اكره هذا الرجل ولا أحب أن أرى وجهه .

— : وأنا أكرهه يا مولاي ولا أطيق ان أنظر اليه . ولكن بقي امر آخر أن تذكره لي .

— : طمعه بالإمارة ..

— : نعم فكيف عرفت هذا وعرفته حبّي ؟

قال: كما عرفه جميع القتيان الاغرار رفاق الفتى في مكة انه هو الذي فضح نفسه واطلع اولئك الرفاق على اسراره .

قالت : وحكايه النوق التي استرجعها من بني ثقيف ؟

— : كان بنو هذيل البادئين بذلك وهو أضعف من ان يجرد وحده سيفاً في وجه القوم ..

— : ولكنها مروءة يا مولاي ..

— : اجل وسيعطيه زياد بعض النوق وبعض المال جزاء له .

فقال عبدالله : لا حاجة له الى شيء من هذا !

— : نهبَ له اذن ما يحتاج اليه ..

— : سيذكر لك حاجته وهي ليلى ..

— : اما ليلى فلا يراها حتى يرى اباه خارجاً من قبره يجر كفنه .

فضحكت الفتاة وهي تقول أليس لربيعة ولد يثأر بأبيه ؟

— : بلى له ولدان يقيمان بالشام .

— : وهما لا يعلمان من أمر أبيهما شيئاً ..

قال : ان ربيعة قبل أن يجيء مكة خبّر اهله بكل ما جرى له واوصاهم بان يطلبوا بدمه اذا هلك .

— اذن فحياة جبير في خطر .

— : قد ينسى ولدا ربيعة ثأرهما ويقضيان العمر كله بعيدين عن الحجاز فجعل عبدالله يهز رأسه ويقول : ما سمعت من قبل ان عربياً ينسى دم أبيه .

* * *

قدم جبير بن عبادة ومعه رهط من بني هذيل .

وقد ذهب له في ذلك الظفر الذي تم له صيت وذكر . حتى ان الناس في

مكة فتيانهم وكهولهم ارادوا ان يروه ويصافحوه .. ذلك كان شأن العرب .. القوة ترفع صاحبها الى العلاء . والسيف يبني له منزلا في الجوزاء .. وقد يكون الرجل صعلوكاً خامل النسب غير ان ضربة سيف واحدة يضربها في ساعة غضب تجعله سيد القوم .. وجبير كما عرفت يرقص بدون دف .. وهو كثير الزهو ومغرور قبل أن يسترجع نوق الحي. فالى اي حد يصل غروره وزهوه وقد قهر بطل بني هذيل غزاة بني ثقيف..؟ ان الدنيا كلها لا تسعه ويكاد لخيلائه وخفته يسبح في الفضاء .

فلما توسط منازل بني صوفة قال له انصاره : خير لنا أن نمر بقصر زياد بن كعب قبل ان ننصرف ..

وهذا مـا كان يرغب فيه ، ليس لأن الواجب يقضي عليه بزيارة الامير قبل كل شيء ، كما هي العادة ، بل لأن هوى ليلى برّح به فأراد ان يراهـا او يرى خيالها في ذلك القصر .

وكان مولاه عدوان يبتسم له ابتسامة كلها معانٍ وآمال . وهو لا يستطيع ان يقص عليه ولو همساً ، ذلك الحديث الذي دار بينه وبين عبدالله .

الناس كثيرون حولهما . والنساء والغلمان على السطوح وعلى الشرفـات ينظرون الى موكب النصر .. حتى قارب القوم منزل الامير ؛ فاذا زياد ومعه عبدالله بالباب ووراءهما الخدم والعبيد يستقبلون الفتى الظافر الذي حمى مالهم.. ومدّ زياد يده يصافح الفتى ويثني عليه. ثم وضع يده بيده ودخلا ودخل القوم.

وكان أبو زياد في قاعة الجلوس على مقعد من جلود السباع والعباءة على كتفيه فقال زياد : هذا جبير بن عبادة قـاهر بني ثقيف .. فأومأ الشيخ الى الناس بالجلوس وهو يقول : لقد كان مثلاً لأهل مكة في الدفـاع عن شرف العشيرة . حدثنا بما رأيت .

وكان زياد ، يحترم اباه الاحترام كله حتى انه يترك له القول والحكم عندما يجلس للناس ، لا يراجعه ولا يسبقه في سؤال .

فقال جبير رافعاً صوته: كانت نوق الامير مع طوائف من نوق حلفائنا ترعى في موضع يقال له الصخرات .

قال : نعرفه .

– : وقد تفرّق الرعـاة وانتشروا في ذلك السهل لا يحسبون للغزو حساباً ولا يرون في الافق احداً .

قال : والموضع لا يبعد كثيراً عن الحي .

– : لا يا مولاي. وانها لجرأة من بني ثقيف استطاعوا معها ان يسوقوا مالنا ومال هذيل .

قال : لقد فعلها القوم واستهـانوا بنا كأن بني صوفة لا وجود لهم في مكة وكأنهم لا يقدرون على صون حقهم . ومن قتلتم منهم ؟

– : بضعة عشر رجلا ثم تخلوا بعد ذلك عما سلبوه .

– : وهل سلمت النوق ؟

– : جميعها كما كانت في المرعى الا ناقتين جريحتين اصابتهما السهام.

– : وقد قيل لنا انك صرعت الرجال بالسيف ولم تستعن بالسنان .

– : هو ذاك يا مولاي حتى ظن بنو ثقيف اني من الجن . وارسل نظره الى الخارج لعله يرى ليلى . ثم قال : اسأل هؤلاء النفر من بني هذيـل . واشار الى رفـاقه .

فقال ابو زياد : لقد صدقناك وسيدعوك الناس في مكة فارس الحي .

فقال في نفسه : ليت ليلى تسمع حديث جدها الآن ..

واستطرد ابو زياد قائلا : انظر في امر جبير يا زياد فقد دافع عنا ..

وعندئذٍ جاء دور زياد فقال : وانا احفظ له فضله في ذلك الدفاع .. لقد جعلته الرجل الأول الذي ينفر بعدي من منى ..

فشمخ الفتى بأنفه وهزته الخيلاء .

ـ : ويكون له في صوفة الرأي الأول بعد رأيي ورأي أبي زياد .

فجعل يهز رأسه كما يفعل السكران .

ـ : وأعطيته خمساً من النوق التي حماها وفرسين ..

فتجهم وجهه لانه ارفع من ان يأخذ اجراً ..

ـ : وبعد ذلك كله اسأله عن حاجته .

فرأى أن الحظ يخدمه فقال : لي حاجة اذكرها للأمير عند المساء .

فأجابه ابو زياد قائلا : بل تذكرها الآن .

ـ : انها سر يا مولاي .

ـ : ليس بينك وبين زياد اسرار .

ـ : ولكن لا أحب ان يسمعها الناس .

فقال للقوم : انصرفوا الآن فجبير يريد ان يبوح لنا بسره .

فقام القوم فخرجوا وبعضهم يقولون : ستكون ليلى زوجة لابن عبادة ..

* * *

ألم يكن عبادة يا مولاي من أهل الشرف ؟ فحاول زياد ان يجيب فأسكته ابوه قائلا : أتسألنا عن الأموا يا جبير ؟

قال : اجعل هذا السؤال مقدمة لما سأقول .

ـ : نعم كان من اهل الشرف .

ـ : وهل اساء الى قومه ؟

ـ : بل كان باراً بهم وانت تشبهه .

ـ : وكانت له النساء من انبل العرب لا يبخل عليه سيد بابنته يتخذها زوجة له .

قال : لقد عرفنا حاجتك فانت تخطب ليلى .

فتمتم قائلا : هذه هي حاجتي يا مولاي .
فاطرق الشيخ كأنه يفكر ثم قال :
أرأيت ليلى قبل الآن يا ابن عبادة ؟
— : نعم وقد سحرني جمالها الخلّاب ..
— : واين كان ذلك ؟
— : وراء البقعة الحمراء التي تطلق فيها الرعاوى .
— : أفلم ترَ انها في الخامسة عشرة لا تعرف معنى الزواج ؟
قال : ان الرجال في الحجاز يطلقون نساءهم في هذه السن .
— : اما انا فلم أرَ اميرة تزوجت في سن ليلى . هذه حبّى بنت حليل لماذا لا يزوجها سادن الكعبة .
— : لانه لم يجد في قومه من هو اهل له .
قال : أهكذا قال لك حليل عندما اردت ان تخطب حبّى ؟
فاحمرّ وجه الفتى وتلعثم لسانه .
قال : أتسكت يا جبير وانت الآن بحاجه الى الكلام ؟
— : ان سدانة الكعبة جعلت ابن حبشية فوق جميع الناس .
— : دع عنك هذا الان واذكر جوابه .
قال : لقد رضي بي زوجاً لابنته .
— : اذن فحبّى اصبحت لك .
— : لا . لانه استشارها فلم تقبل وانا لا اعلم كيف يستشير الامراء بناتهم في امور الزواج !
— : وهل نحن اصغر في عينيك من سادن الكعبة يا ابن عبادة .
— : بل انتم يا مولاي فرعة الشرف والمحتد الكريم .
— : وهل ترى حبّى اسمى عقلاً واصدق رأياً من ليلى ؟
— : لقد قيل لي ان لها حكمة جدها ورأي ابيها .
— : اذن نفعل كما فعل امير الكعبة فلسنا افضل منه . لقد رضينا بك

زوجاً لابنتنا وخير لنا ولها ان تكون لك من ان تكون لغيرك . ولكن نسألها قبل ان نعدك ونضع يدنا بيدك .

فاستغرب قائلاً : وانتم ايضاً يا مولاي تستشيرون النساء ؟

- : نعم فقد اقسمت واقسم زياد اننا لا نزوج ليلى الا من تشاء .

- : ولكن قد تختار صعلوكاً .

قال : اتريد بالصعلوك الفقير الذي لا يملك مالاً ؟

- : نعم

قال : نؤثر الخلق العالي على المال .

- : وقد تختاره من رعاة النوق ؟

قال : وفي الرعاة من هو اطهر قلباً من الملك .

- : ولكن لا اصدق يا مولاى انكم اطلقتم يدها في الاختيار اذ ما تصنعون لو احبت ليلى عبداً وسألتكم ان تزوجوها اياه ؟

فارتجفت شفتا ابي زياد وهو يقول : كان عليك ان تعلم ان الذي يخاطبك الان لا يكذب . وان ليلى بنت زياد لا تختار زوجها من أوباش العرب .

وعلى رغم هذه السهام الخفية التي ارسلها الشيخ الى صدره لم يشعر ولم يبال كأنه واثق بأن امير صوفة اضعف من ان يهزأ به الى هـــذا الحد ، ثم قال : ألستشيرها الان يا مولاي ؟

- : بل اراك تقبل بأن يكون ذلك غداً .

فالتفت الى عدوان يسأله رأيه بعينيه، فأومأ اليه بأن يرضى والاثنان يظنان ان العيون لا تراهما . مع ان عبدالله رأى كل شيء .

ثم قال : اذن يأذن لي ابو زياد ان انصرف الان على ان أعود غداً او بعـــد غد .. ومشى الى الباب وقد اسود وجهه ويكاد لشدة غيظه ان يقع على الارض، وعدوان وراءه وهو مطرق لا يقول كلمة حتى اصبحا خارج المنزل فجعـــل يهامس سيده وهما سائران .

* * *

عاد وجه جبير بعد ذلك التهجم الى الاشراق وهو يقول :
أعبدالله قال لك ذلك ؟

ـ : نعم وقد ضمن لي رضاها ورضى ليلى . ولكنه يخاف الطلاق كما قلت ويخشى ان تعمد اليه بعد ان يمر الاسبوع الاول على الزواج .

قال : لو عرف الابله اي عاطفة تجول في هذا الصدر لما اساء الظن . ان ليلى علمتني الحب .. وستعلمني الاخلاص للنساء اذا اصبحت لي . وحق من روح جبير بيده لخروج الروح من جسدي اهون عليّ من ان تمسي ليلى لغيري . ولكن ابا زياد ضيّق عليّ سبل القول ولم يترك لي مجالاً اليه . وانا الخائف ليس من ابي زياد وحده بل من زياد وابنته فقد رأيت وجه الشيخ يصفر وهو يتحدث عن الزواج . ورأيت ابا ليلى صامتاً ساكتاً سكوت اهل القبور . كأن الفتاة التي أخطبها من فتيات الشام .

فقال عدوان : امـا زياد فهذه عادته في مجلس ابيه كما تعلم . واما ليلى فستولـّي امرها عبدالله وينتهي الامر .

ـ : واذا فعلت كما فعلَت حبّى ؟

قال : لعلّ حبّى تحلم بأبي كرب اسعد ملك اليمن لتصير ربة العرش اليمني.

ـ : بل لو سألها تبّع ان ترضى به زوجاً لأبت وطلبت اعظم منه .

ـ : ولا احسب ليلى تطمع بأعظم منك يا مولاي .

فعضّ على شفته قائلاً :

انها اذا أبت فقد كتب لها ولآل كعب الموت من يدي اني اعرف ان ابغض كما اعرف ان أحب . والويل لبيت زياد اذا استخف اصحابه بابن عبادة . انه يسقط على رؤوسهم في ليلة لا يلمع في سمائها كوكب ..

ـ : مولاي . اتريد ان يتم لك الامر في ساعة واحدة ؟

ـ : وهل اصبر الايام والاسابيع حتى يقتلني هذا الغرام ؟

ـ : ان الرجال تستعين بجميع الحيل لتبلغ الغايات .

ـ : لقد استعنا الان بالحيلة الاولى وهي عبدالله .

ـ : واذا اخفق عمدنا الى سواه .

ـ : اذن نستعين لنتزوج . بجميع الناس ..

قال : لا نلجأ الا الى أهل ليلى .

ـ : ومن بقي من هؤلاء ؟

ـ : أراك نسيت أخوالها يا مولاي .

قال : ويلك فمن هم ؟

ـ : رؤساء الخزرج في يثرب « المدينة » .

فقال : لقد ذكرتم الان ولكن يصعب عليّ ان احني رأسي للعبيد والأحرار حباً بفتاة يشترون مثلها من اسواق العرب ..

ـ : اذا كان هذا فانت لا تحبها كما تقول ..

ـ : بل لولا شماتة العرب لسجدت لها في الصباح وفي المساء كما يسجدون لآلهة الكعبة .

وعندئذٍ دخلا بيت جبير ، فقال مولاه : اي انك تؤثر ليلى على كل شيء..؟

قال : لقد عرفت هذا من قبل فلماذا تسألني الان ؟

ـ : لأقول لك ان الاستعانة بالارض والسماء خير من الفشل .

ـ : ومتى ترى عبدالله ؟

ـ : حينما تخرج النوق عند الفجر فسيرى الفتاة في هذا الليل وينقل اليّ غداً ما جرى بينها وبينه . ثم قال يداعب مولاه :

ان الحب قوي يا مولاي حتى انه يجعل الرجال اطفالاً .

قال : لا تحدثني عن شيء لا عهد لك به .

ـ : ويظهر انه اذا استولى على القلوب سلب العقول .

ـ : حسبك انك طويت ايام الشباب وعقلك باقٍ لك . وكره ان يتمادى في الحديث . فترك مولاه ومشى الى مرابط الخيل ليفكر وحده في امره .

في ذلك الليل استعرض آل زياد مـــاضي جبير بن عبادة وبسطوا أمره ،

وقد كتموا زياداً من قبل ذلك الامر خوفـاً من ان تثور نفسه ، فيطرد جبيراً من العشيرة ، فلما روى له أبوه الحادث ؛ استيقظت الكبريـاء والعز في صدره وجعل يبتسم ابتسامة الاستخفاف ويقول : لقد أراد ابن عبادة ان يلوثنا بالعار ويفضحنا بين العرب كأنه لم يجد في القطر العربي كله فتاةً تحمل عـاره الا ليلى . أفلم تري يا ليلى ان السماء ارسلت لك هذا الزوج من ملائكتها الاطهار ؟

فقال ابو زياد : ليس في الأمر فضيحة كما تقول . ان العرب تجهل هذا وجبير نفسه يظن ان جريمة ابيه دفنت يوم دفنت جثة ربيعة فليس هنالك من يظهر امره.

قال : اما انا فسأظهر هذا الأمر .

– : وما هي الغاية من ذلك ؟

– : ان ادل بني صوفة على السارق فيخلعوه ويتبرأوا منه .

قال : أتسود قومك بمثل هذه الخفة يا زياد ؟

– : واين الخفة في هذا يا مولاي ؟

قال : الامراء الذين يخلقون الحوادث في احيائهم ليسوا على شيء من الدهاء. انك ان فعلت ملأ ابن عبادة مكة أخباراً واقاويل .

– : اما أنا فاخمد صوته قبل ان يرتفع .

: وهنالك اصوات أنصاره ومن ينتمي اليه وقد يستغيثون بحي من احياء العرب فتقع الفتنة بيننا لسببٍ لا يحب العاقل ان يسمعه . ماذا تقولين يا ليلى ؟

قالت : هذا هو الرأي .

فقال زياد : ان رأس ابن عبادة رأس افعي يجب قطعه .

قالت : نتركه ينفث السم .

هذا جبن نندم عليه بعد حين

– : بل هي حكمة يتمشى عليهـا الامراء . ألم يخطب حبّى بنت حليل قبل أن يخطبني يا مولاي ؟

قال . قد يكون سكوت حليل عنه هو الذي جرأه على البحث في بيوت الامراء عن زوجة له . .

قالت : اذا كان سادن الكعبة وهو أمير النـــاس كلهم لم يفضح ابن عبادة المتولى نحن فضيحته فنفضح انفسنا .

– : وماذا يكون جوابنا وهو ينتظره .

– : كما كان جواب حليل . قالوا له ان حبّى لا ترغب في الزواج الآن كما للولون ان ليلى لا رغبة لها فيه .

– : ومع ذلك فسيكون لي وله شأن .

فقال عبدالله : مسكين جبير .. لقد وعدت مولاه ان امهد امـــامه السبل وسأفعـل ..

– : اذن تولّ عني امر الجواب يا عبدالله لاني لا أريـد ان ارى بعد وجـه ابن عبـادة .

قال : سأرى غداً عدوان في الارض الحمراء واعتذر له عن هذا الفشل الذي لقيته في قضية الزواج .

وقام ابو زياد الى غرفته وهو يقول لخادمه : لقد جعلنا لابن عبادة الآن سبيلاً الى الشر وسيسعرها ناراً آكلة ورب الكعبة ..

* * *

هذا عدوان وعبدالله وراء النوق ..

وعبدالله لا يلتفت الى احد ولا يبتسم كأن الهم الذي يحمله في صدره يـكاد يقتله .. وقلب اليمني يخفق من الخوف ولا يجسر على أن يكون البادىء بالكلام لأنه رأى الخيبة في عيني عبدالله .

لقد علل نفسه بالامل . وقـام في ذهنه ان سيده سيخلف زياداً في الامـارة وزياد حي . ويسعى القوم في مكة لنيل رضـاه كما يسعون الآن للحصول على رضى سواه .. أفتضيـع ليلى آماله . وتمحو احلامه في ساعة واحدة ؟ انـه اذن لحظ اسود . افترّ له ثغره لحظة . ثم عبس وجهه .

وعدوان نفسه لا يعلم شيئاً عن جريمة عبـــادة فقد ُطعن ربيعة في البحرين وهو في الحجاز . واستطاع سيده اخفـاء الحـادثة عنه وعن الناس فلم يذكر له عنها كلمة ..

حتى وصل الرعاة الى المرعى واطلقوا النوق . فقال لعبدالله : اسألك الآن عن ذلك الوعد .. ماذا فعلت ليلى ؟

ففاجأه قائلاً : ان هذه الفتاة الطروب الضاحكة اصلب من الحديد ..

فاضطرب اليمني وهو يقول : أتخالف ليلى أباها وجدهـا في الرأي وهمـا يصبران ؟

قال : ويلك أتريد أن يضربا عنقها ان لم تقبل ؟

— : وماذا تقول العرب اذا عرفت ان لأمير صوفة رغبة في جبير والفتاة لا ترضى بـه ؟

— : لتقل العرب مـــا تشاء فشعرة من رأس ليـلى أثمن في نظر زيـاد من ملك الحجاز كله ، انهـا رفضت بشدة وعنف كأنها لا تريد ان يحدثها احـــد بأمر الزواج ...

قال : لقد أملت عليها حبّى ذلك الرفض ..

— : بل املته عليها فكرة ثابتة لا تتزعزع هي انها تؤثر البقاء في بيت ابيها الى الأبد على الخروج منه لتجلس على عرش .

— : ذلك قول لا يقبله العقل يا عبدالله .

— : ومع ذلك فقد سمعته باذني حتى انها أمرتني بالخروج من غرفتها عندمـا خاطبتها بشأن مولاك ..

— يظهر انها لا تعرف اي فتىً هو ابن عبادة ..

— لقد عرفت كل شيء.. واقسم لك بجميع ما في البيت الحرام من آلهة انها عرفت كل شيء .. وكان ابو زياد يصف لها غنى جبير ويذكر لها جيـاده ونوقه

ومواشيه وعظمة نفسه وهي تبتسم لمـــا تسمع حتى كادت تستهزىء بذلك الشيخ الذي تعبده ..

– : لعلها تعشق احد الفتيان من قومها .

– : لقد خطر ببال زياد ما خطر ببالك الان .. فلما ذكر لها ذلك عتبت اباها واستسلمت الى البكاء .

– : اذن فقد خسر جبير كل شيء .

قال : مثل جبير لا يخسر شيئاً . أفليس عنده الذهب يعجز مثلك عن حمله؟

– : بـــلى .

– : او لا يعرف الناس في كل قطر انه من سادة الحجاز واشرافه وابطاله .

– : واذا كان كما وصفت ؟

– : انه يستطيع وهو في ذلك الغنى وهذا العز ، ان يختـــار من حسان العرب من تكون قلامة ظفرها خيراً من ليلى .

– : ولكنه عاشق يا عبدالله ..

قال: لو قيل لي ان غلاماً من هؤلاء قذف بنفسه من ذروة هذا الجبل وجعل يسبح في الفضاء حتى يسقط في صحن الكعبة لصدقت ، وامـا ان جبيراً وهو ابن ابيه ، يعرف ما هو الحب فذلك ما لا اصدقه ..

– : وانا اعلم انه لو قيل لجبير : ان زياداً لا يزوجك ليلى الا اذا بذلت كل ما تملك لفقراء مكة لا يبقى منه درهم ، لعمد الى ذلك المال فبذله كله في سبيل هذه الغاية ولم يبـــالِ ، قلت لك انه يحبها ولا أدري اذا كان الحب يفضي الى مثل هذا الجنون .

قال : ويخيل الي انه اذا خسر ليلى يموت ..

– : من يعلم فقد يستولي عليه اليأس فيقتل نفسه ..

– : نعم . أو لم ترَ ان اليأس صرعه بعد خسارته حبّي ؟

قالها عبدالله هازئاً وهو يضحك .. فأجابه قائلاً : كان الحب بعيداً عنه في ذلك الحـين .

— : كما هو بعيد عنه الآن .. ومع ذلك فلو استطعت ان أهب له ليـلى وامارة ابيها لفعلت ..

قال : ليلى وحدها ولك الف دينار .

قال : اني طامع برضى جبير ولا أعبأ بالمال ولكني عاجز وليس في الحجـاز من يقدر على ذلك .

— : اذنْ فكل شيء قد انتهى الآن .

— : هذا الذي اراه؛فلينس ابن عبادة حبه ولو الى حين..ربما يعشق عذراء اخرى من عذارى الحجاز ..

قال : لا ادري كيف انقل اليه هذا الجواب .

قال : أتخافه ؟

— : لا . ولكني لا أريد أن يقتله الغرام ..

وحوّل وجهه عن عبدالله كأنه يفكر فيما سمع . والخبث والغيظ يملآن قلبه الذي يشبه قلب مولاه .. رقد ظن عبدالله انه صدق كل ما رواه له ..

* * *



لقد ضاعت آمالنا بعبدالله يا مولاي .

فاهتز جسم جبير قائلا : ماذا ؟

قال : ان آل زياد لا يريدون ان يزوجوك ..

فمرت سحابة سوداء أمام عيني الفتى .. ان هذا الجواب الجـاف . طعنه في صدره . واستخفاف لا يرى مثله صعاليك القوم . فقال وهو يرتجف : اعد مـا سمعت ولا تتردد .

- : قلت ان آل زياد ارفع من ان يرضوا بك صهراً ..

وكان الاثنـــان في الجانب الشمالي من مكة ومع جبير فرس له ، فاستند الى ذلك الفرس كي لا يسقط ثم قال : اذكر من رأيت من آل زياد .

- : رأيت عبدالله .

- : وهل جرؤ على القول ان القوم لا يزوجونني بليلى ؟

- و لا . ولكني عرفت أسرارهم من وراء الستار .

- لا أسألك عما عرفت بل عما سمعت .

- : لقد جرّب القوم ان يستميلوا ليلى فـــلم يستطيعوا فهي ترغب عن الزواج . . .

- : ذلك جواب حبّى بنت حليل نفسه .

- : نعم وهذا معناه ان الاثنين تنطقان من فم واحد ويخفق في صدريهما قلب واحد . بل هذا معناه ان سادن الكعبة وزياداً أرفع منك مقاماً وأكرم نسباً .

قال : كذبت فانا ابن صوفة كما هو زياد ..

- : أعرف ذلك ولكن الاثنين لا يريدان ان يعرفاه .. اتظن يا مولاي ان الاميرين شاورا ابنتيهما في الامر ؟

فسكت جبير . وقد اوغر اللعين صدره .

قال : اقسم بتراب عبادة انهما لم يذكرا لهما عن الزواج كلمة ولكنه عـــذر ارادا ان يبدياه ليحجبا كبرياءهما عن العيون .

فظل الفتى ساكتاً . ثم قاد فرسه الى الميدان وعيناه تنظران الى الارض .. او ذلك القول سعّر في احشائه نارين : نار الحقد ونار الحب . أجل وقامت في صدره ثورتان : ثورة نفسه وثورة قلبه ، ولو كان غير جبـــير في ذلك الصراع لانتصر القلب على النفس. لكن طبيعته طبيعة شر لا طبيعة عاطفة . كما قرأت. واهون عليه ان يبغض جميع الناس ولا يحب أحداً .

وعدوان وراءه يقول له : لم يبقَ امامنا غير بني الخزرج يا مولاي فهم اهل

شرف ويحبهم زياد .. وكان قد توسط الميدان . فوضع يده على سيفه قائلاً : بل لم يبقَ امامنا غير هذا . ونظر اليه .. فاذا زياد بن كعب على جواد يقفز بـــه قفزاً . . .

زياد نفسه ابو ليلى .. !

وهي ساعة يخرج فيها كل يوم الى ذلك الميدان يركض جواده الذي بعثه اليه فتىً من نجد ، وليس معه سلاح ..

فاحمرت عينا جبير وارتجفت ركبتاه .

ورأى عدوان الشر في عينيه فقال له : احذر يا مولاي فأمر ليلى لم ينقض بعد .. فتمتم قائلاً : كلمة واحدة تخرج من فمك تعقبها ضربة سيف .

وكان زياد قد وصل . فقال : ابن عبادة ؟

— : نعم . ابن عبادة كما ترى .

قال : اركب هذا الفرس فأجاولك ..

قال : لا اركبه الا عندما اغزو القوم فأحمي اموال الامراء .. مثلـــك يا ابن كعب ..

فخيل لى زياد ان الرجل قد جنّ . فقال : أتهذي يا جبير ؟

— : بل أرسل الى صدرك هذه السهام لأعلمك الجرأة . ان الهاذي هو ذلك الذي جعلني امنع العرب من ان تتقسم ماله فيستخف بي .

قال : من هو هذا العاجز عن حفظ ماله ؟

— : هو انت

فقهقه الامير ضاحكاً . لأنه عرف عندئذٍ ان ابن عبادة غاضب لكرامته .. لكن ضحكه اخرج الفتى عن حده فجرد سيفه .. فوقف عدوان بين الاثنين وهو يقول : مولاي .. ماذا تفعل يا مولاي ؟

قال : أجرد سيفي ليستعين امير صوفة بسيفه .

فأجابه زياد وهو هادىء : لو رأيت معي سيفاً ايها الجبان لما قدرت على حمل هذا الذي بيدك . اضرب اذا استطعت .

فحاول ان يدفع عدوان بيديه فلم يقدر .

وعدوان يصيح ويستغيث ، ليس عن خلق طيب وعفة نفس بل كان يخاف زياداً على مولاه .

وزاد الامير هياج الفتى اذ قال : أتضرب وانا راكب ؟ انـك ان فعلت لم يبلغ سيفك قدمي ..

وعندئذٍ وقع عدوان على الارض وهمّ جبير بأن يضرب

فدوى في الساحة صوت رجل يقول : ارجع سيفك الى غمده ايها النذل .. والقبل فارس لا يجاوز العشرين وهو يردد ذلك الكلام .. فلما وقع نظره على القوم . قال : ماذا أرى ؟ أمير صوفة ؟؟

فقال الامير : ليست الغرابة ان ترى امير صوفة على فرسه . بل الغرابة ان ترى في ميادين مكة ذئاباً خاطفة .

قال : ما كان الذئب ليقدم على الاسد .. هذا سيفي يا مولاي .

قال : ابقه في يدك فلا حاجة لي اليه الآن . اضرب يا جبير .

قال : لقد اصبحتما الآن اثنين وسنلتقي ..

— : ولكن سيفك كان يحصد رؤوس الرجال من بني ثقيف . أتكرّ على الف وتفر من رجلين ؟

— : يكفيك الآن ما رأيت وما سمعت .

قال : سمعت هذياً ورأيت غدراً . وانت الآن تلعن الاقدار التي ارسلت الينا هذا الفارس والا لطعنتني بخنجرك من الوراء .

فقال الفارس : ورب الكعبة لئن رفع يده بالسيف لأجعلنّ جسده قطعتين على ظهر فرسه .

فتكلف جبير الابتسام وادار ظهره يريد ان ينصرف .. وكان عدوان

يضطرب من الخوف ، فقفز زياد الى الارض ووقف في وجـــه الفتى قائلا له : أتنصرف وقد لا نلتقي بعد الآن ؟

— : بل أراك بعد أيام يا ابن كعب .

— : ولكن ليس لي على ذلك صبر .. ونظر الى الفارس قائلا : قل لي اولاً من انت ؟

قال : جئت يا مولاي عطيك سيفاً على أمل ان لا اقول لك من أنا .

— : أتجود عليّ بسيفك وتبخل باسمك !

— : أما السيف فلكي انقذ به حياة الأمير . واما اسمي فاذا بحت به جرّ عليّ وعلى قومي العار .

— : لماذا ؟

— لأنك اذا عرفته عمدت الى المكافأة وانا لا اريد ان تعطيني ثمناً لمروءتي وشرفي ..

قال : ومن هم قومك ؟

— : قومي أهل المفاخر والامجاد .

— : في مكة ؟

— : نعم في مكة .

فدمعت عينا زياد لهذا الخلق العالي ثم قال : اذن سأرسل وراءك العيون حتى اعرف من نت .

قال : سأحتجب والله ان قدرت وراء غيوم السماء كي لا تراني .

— : افعل ما يطيب لك . ولكن أتعرف هذا الرجل ؟

— : انه ابن عبادة وهذا مولاه من اليمن .

— : ولكنك لا تعرف شيئاً عنه ؟

— : لقد عرفت الآن انه غادر وجبان وهذا يكفي . اتريد يا مولاي ان تطلعني على سبب غدره ؟

: قال‌ما أردت غير هذا فاسمع : لقد أراد ابن عبادة ان يتزوج حبّى بنت حليل فأبى ابوها ان يزوجه :

فقال جبير : بل هي التي أبت . وحاول مرة ثانية ان ينصرف فقــال له : احذر ان تنقل من هنا قدماً .

ثم قال: وأراد ان يتزوج ابنتنا ليلى فكرهنا ان نجعله لنا صهراً. أتعلم لماذا؟
- : لا يا مولاي .

- : لان المال الذي ينفقه على لذته ولهوه‌مال حرام تركه له أبوه من السرقة وقتل الابرياء غدراً كما أراد هو ان يقتل اميره الآن .

وجعل الأمير يروي الحادثة ووجه جبــير يسودّ وعدوان يصغي الى تلك الحكاية الغريبة التي كتمه اياها عبادة وابنه . وقد ذكر في تلك الساعة ، ان عبادة عندما ذهب الى البحرين ذهب مقلاً ثم عاد منها بعد اشهر كثير المال .. وذلك ما يدعوه الى الوثوق بقول زياد . لكنه يحب سيده الذي ربّاه ولو كان من الأبالسة .

حتى قال الامير :

وكان جبير هذا مع أبيه ليلة غرس خنجره في صدر البريء . فحفظ مثالة الغدر . وقام من ساعته فحمل الذهب المسروق . وما برح محتفظاً به يجر اذيال همته الى الآن .

قالها الأمير وهو يحدّق الى السارق . غير ان هذا كان جباناً بل كا[illegible] ذلاً فلم يجرد سيفه ساعة لا يغسل عاره الا الدماء .

ثم هزّ الأمير يده قائلاً : اين سيفك لا يبين له أثر ؟

- : هو هذا

قال : أتدافع عن أموالنا ولا تحسن الدفاع عن نفسك ؟

- : كان عليك انت ان تحسن الدفاع قبل ان تستعين بالفتيان الغرباء .

قال : ألم ترَ ان هذا الفتى أقبل يعرض عليّ سيفه دون ان يمدّ اليك يداً ؟

ولكنك خفت من السيف وانت تحاول الفرار منذ ساعة ولا تقدر عليه .

فرفع رأسه وقال : الموت خير من الذل يا ابن كعب .

— : أجل ، فلا خير في حياتك يا ابن السارق . وعمد الى سرج الجواد فنزع ركابه وهو يقول : أخشى اذا رأيت السيف بيدي ان ترتجف يدك فيسقط سيفك . لأجل ذلك سأجعل هـذا الركاب ترساً دون ان يكون معي سيف .. وتضربني ثلاثاً يا قاهر بني ثقيف في اي موضع شئت .. فان قتلتني فلك علي العهد ان قومي لا يطلبون بدمي ، ومولاك اليمني وهذا الغريب يشهدان . وان سلمت اعطيتك الركاب وضربتك بسيف الفتى ضربة واحدة ودمك هدر .. فماذا تقول ؟

فصاح الغريب قائلاً : ذلك كثير يا مولاي .

— : لا ورب الكعبة سأفعل هذا ليعلم اللص ان ابن كعب غير من لقي من رعاة بني ثقيف . سيفك يا جبير .

فجحظت عينا عدوان من الذعر .. ان مولاه مقتول على الحالين . اذا ظفر بزياد قتلته صوفة التي لا تحترم عهداً ولا تصغي الى احد. وان لم يظفر ضربه زياد ضربةً لا تضيع .. فصاح كما صاح الشاهد الآخر يقول : اصفح ايها الامير فابن عبادة من قومك .. فلم يبالِ زياد بما سمع .

— : اضرب يا جبير ..

فأهوى له جبير بالسيف فأصابت الضربة الركاب وتثلمت الشفرة .

فقال : الثانية .

فتراجع الفتى الى الوراء وهو يقول : لقد خسرت سيفي .

فمدّ الأمير يده الى الفتى الاخر وتناول سيفه فاعطاه اياه قائلاً : خـذ فاضرب بسلاح خصمك . وبدون ان يتردد ذلك النذل ، خطف السيف خطفاً وعاجله بضربة لولا مهارة زياد ورباطة جأشه لفلقت رأسه .

ولشدة الصدمة سقط السيف من يد جبير .

فتناوله صاحبه ورده اليه وقال : ورب الكعبة لو ضربت زياداً الف ضربة لما اصبته بواحدة .. خذ واحذر ان تضيع الثالثة .

فضرب بعنف وهو كالجمل الهـــائج لا يرى ما حوله . ولكنه لم يضرب الا الحديد .. فقال زياد عندئذٍ لقد جاء دوري الآن ايها المغرور فاوص بما تشاء .

وأعطاه الركاب ثم قـــال : لو لم تكن غـادراً لقتلتك بسيفك المكسور . ولكني لا أضرب بسيف غادر . أعطني هذا ودافع بالآخر ..

وعندما تناولا السيفين . وهم الامير بالضرب . اهوى اللئيم بضربة أخرى اخذها زياد بالسيف وصاح به قائلاً : لقد ضيعت صنـاعة ابيك يا سارق .. وفي تلك اللحظة ابصر ابن عبادة الموت بعينيـه .. وارتفع صوت عـدوان يستغيث ويستغفر ..

اجـــل . كان الموت في سيف زياد . لا يستطيع جبير ان يفر منه الا اذا استطاع ان يطير في الفضاء .. غـير ان ذلك السيف كان سيف نبيل فـلم يخرج الموت من حده . ولم ينشب مخالبه في عنق الغادر .. ان امـير صوفة . لا يريد ان يقتل الفتى . بل يريد ان يريه ويري خـــادمه اليمني عاقبة ذلك الغرور ، وهو لو اراد قتله لأمر احد خـاصته بان يأتيه برأسه دون ان يسأله أحد عمـــا يعمـل ..

امرّ سيفه بين سيف جبير وبين الركاب ووضعه على رأسه قائلا :

اعلم الآن ان حياتك بيدي وقد وهبتهـا لك فقال : بل اقتلني فانا ابغضك ولا اطيق ان أراك .

فأجابه قائلا : ان الشريف القوي ، لا يقتل الجبان .. ضع سيفك المكسور في غمده واحتفظ به الى يوم آخر تنازل فيه بني ثقيف ، وانت يا عدوان كن شاهداً عـلى مـــا رأيت يوم تسأل عنه ولا تنس .. وانصح لمولاك بأن يتزوج أمة لا حرة .

فرمى ابن عبادة الركاب ولم يعتذر . ومشى الى فرسه وهو ساكت . يريد ان يركبه للرجوع الى مكة .

فكبر الامر على زياد وظهر الغضب عندئذٍ في عينيه .. ان سكوت الفتى عن الاعتذار والشكر ، وان كان جنوناً ، مظهر من مظاهر الاستخفاف الذي لا تطيقه نفس الامير فقال : قف يا جبير فاسمع ما اوصيك به . لقد غفرت لك الآن على رجاء ان ينفعك هـذا الغفران فاذا نفسك الصغيره لا تعرف شيئاً مما فعلت ..

فقاطعه قائلا : لو لم تخف عاقبة قتلي لما عفوت .

قال : ايثور الحجاز وتسقط السماء على ارضه اذا قيل فيه ان زياداً قتل ابن عبادة ؟

— : وهل تظن ان الحجاز لك وليس لغيرك فيه اتباع وأنصار ؟

قال : انصارك كثيرون ولكن لا يخافهم الناس .

— : هم أصحاب السيوف التي لا تغمد ..

— : بل يغمدونها في صدور الابرياء تحت حجب الظلام ليسرقوا اموالهم !

قال : استرجع عفوك فلا اريد ان تكون الحياة منك .

— : لقد وهبت الآن فلا ارجع عما فعلت .. ولكن أصنع شيئاً آخر تهيج له صدور رجالك أصحاب السيوف .

قال : هات .

قال : ستنصرف الآن الى منزلك فتبيت فيه الى الصباح .

فجعل المجنون يبتسم وهو يصغي اليه .

ثم قال : فاذا طلعت الشمس فاجمع كل ما تركه لك ابوك من متاع ومال واترك مكة على أن لا تعود اليها وأنا حي .

— : وان لم افعل ؟

قال : وحرمة البيت الذي بناه اسماعيل . ورأس كعب وليلى . لئن غربت شمس اليوم الثاني وأنت في مكة لأضربك بالسوط على مرأى ومسمع من العشيرة حتى تلفظ الروح ولأرمين جسدك لكلاب الحي . يميناً صادقة لا ارجع عنها ورب الكعبة . أسمعت يا عدوان ؟ ليس لك في هذا عذر ولا نسمع فيه رجاء او شفاعة . انصرفا الآن .

فارتجفت ركبتا جبير عند الركوب .

فقال زياد : ساعد مولاك ايها اليمني ليعود الى ظهر فرسه .

وأومأ اليهما بالذهاب .

فطار فرس جبير حتى حجبه الجبل القائم وراء الميدان وحجب جبيراً عن العيون . وعدوان يمشي خطوة خطوة وهو مطرق .

وعندئذٍ بكى الفتى المجهول وجعل يكفكف دموعه .

فاستغرب الامير بكاءه وسأله قائلا : أتبكي يا بني ؟

- : نعم فخير ما اصنعه في هذا الموقف ، البكاء .

- : واي شيء يبكيك ؟

قال : الكبر والعز اللذان رأيتهما الآن .

قال : ان لم يكن سيد القوم كبيراً ضاعت هيبته وضاع رأسه في ساعة التجود على الآن بما بخلت به من قبل ؟

- : لا يا مولاي اني من قوم اذا قالوا صدقوا .

- : ومتى تعود الى الحي ؟

قال . عندما يسدل الليل حجابه .

- : بل تنصرف الآن وانا أراك .

قال : لقد خفت جبيراً عليّ يا مولاي ؟ فاعلم ان هذا الفتى اضعف من ان يمد اليّ يداً .

قال : ان الذي يشهر سيفه في وجه سيده لا يعفّ عن شيء .

ــ : وهذا الذي يخاطبك الآن لا ترتفع نحوه يد ابن عبادة حتى يقطعها بهذا الحسام .

قال : استحلفك بشرف قومك ان تذهب الان .

ــ : اقسم برأس الأمير اني لا اخطو من هنا خطوة واحدة الا اذا مشيت امامي وسرت وراءك .

قال : كلانا يريد ان يحمي الاخر من سيف الغادر .

ــ : أجل وحياة الامير اثمن من حيـــاة فتى لا تعرفه مكة . اذهب يا مولاي وخذ سيفي .

قال : سنقابل جبيراً بالنعل لا بالسيف . واخذ يتفرس في ذلك الوجه حتى طبعت صورته في ذهنه .

ومد يديه فضمه اليه وقبّل رأسه . ووثب الى ظهر الجواد فلوى عنقـه . ومشى في الطريق الذي سلكه قبله ابن عبادة . وقبل ان يدور خلف الجبـل التفت الى الوراء فرأى الفتى على فرسه لا يبعد الا بضع خطوات .

ولكنه عندما أقبل على مكة . كان الفتى قـد اختفى ولم يترك له اثراً . فظل سائراً وهو ينظر الى ما حوله عله يرى ابن عبادة ومولاه فلم يرَ احداً فقصد منزله وهو يفكر في الفارس الغريب .

وكان أبو زياد في فراشه وعبدالله بين يديه وهو يقص على ليلى اخبار البيت الحرام وكيف شيدوه .

فلما أقبل زياد قال له أبوه :

ألم تمرّ بسادن الكعبة ؟

ــ : لا .

قال : لقد طال غيابك فحسبت انك زرته .

فابتسم قائلاً : كدت ازور القبر .

فذعرت ليلى . وحدّق الشيخ الى وجه ولده فرأى دلائل الغضب ، فقال أتمزح يا زياد ؟

— : بل أنا جاد يا مولاي . رآني ابن عبادة في ميدان مكة وشهر عليّ سيفه ولولا فتى كريم الأصل لم أرَ وجهه من قبل لقتلت .

فاستولت الدهشة على الجميع وسألوه ان يقص عليهم ما جرى .

قال : كان علينا ان نزوج الرجل بليلى ليرضى والا فالموت يكن لنا جميعنا في ثوب جبير . وجعل يروي الحادث وعينا ابي زياد تلمعان كعيني النسر الى ان قال : وقد امهلته يوماً واحداً ليغادر مكة والويل له ان لم يفعل فقد اقسمت اني سأقتله ضرباً بالسوط امام الناس .

ففكر الشيخ ملياً ثم قــال : سيكون لهـذا الخائن شأن كما قلت لعبدالله من قبـــل .

قال : واي شأن للثعلب يعوي في البر وهو لا يجسر على دخول الحي ؟

قال : لو جاهر بالعداوة وهو ظاهر لما خفناه . ولكنه سيستعين بالحيــلة والغدر من وراء الستار .

— : بل لا يجرؤ غداً على البقاء في مكة ساعة واحدة بعد غروب الشمس وسترى . اصغ يا عبدالله الى ما اقول . تذهب غداً عند الغروب فتدور حول بيت جبير ثم تطوف في مكة . فاذا وقع نظرك على هذا اللص او على فرس من رهطه ، فانقل اليّ حالاً ما رأيت .

قال : اصفح عنه يا بني .

قال . لا تذكر الصفح يا مولاي فقد حلفت بالبيت وبرأسك ورأس ليــلى اني لــست براجع .

— . اذن ليمت فموته خير لنا وللحي من حياته . اني اتمنى ان يراه غـــــداً عبدالله .

قال . وبعد ذلك تبحث عن ذلك العربي النبيـــــل الذي عرض على مولاك سيفه وانقذه من الموت .

قال . صفه يا مولاي .

قال . ربعة في الرجال . أسمر الوجه كبير العينين . له الجـــدائل السود يرخي بعضها على صدره وبعضها على كتفيه .

— : تلك صفة معظم فتيان العرب يا مولاي .

— : عندما ترى فتىً يشبه فمه فم الحسناء . واذا نظر اليـــك جذبتك اليه نظراته الساحرة ، فقل هذا هو ..

فخفق فؤاد ليلى الذي لم يخفق من قبـل .. ان الذي انقذ اباها جميل الوجه ساحر النظرات. افيخفق قلبها على مروءته ام على حبه؟ وهل احست بما احست به عن شعور بالمعروف . ام عن عاطفة عذبة اذا استيقظت في الصـــدر هزت القلوب ؟

ان ليلى .. ليلى الصغيرة لا تستطيع أن تعرف اسباب هذا الاضطراب .

ثم قال زياد : وان رأيته فلا تتركه. امش وراءه اذا مشى . واذا كان راكباً فرسه فتعلق بذيل الفرس حتى تعلم اصله وفصله . اني لا استطيع ان انسى ذلك النبل وذلك السحر اللذين رأيتهما فيه .

— : ولكنه قال لك انه سيحتجب

قال : ايحتجب مثله في الاكواخ والخيام فلا يخرج منها في شأن له في مكة ؟ انه لايستطيع ذلك ، فافعل ما امرتك به واحذر ان يفلت من يدك .

وكانت ليلى في تلك الساعة تحلم .. تحلم وهي في اليقظة ؛ وقد استسلمت الى ذلك الشعور الخفي وما فيه في من امل طائش ولذة غريبة .

اجل ، كانت ليلى غائصة في بحر الاحلام ، وعندمـا كان ابوهـا يفكر في قاتله وفي منقذه ، ويأمر خـادمه بالبحث عن الاثنين كانت هي تفكر في ذلك المنقذ وحده ، دون ان يستحق ابن عبـــادة وان كان خطراً على زياد شيئاً من التفكير

وقد بدا لها وجه ذلك الفتى الغريب جميلاً فتانــاً . ورأته ، بقوة التصور والخيال ، احسن فتيان العرب واكرمهم محتداً . وهي لا تخجل من احــــد اذا سألت عنه . ان الاعتراف بالجميل وحده . يدعوهـــا الى مثل ذلك السؤال ، فقالت لأبيها : أواثق انت بان الفتى ليس من قومنا ؟

قال : وهل رأيت اميراً لا يعرف فتيان قومه ؟

— : أوليس من خزاعة ؟

— : اعرف معظم شباب خزاعة فلم أره بينهم قبل اليوم .

— : انه اذن من بني كنانة النازلين في الشعاب والجبال

قال : اولئك اشراف العرب وقد يكون منهم .

قال عبدالله : سأطوف في احيائهم فأراه .

قال : انه يعرفنا جميعاً على مـــا رأيت . فاذا ابصرك في حيه عرف الغاية واستخفى .

قالت : يظهر انه يخرج كل مساء الى ميدان مكة كما تفعل انت يا مولاي فاذا كان هذا فقد عثرنا عليه ..

قال : ولا تنسَ الميدان يا عبدالله .

- : ولكنك يا أبي لم تصف فرسه .

- : فرس حمراء في جبهتها خط ابيض كالهلال ..

فتنهدت قائلة : والافراس الحمر كثيرة في الحجاز ..

قال : وماذا أصنع يا ابنتي وانا لم أرَ غير ذلك .. ثم وضع يده عـلى جبينه وقـــال :

لقد ذكرت الآن .. ان في ابهام يده اليمنى يا عبدالله أثر جرح مستطيـــل يبدو للناظرين الى تلك اليد..فأشرق جبينها وهي تقول : اما الآن فقد احسنت الوصف وصاحب هذا الأثر لا يضيع .. ثم قالت لتستوثق : أحفظت اوصــاف الفتى يا عبدالله ؟

قال : ليست بالاوصاف التي تتعب الذاكرة . لقد عرفتها كما ذكرها مولاي وسأعرف صاحبها بعد حين ..

فقال ابو زياد : ابحثوا عن جبير قبل ان تبحثوا عن الآخر .

قالت : وما ضرّ عبدالله لو بحث في وقت واحد عن الاثنين .

فاجابها وهو هادىء : ننجو اولا من الخطر ثم نفعل بعد ذلك ما نشاء . فلم ترد ان تلج في ذلك الطلب . لئلا تطلّ عاطفتها من عينيها الذابلتين .

وكانت تلك العاطفة كما رأيت اغرب ما في القلوب الحساسة من اسرار .

ورقد القوم . على امـــل ان يستريحوا في اليوم الثاني من ذلك النذل الذي يريد ان يتزوج ليلى بقوة السيف ..

* * *

غربت شمس اليوم الثاني . وعبدالله لم يجد في مكة اثراً لابن عبادة .

وقد قيل له ان الرجل غادر منزله في الليل الماضي ، فقد رأى الناس رعاته يسوقون خيله ومواشيه في ذلك الليل متجهين نحو الشمال .. فقال في نفسه . لقد آثر ابن عبادة الخروج من مكة يستره الظلام . ليستر خوفه .. وقد حفظ في ذلك حياته .

ومنذ ذلك اليوم . لم يروا له وجهاً كأن الأرض اخفته في جوفها مع مولاه اليمني .. مع انه في الحجاز لم يبرحه كما سيجيء .

وجـــار القدر من الوجه الآخر فلم يعثر آل زياد على الفتى المجهول الذي يبحثون عنه .. ومرّت على ذلك بضعة شهور حتى اقبل الشهر الحرام .

* * *

- ٧ -

باحت ليلى بكل ما جرى ، لحبّى بنت حليل ، وسألتها رأيها في ذلك الذي انقذ زياداً من الموت ثم توارى كأنه غير موجود .

فقالت : اما ابن عبادة فسيأتي يوم ترون فيه وجهه وتسمعون صوته. انه من اولئك الناس الذين لا يسكتون الى الابد.واما الفتى الآخر فاذا كان زياد صادقاً في وصفه فقد وجدناه .

- : وكيف ذلك ؟

قالت : لقد اقبلت ايام الحج وطوائف العرب جميعها من الشام والعراق واليمن والحجاز تحج البيت وتجتمع حوله .

- : نعم .

- : فاذا طاف عبدالله حول تلك الصفوف يوم تحج رآه بينها فلا يتخفى بعد ذلك .

قالت : انه رأي يا حبّى ولكن عبدالله أعجز عن ان يتبين وجوه الالوف من الناس . واصابع الايدي ليرى أثر الجرح على الابهام .

- : أجل . غير انه يستطيع ان يتبين السحر في العيون ، أفلم يقل ابوك ان عيني الفتى تجذبان الناظر اليه ؟

قالت : أفيكون وحده بين جميع العرب كبير العينين ساحر النظرات ؟

- : وفرسه والهلال الابيض على جبهته ؟

- : من يعلم اذا كان يركب هذا الفرس في ايام حجه . ماذا تقول يا عبدالله ؟

وكان عبدالله بينهما فقال :

سأعرف اي صف من صفوف العرب اختار للبحث عنه .

- : نعم فهو ليس من خزاعة كما يقول مولاي كما انه ليس من صوفة . فلم يبق الا هؤلاء المضريون بنو كنانة وفروعهم فهو منهم .

قالت حبى : اذا كان هــذا فقد هان علينا الأمر وهؤلاء القوم الاشراف منزلون وراء الساحة مني تحيط بقصرنا بعداء عن البيت .

فبان الفرح في وجه ليلى وهي تقول : اذن ننتظر قدوم الحاج ليقوم امير صوفة بدفع ما عليه من الدين .

قالت : سيكون ذلك بعد خمسة ايام. أرأيت الحجاج يطوفون حول الكعبة يا ليلى قبل اليوم.

— : كنت أرى ذلك وانا صغيرة .

— : اذا طـاب لك ان تري وفود العرب فتعالي مع عبدالله كل يوم . ومن وراء احدى نوافذ القصر نرى كل شيء .

فنهضت قائلة : الى اللقاء بعد خمسة أيام .

وترك الاثنان ـ ليلى وعبدالله ـ قصر سادن الكعبة والفتاة ترى امامها على صفحة الفضاء ، عينين ساحرتين ..

* * *

اجلس يا عبدالله واذكر لنا اسماء من تعرف من الوفود .

فجلس وجلست الفتاتان . في موضع يرون منه الحجاج . والوفود تمر من امام القصر ..

ثم قالت حبّى: ليس هؤلاء من مكة. انهم قوم يشمخون بأنوفهم وينظرون الى العلاء ..

قال : هذه صفة بني تغلب ..

— : وهؤلاء الذين يترنحون في مشيهم كالسكارى ؟

— : بنو عمهم آل ضبيعة .

وجعل يذكر اسماء البطون من ربيعة القادمة من نجد .

— : وهؤلاء يا عبدالله .

قال : اصحاب القلانس الطويلة الضيقة التي تشبه قلانس الفرس ؟ هؤلاء بنو اياد النازلون في سواد العراق .

ثم رأت قوماً تبدو على وجوههم آثار العز وعليهم ابراد اليمن . فقــالت : مــــن هم ؟

— : هؤلاء عمال التبابعة يا مولاتي ، بنو كندة . وهذه مذحج وراءهم .

ثم مرت بجيله وجذام وهمذان ؛ وعبدالله يصفها كأنه يقرأ انسابها في كتاب امامه لا ينسى منها قوماً .

ثم مرّ قوم ارتفعت قاماتهم واصواتهم فقــــال : القوم الذين تختلط اصواتهم عندما يمشون هم بنو تميم .

— : اما هؤلاء فقد عرفتهم. انهم بنو الأوس. وهؤلاء بنو الخزرج من يثرب بينهم اخوال ليلى . ثم اقبل بنو عبس وذبيان وجديلة وسعد وغيرهم من قبائل قيس عيلان فقالت ليلى :

يظهر ان بني كنانة لم يحجوا .

قال : ان لم يقدموا اليوم قدموا غداً .

ثم ظهرت وفود الشام فقالت :

أرى قوماً صبحت وجوههم وطالت اردانهم .

قال : هؤلاء اصحاب الدول الفاتحة . انهم بنو قضاعة .

واقبل بعدهم بنو كنانة ، فأشرقت الوجوه . فقــال : لقد عرفتم هؤلاء .. هؤلاء بنو كنانة . وهمّ بالنزول من القصر الى الساحة ، فاستوقفته حبّى قائلة : اجلس حتى تمرّ جميع الوفود .

وبينا هم ينظرون الى القوم ، رأوا وراء الجميع رجلين . هذا كهل بلباس اهل مكة . والآخر فتىً بلباس اهل الشام ، وقد وضع احدهما يده بيد أخيه وهما ينظران الى قصر حليل . والكهل يومىء بيده الى هذا القصر . فقــــال عبدالله :

اما الذي وخط الشيب رأسه فقد عرفته .

فأجابته حبّى قائلة :

وانا اعرفه . هذا زهرة بن كلاب الكناني . ولكن من هو الآخر الذي تلوح على وجهه دلائل الشرف وهو ينظر الى الناس باستخفاف كأنه تبع ؟

قال : لا اذكر اني رأيت هذا الوجه من قبل .

قالت : انظر يا عبدالله . انظري يا ليلى ، عيناه سوداوان كبيرتان .. وفمه صغير كفم الحسناء . ولكن السحر من عينيه لا يصل الينا وليس معه فرس . لعله هو ! انزل يا عبدالله وانظر الى ابهامه ولو سحرتك عيناه .

قال : وهو ربعة في الرجال . لقد وجدناه . ووثب واثباً الى خارج القصر ، وكانت الوفود قد جاوزت الساحة .

ولم يبقَ فيها غير زهرة بن كلاب ورفيقه كأنهما ارادا ان تتقدمها جميع الصفوف . فخرجت حبّى وليلى الى الشرفة وهما سافرتان . لكن سهماً اصاب حبّى في قلبها . فان عيني الفتى نظرتا الى الشرفة فاخترقت النظرة ذلك القلب الخليّ الذي يهزأ بالحب والمحبين . وليس ذلك غريباً ، فالكثيرون من الفتيان والعذارى يسقطون في اشراك الهوى من نظرة واحدة .

فحولت وجهها الى ليلى كي لا ترى الرامي الساحر . ولكنها ما لبثت حتى تفرست فيه . ليس بالعينين فحسب بل بالقلب الذي بدأ بالاضطراب ، فرأت فتىً ليس في مكة مثله بتلك الصورة الجذابة ، وذلك الهدوء الذي ترسله ملامح وجهه ..

وليلى تراه اما قلبها فلم يخفق ، كما يخفق لتلك الصورة الخفية التي وصفها زياد . والفتى ينظر الى الاثنين . ويحادث زهرة بن كلاب برصانة وجلال ، ولا ولا يبدو على وجهه شيء . كأن حبّى وليلى ليستا موجودتين . مع ان عاطفة جديدة فيها عذوبه ولذة تحركت في صدره .

وكان عبدالله قد وصل . ولم ينظر وهو مارّ الا الى يد الفتى الشامي فلم يرَ اثر الجرح . فمشى بضع خطوات؛ ثم رجع وهو يحدق الى تلك اليد دون ان ينظر

الى الوجه . فلم يرَ ذلك الأثر . فتجهم وجهه ورجع الى القصر وهو يقول لليلى :
لا يا سيدتي ما وجدناه .

فقالت حبّى في نفسها : أما أنا فقد وجدته وعسى ان لا يضيع .

وفي تلك اللحظة مشى زهرة بن كلاب والفتى الشامي يريدان الكعبة .

فقالت لعبدالله وهي ترافق الاثنين بالنظر . وماذا تصنع الآن ؟

قال : أقف بباب البيت ربما يخرج الناس وينصرفون الى مواضع نزولهم
فاتبع بني كنانة .

قالت : وتتبع هذين الرجلين فتعرف ضيف زهرة .

قال : مهمة واحدة تكفيني اليوم يا مولاتي فلا استطيع بوقت واحد أن
أقوم بقضاء المهمتين .

قالت : تسأل عن الضيف اولاً فتعرف اسمه ثم تذهب للطواف بمضارب
كنانة لتعرف الآخر .

قال : وسأرى مولاي زياداً فأشاوره في الأمر .

قالت : اذا شاورته نهاك عن اللحاق بهذا الشامي الذي ليس له شأن معه
فافعل ما قلته لك ولا تذكر شيئاً لزياد .. مريه بذلك يا ليلى .

قالت : ألم تسمع يا عبدالله .

– : سمعت وأطعت يا مولاتي فقد عرفت الغاية .

– : ماذا عرفت ؟

قال : رأيت حبّى بنت حليل ، وليلى بنت زياد . تبحثان عن فتى خلّاب
المحاسن ساحر .. فوجدت حبّى فتاها اما انت يا سيدتي فلم تجديه وركض
بخلة الفتيان يريد الكعبة . فضحكت الاثنتان . ونظرت احداهما الى الاخرى
فاذا الخجل ينشر ظله على وجنتي بنت حليل .

* * *

كان الغريب يقول لزهرة وهما سائران : ان هذا القصر الذي رأيناه الآن أعظم قصور مكة .

قال : كما ان صاحبه اعظم رجال الحجاز كما ذكرت لك .

– : وتقول ان اسمه حليل بن حبشية ؟

– : نعم انتهت اليه حجابة البيت وهو فتى . وقد شاخ اليوم وهو يلي الكعبة وأمر مكة .

– : وقومه بنو خزاعة ؟

– : اجل اولئك الذين يلبسون في الحجاز الابراد اليمنية التي يلبس مثلها الكنديون .. انهم يحتفظون بلباس اجدادهم عرب اليمن كما سترى .

قال رأيت الكثيرين في عكاظ يلبسون هذه الابراد .

– : اما ابراد الخزاعيين فلها الخطوط السود والبيض وهي معروفة .

– : وماذا يفعل حاجب البيت ؟

فضحك زهرة قائلاً : لقد اقمت في بلاد الشام عمرك كله اي ثلاثاً وعشرين سنة فلا تعلم من أمر الحجاز شيئاً .. ان ابن حبشية يا أخي ملك الحجاز .. ولكن بدون تاج .

– : والعمال والجنود ؟

– : ليست الحال عندنا كما هي عندكم ! ان في الشام دولاً تغزو دولا وجنوداً تدك الحصون وتفتح الاقاليم . اما دولة الحجاز فتقوم بهذا البيت، بيت اسماعيل الذي تحجه العرب من أقاصي البلاد . وتخضع له الرؤوس المتوجة الجبارة التي اخضع اصحابها الارض .

نعم، انك ترى الملك في قصره تحف به قواده وعبيده وعتي العظمة والجلال

في مواكبه ، ولكنك تراه بباب الكعبة . امام حليل بن حبشية ذليلاً خاشعاً بالنظر ان يفتح له الباب هذا الخزاعي ليستطيع ان يسجد للآلهة .

واهل الحجاز كلهم جنود البيت ، اي جنود حليل . يطيعونه جميعهم كما يطيع اهل ملكهم وبالمال والدماء يفدون الكعبة وسادنها امير الامراء .

واما العمال ، اي رجال الدولة . فبضعة امراء يتولون امر الحج وهم سادن القوم ورؤساؤهم يخضعون جميعهم لحليل هو الرأس الأكبر .

انظر الى الوفود تدخل الكعبة وتخرج منها . ان غلاماً من الغلمان لا يدخل ولا يخرج بدون اذن حليل . والمال يكثر في جيوب بني خزاعة سلالة قحطان . وهل في جيوبنا نحن بني عدنان سلالة اسماعيل .

فتمتم قائلاً : لأن الموت يبسط جناحيه فوقكم ايها الخاملون .. وقد خفض الفتى صوته فلم يسمع زهرة ما قال ، ثم سأله قائلاً :

واين يقيم قومنا بنو النضر ؟؟ .

: في الشعاب والجبال التي رأيت ، ان مكة بما فيها من قصور ودور ملك الخزاعيين والبكريين وبني صوفة . اشراف بكر يجمعون المال من الحاج والخراج من اهل الحجاز . واشراف صوفة يتقدمون الناس جميعهم من منى فلا ينفر احد منهم قبل ان ينفر سيدهم زياد بن كعب . أفلم ترَ ذلك الرجل الذي أخذ مع رجاله بناحيتي العقبة فوقفت الوفود وراءه لا يخطو واحد منها خطوة واحدة بدون امره ؟ هذا هو زياد .

: وانتم ؟ اي شيء لكم في بلدكم ؟

- : لنا ان ننسأ الشهر الحرام فنجعلها في الوقت الذي نشاء .

فتنهد قائلاً : كان يجب ان يكون لكم اكثر من ذلك .

قال : لو اقمت في الحجاز لرضيت بما رضي قومك .

قال : ولدت في مكة وسأمكث فيهـــا حتى يضمني القبر . اني وان كنت

نشأت في ربوع الشام احنّ الى وطني الذي لا اعرفه. واتمنى ان يزول هذا الفقر الذي اعانيه لأجل بلادي .

قال هذا وسكت وقد اسوّد وجهه ..

فضحك زهرة ثانية ً وهو يقول: لتجعل بلادك زاهية زاهرة كبلاد الشام !! وتبني فيها ملكاً واسعاً يجرّ أذيال العز.انها فكرة عالية أملتها عليك سماء الشام الصافية التي عشت تحتها .. قل لي ماذا تفعل بالمال اذا وهبته لك الاقدار ؟

فظل ينظر الى ذلك الجدار،الجدار العظيم الذي يحيط بالكعبة،وهو ساكت كأنه طائر في سماء الخيال .

فوضع زهرة يده على كتفه ليصحو . ثم قال له :

أتستعيد بالمال مجد بني اسماعيل ؟

فاجابه هادئاً : انك تهزأ بي لأني لا املك منه درهماً ولكن اعلم اني عندما املأ منه راحتي افعل ما اشاء . ورب الكعبة افعل ما اشاء . ثم قال وعيناه تلمعان . والالفاظ التي تخرج من فمه تقذف بها عاطفة قول تجيش في صدره : يا زهرة .. من هم الناس الذين كانوا أولياء هذا البيت قبل هؤلاء الخزاعيين ؟

— : هم جرهم .

— : وقبل هؤلاء ؟

فلم يجب .

فقال : كانوا أجدادك الذين يقيمون بعدهم في الجبال .

قال : ذلك من مئات السنين .

— : نعم . ومرّ السنين جعل بني معدّ او بني مضر . او بني كنانة ، ذرية اسماعيل ، تماثيل من حجر ، لا تذكر ماضيها ولا تشعر . واذ ذكرت ذلك الماضي فبالاستهزاء والسخرية كأن الاستسلام الى الخمول كل ما في الحياة من لذة ونعم ..

فحاول زهرة ان يسكته فلم يسكت . كأن قوة خفية كانت تدفعه الى

الاول .. اي فتى كناني ، بعد ان غلب بنو كنـــانة على امرهم ، اي فتى رفع صوته في الحجاز داعياً قومه الى استرجاع العز الذي خسروه؟انهم يشترون النوق والخيل . ويجمعون المال . وهم راضون بالنسأة التي انعمهم بها هؤلاء الخزاعيون.

قال : لقد اخذت خزاعة ولاية البيت بالسيف ..

— : كما اخذتها جرهم . وكما يأخذها بنو كنانة اذا اتحدوا .

— : اخفض صوتك فانت بباب الكعبة الآن .

فوقف الفتى ، وكأنه ذكر امراً كان قد نسيه فقال وهو يلتفت الى الوراء : ان في الحجاز جمالاً يا زهرة .

قال : لا يطيب ذكر الجمال الا للاغنياء .

— : ومع ذلك فنحن نذكره كما يذكر المرء هـــذه السماء التي فوقه . اي الفتاتين بنت حليل .

قال : أفلم ترَ الواحدة منهما اكبر من الاخرى ؟

— : بـلى .

— : ان الكبرى بنت سادن الكعبه والاخرى بنت زياد وليس لهذا بنون الا ليلى اما حليل فله ذكر يدعى المحترش .

— : والاثنتان مخطوبتان على ما أظن .

— : لا ! فهما لا ترغبان في الزواج كما تقولان وقد خطبهما الكثيرون من الاشراف فلم ترضيا . أتفكر اليوم في الزواج ؟

— ، اني يا اخي افكر في كل شيء وكأني لا أفكر في شيء .. ان الفتاتين جميلتان بل هما آية الجمال .

— : وغداً تخطب احداهما وينتهي الأمر .

قال : امزح ما طاب لك المزاح ولكن لا تستخف بي . أجـــل سأخطب احداهما كما تقول .

– : وانا سأخطب غداً بنت امرىء القيس ملك الحيرة او بنت بهرام ملك الفرس .. انك تخطب ولكن لا تتزوج ..

– : بل ينتهي الأمر بالزواج وسترى ..

قال : لقد تعب الامراء والأشراف فلم يتم الامر .

فبرقت عيناه قائلاً : ليس في الحجاز من هو اكرم مني نسباً . انا ابن كنانة.

– : اعلم ذلك ولكن القوم ارفع منك مقاماً ..

فنظر الى السماء وهو يقول : ألا ترى هذه الشمس ؟

قال : أراها .

قال : سأرفع اسمي ومقامي حتى أساويها في العلو .

وكانا قد أصبحا امام البيت ، فرأى زهرة ان يكف عن الكلام مع هـذا الفتى المجنون .

اما هو فسأله قائلاً : أهذا هو حليل الذي وصفته لي ؟

– : نعم ، وهو في جلاله كالملك على العرش . انظر الى الرؤوس تنحني له احتراماً في الدخول والخروج .

– : وهذا القائم الى جانبه يعبث ببردته ؟

– : هذا ولده المحترش الذي سيتولى امر الكعبة بعد ابيه . انه فتى أبله ينام بين زقاق الخمر ولا يعبأ بأمر البيت !

– : وكيف يسكت أبوه عنه ؟

قال : ليس لحليل هم الا المحترش ، هو يخاف أن يموت فتمتد الأيدي بعـده الى ولاية البيت ويضيع ذكره .

– : أي ان هذا الفتى لم يخلق ليسود الناس .

– : بل خلق ليسكر ، ويملأ مكة عيوباً وعربدة ، أدخل الآن .

قال : لقد غصت الكعبة بالناس فلا ندخل حتى يخرج بعضهم .

ومشى امام زهرة يدور حول الجدار الخارجي وهو يفكر في كل ما رآه .

* * *

هنالك غريبان يجب ان يتعرف عبدالله امرهما كما قرأت .

وعليه ان يبدأ برفيق زهرة بن كلاب ، قبل ان يبحث عن الآخر وذلك هو الرأي .

وكان يعلم ان ذلك الشامي سيزور البيت مع زهرة ، فتبعهما من بعيد وهو يرى الاثنين يتحادثان ، حتى دارا حول ذلك البناء العظيم ، فجعل يدور معهما وينظر الى ما ينظران .

وكانا قد رأياه .. غير انهما لم يظنا به سوءاً . لان زهرة يعرفه . وليس هنالك مجال للظن بمولى زياد . واستمرا ماشين الى ان تمت الدورة . فدخل زهرة متهيباً وهو جار الكعبة ولو شاء لدخلها كل يوم . اما الفتى فقد رفع رأسه كأنه يناجي الآلهة التي سيراها ويسجد لها في الداخل .

وقد ابتسم حليل لزهرة الذي حنى له رأسه وجعل يحدق الى الآخر وقد اعجبته صباحة وجهه ..

ودخل عبدالله .

وماذا ترى اذا دخلت ؟ ترى رؤوساً تلامس الارض .. وصفوفاً تروح وتجيء .. وطوائف من الخلق من جميع الاجناس ؛ هذا ساجد وهذا قائم على اقدام الاصنام . والصمت والجلال يسودان مقر الآلهة التي تحيي وتميت .

والداخل الى الكعبة ، ولو كان جاراً لها ، يضيع . انها مدينة فيها المقاصير والاروقة والدهاليز .. وفيها الاحرام ؛ تحرسها الآلهة . وتنتهي ببابها كبرياء الملوك وسلطانهم .

هذا يرجع عهده الى اسماعيل . وهذا من بقايا العمالقة ولاة البيت في قديم الزمان . وهذا يد جرهم وخزاعة فيه . حتى تمتلىء نفسك وتصغر في عينيك جميع بيوت العبادة وقصور الملوك .

هنا . على اقدام الصنمين . اساف ونائلة . تنحر الذبائح وتقرب القرابين وهنا . امام هبل . اعظم اصنام الكعبة . يضربون بالقداح لانجاز الأمور والوفاء بالنذور .

« القداح . هي السهام قبل ان تنصل » .

وتحت هبل . بئر فيها هدايا الامم والقبائل التي ترسل الى البيت .

وكان زهرة يصف لضيفه جميع ما يراه وما يعرفه . حتى سجد أمام هبل وروح الفتى تخاطب الصنم الاعظم . اي تدعو الله .

وقد رأى عند هبل سبعة اقدح فقال :

كيف يضربون بهذه يا زهرة ؟ لقد سمعت بني قضاعة في ربوع الشام يذكرون ذلك فلم أفهم شيئاً .

فنظر زهرة الى الوراء وكان الناس قد تفرقوا ولم يبقَ غير عبدالله الواضع رأسه على الارض . وفتى آخر يستر وجهه قناع اسود يشبه قناع المرأة التي تغطي به الوجه .

فقال وهو يخفض صوته : هذه تقوم مقام الحاكم الذي لا يرد له قول . انها تنطق من فم هبل

— : وكيف ذلك ؟

قال : كل قدح منها فيه كتاب . انظر هذا فيه كتاب العقل .

— : ومعناه ؟

— : معناه انهم اذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم . عمدوا الى القداح فضربوا بها فمن خرج عليه قدح العقل اعترف الناس له به .

— : وهذا ؟

— : وهذا فيه « نعم » فاذا أرادوا امراً ضربوا ، فان خرج قدح « نعم » عملوا بذلك الأمر ، وهذا فيه « لا » فاذا خرج لم يفعلوا .

– : والاربعة الاخرى ؟

– : واحد فيه « منكم » وواحد فيه « ملصق » وواحد فيه « من غيركم » والآخر فيه المياه .

قال : اشرحها يا زهرة .

قال : اما المياه فاذا جاءوا ليحفروا لها ضربوا بالقداح كلها وفيها هذا القدح فحيثما خرج عملوا به .

وعبدالله يرفع رأسه من حين الى آخر كأنه يسأل هُبل الرحمة به وبقومه .

وعلى رغم دهائه وصبره لم يعرف اسم الفتى لأن زهرة لم يدعه به ولم يذكره في حديثه ، ثم أومأ زهرة الى رجل جالس في آخر الرواق قائلاً : الرجـــل الجالس على الارض وظهره الى الجدار هو صاحب القداح .

– : اي الذي يضرب بها ولا يفعل ذلك غيره ؟

– : أجل وهو من اشراف الناس .

– : وما هو قدح « منكم » ؟

قال : اذكرها لك جميعها الآن . انهم اذا أرادوا ان يختنوا غلاماً او يدفنوا ميتاً او شكـّوا في نسب احد منهم . حملوه الى هذا الموضع ، امام هبل وحملوا معه مئه درهم وجزوراً « مـــا يجزر من النوق او الغنم » فاعطوها صاحب القدح . ثم يقربون صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ثم يقولون لهبل :

يا الهنا . هذا فلان ابن فلان أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه .

وعندئذٍ يضرب صاحب القداح . فان خرج عليه « منكم » كان وسيطاً وان خرج عليه « من غيركم » كان حليفاً . وان خرج عليه « ملصق » كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حلف . وان خرج في شيء سوى هذا مما يعملون به «نعم» عملوا به . وان خرج «لا» أخروه عامهم ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى .

– : اي انهم ينتهون في أمورهم الى ما تخرج به القداح .

قال : في الامور التي تحمل الشك كما ذكرت .

وعندئذٍ رفع عبدالله رأسه مرة أُخرى .

وكان الفتى المقنع قد نهض ومدّ يده اليمنى يصلح بها قناعه . فخيل الى عبدالله ، على النور الضعيف في جوف الكعبة انه يرى أثر جرح مستطيل على الابهام ، فارتعش ارتعاشاً ظاهراً كأنه رأى ما يخشاه . ونسي زهرة وضيفه وهمّ بالنهوض ليلحق به . ولكن صاحب القناع نظر اليه في تلك اللحظة ، فارتعش مثله ، ومشى بخطوات هادئة الى موضع الصَنَمَيْن ، أساف ونائلة ، وهو يظهر انه خالي الذهن لا يعبأ بمن حوله .

فقام عبدالله وهو يقول في نفسه : اما الآن فقد وجدناك .

ثم جعل يفكر . هذا أثر الجرح قد رآه . والفتى ربعة كما وصفه زياد .. ولكن آثار الجروح كثيرة في ايدي الفتيان اللاعبين بالسيوف في الصباح وفي المساء . وقامات الناس تتشابه حتى لنجد الكثيرين في قوام واحد كأنهم في قالب . وقد يكون هذا المقنّع كهلاً لا فتىً وهو يظنه صاحب مولاه فيجب إذن ان يرى جميع اوصافه . منها العينان الساحرتان . والفم الذي يشبه فم الحسناء . ومنها الفرس الحمراء ذات الهلال الأبيض .

وعندما غاص في لجة التفكير ، وأصيب بشيء من الذهول . كان رجل القناع قد توارى . واختفى بين تلك المقاصير . فأرسل نظره الى الجهات الأربع فلم يره، فركض في دهاليز الكعبة كما يركض الخائف. حتى وصل الى الصحن الخارجي . فاذا الجماعات المتراصة تخرج صفاً صفاً . ولم يستطع لكثرة الناس واندفاعهم ان يتبين الوجوه ..

ولكنه اراد الخروج في تلك الساعة ولو داسته الاقدام ..

لقد قام في ذهنه ان الرجل باقٍ في الكعبة اذ ليس له جناحان ليطير بهما الى الساحة . وان قناعه سيرشده اليه ولو كان بين الف ، وقد فات عبدالله الذي خبر الزمان ان صاحبه نزع قناعه فلم يبقَ ما يدلّ عليه .. وبين افكاره

وظنونه ، ضاعت آماله .. اذ لم تقع عينه على ذلك القناع الأسود بعد ذلك . على رغم وقوفه امام الجدار وتفرسه في وجوه الزائرين .. وفي ذلك الحين عرف انـه ابله . وان المقنّـع اكثر دهاءً منه .

ولكن ماذا ينفعه ذلك وقد ضيـع تعبه؟ وحبّى وليلى تنتظران رجوعه وهو عارف كل شيء ..

وكادت الخيبة تفقده هداه ، لو لم يرَ زهرة بن كلاب وضيفه بالباب .

وقد استولت الدهشة عليه ، عندمـــا رأى الاثنين يقبّلان يد حليل وهو يبادلها .. فقال في نفسه اذا كنت قد ضيعت صاحب ليلى فلم اضيع صاحب حبى !...

ان سادن الكعبة نفسه سيروي لها كل ما يعرفه عن هذا الشامي .

* * *

- ٩ -

مكة في واد . تشرف عليها الجبال من جميع الجهات ..

والوادي حار في الصيف . ان ليله طيب بما فيه من نسيم عليل .. فاذا اراد الحجاج ان يمكثوا في مكة بضعة ايام انتشروا فيهـــا على عرض الوادي يقضوا مناسكهم وينتهي الامر الذي قدموا من اجله .

وكانوا يقولون لمـــا نزل عن المسجد الحرام ، المسفلة . ويسمون مـا ارتفع .. المعلاة .

وللكعبة حرم واسع هو بقعة من الارض كبير فيهـــا الاشجار الكثيرة لا يجوز لك ان تقطع شجرة منها كما انه لا يجوز الصيد في ذلك الحرم ، فاذا انتهيت من تلك البقعة فأنت في الحلّ .

وكان بنو كنانة يقيمون في مكة نهاراً . فاذا امسوا خرجوا من الحرم لا يبيتون فيه ولا يريدون ان يبنوا بيتاً مع بيت الله ، فهم اهل عبادة كما ترى

واصحاب عقيدة وايمان.. وكان عبدالله يعرف الموضع الذي يضربون فيه خيامهم ويقوم فيه حيهم ، ولكن .. مـاذا يفعل وقد اقبل المساء .. وظلام الليل يمنعه من ان يتبين الوجوه .. ايذهب فيبيت في حيهم حتى اذا اصبح قـام يبحث عن الضائع ؟

ولكنهم اذ رأوه انكروه ..

ام يصبر حتى يعود الناس في اليوم الثاني الى الكعبة فيفعل غداً مـا فعله اليوم ويعثر على ضالته ؟

ان الصبر هو الرأي . وعليه ان يمر بقصر حليل فينصرف مع ليلى الى المنزل ويدعوه الى الانتظار،وعلى حليل نفسه كما قرأت ان يقص على حبّى خبر ذلك الغريب المـاثل الآن بين يديه .. ومشى على هـذا الامـل حتى دخل القصر والاثنتان تنتظران .

وقد عرفتا من وجهه . انه لم يبلغ الغاية .

ماذا جرى يا عبدالله ؟

قال : سيروي لك غيري يا مولاتي حكاية الفتى الشامي الذي سحرك جماله .

فأجابته حبّى قائـلة : كذبت يا لعين فنحن لا رغبة لنا فيه والشام تبعد شهراً عن الحجاز .

— : اعلم ذلك وقد اكون كاذباً ..

قالت : ومن هو الذي يقص علينا حكايته ؟

قال : ورب الكعبة لا أقول كلمة حتى تعترفي لي .

— : بمـاذا ؟

— : بالعاطفة التي سعرت في هذا الصدر نار الغرام .

فابتسمت قائلة : ايهبط علينا هذا الغرام من السماء يا عبدالله ؟

قال: بل ارسلته عينان سوداوان والعيون يا مولاتي كالسهام تخترق الصدور.

— : اترك المزاح الآن واذكر ما رأيت .

قال : اتحبين ذلك الشامي الفتان ؟.

- : أجل .. واعترف انك اخبث الناس .

قال : اما الذي ينقل اليك خبر صاحبنا فهو ابوك نفسه .

- : أبي ؟ !

- : نعم أبوك سيد هذه الديار .

قالت : اذا عرف سادن الكعبة شيوخ الشام فهو لا يعرف فتيانها .

قال : رأيته الآن يخاطب زهرة بن كلاب ويبتسم له .

- : واذا فعل ؟

- : اذا فعل فقد عرف الغريب الذي معه .

- : واين جرى هذا ؟

- : بباب الكعبة والثلاثة الآن يتحادثون .

فاشرق جبين حبّى واهتزّ قلبها العاشق .

وكانت ليلى ساكتة ، فنظر اليها وهو يقول : اما الآخر ؟

- : فقد ضيعته . فارتجفت شفتاها وتمتمت قائلة : ولعلّ رأيته ؟

- : نعم يا مولاتي كان ساجداً على قدمي هبل وكنت الى جانبه .

- : وفيه الصفة التي ذكرها أبي ؟

قال : لقد قنّع وجهه يا مولاتي فلم أره ولكني رأيت اثر الجرح على الابهام .

- : وبعد ذلك ؟

- : وخيّل اليّ انه يعرف غرضي فقد اختفي داخل جـدر الكعبة وأنا وراءه كأن في تلك الجدر ابواباً سحرية يفرّ منها الناس، وفتشت بعـد ذلك كثيراً فلم أرَ له اثراً ولم اعلم كيف احتجب عن العيون !

فاغتصبت ضحكة قصيرة وهي تقول : اما انا فقد عرفت الآن امرين اذكرهما لك : الاول انك سيد المغفلين بدوّن جدال .

- : والثاني ؟

– : وأما الثاني فان الفتى قبل ان يختلط بالناس نزع قناعه فصار مثلهم وانت لا تعرفه الا بجرح يده وهكذا قدر ان يهزأ بك .

– : ولكن سأقبض عليه غداً فلا يضيع .

– : ومن قال لك انه سيعود ؟

– : الناس جميعهم يزورون البيت اكثر من مرة .

– : واذا فعل ؟ فهل انت واثق بأنك ستراه .

– : نعم ولو كان في جوف الصنم الاكبر .

فتنهدت قائلة : سنرى ماذا تفعل غداً . قم نرجع الى القصر ولا تنسَ ان تذكر ما رأيت لأبي زياد ، ثم قالت لحبّى : وانت ستقصين علينا غداً ما يقصه عليك ابوك في هذا الليل .

وقامت فخرجت وعبدالله يمشي امامها وهو مطرق . وهي مثله تفكر في صاحب القناع الذي رآه .

* * *

– ١٠ –

لقد خاطبه ابي بباب الكعبة وعرف من هو ، هكذا يقول عبدالله .

اذن فليس في الحجاز من يستطيع ان يصف الفتى كما يصفه سادن الكعبة . وسأسمع ابي الليلة يروي لي خبره دون ان يعلم ان لي شأناً في هذا ..

وذلك ما كانت تقوله حبّى وقد استيقظ في صدرها الحب وامتلأت نفسها بهجة وفرحاً . ولكنها أرفع من ان تسأل اباها عن ذلك الحبيب .

ان في السؤال ذلاً لحبّى ، وهي لا تريد ان تبوح بذلك الحب قبل ان تمهد جميع اسبابه . وقد تخدمها الاقدار فيذكر لها حليل اخبار يومه قبل ان تسأله . وان لم يفعل ؟ ان لم يفعل عمدت الى الحيلة واستدرجته الى الاقرار لتعلم اولاً من هو ذلك الغريب الذي رماها بسهام عينيه .

وبينا هي تفكر في هذا ، وقلبها يرقص على انغام الحب . اقبل ابوها مع المحترش . ووراءهما بعض العبيد الغلمان ، وقد ابتسم حليل وافترّ ثغره . وهو يهمّ بالكلام كأن في صدره سراً لا يطيق ان يكتمه . فقالت له : لقد ذهبت طائفة من الليل وانت في البيت حتى خيّل اليّ انك ستقضي الليل كله فيه .

قال : الحجاج كثيرون في هذا العام وقد اقبلوا على الكعبة جماعات كلها تريد الدخول اليوم . العام عام خير واقبال . وقد طاب للعرب ان تحجَ البيت من جميع الاقطار .. نعم . ما رأيت في زماني قط اكثر مما رأيت اليوم من وفود الحجاج ..

قال هذا ومشى الى قاعة الجلوس ، فلحقت به وجلست الى جانبه .

وكان المحترش قد تركهما .

فهزّ حليـل رأسه وهو يقول : لا يطيب لولدنا الا العزلة ليشرب الخمر .. ان عنده بقية منه ..

قالت : ايشربها في الشهر الحرام ؟

— : اذا رآها نسي الحرام والحلال، ونادى غلامه قائلاً : اين مولاك المحترش؟

: لقد خرج من القصر يا مولاي .

فابتسم قائلاً : لو خيّروه بين تاج الفرس وكأس الخمر لاختار هذه ولم يبالِ . اسمعي ماذا فعل اليوم ، رأيت زهرة بن كلاب بباب الكعبة ومعه فتىً مـن الشام اعجبني هدوءه وجمال وجهه فجعلت اسأله عنه .

فبان الغرام في عيني الفتاة ..

قال : ثم رأيت ان اسأل ذلك الفتى عن بلاد الشام فأخذ يقص عليّ مـا يعرفه واخوك المحترش يضحك ضحك الهازىء حتى قال اخيراً : ولم يكفّ عن الضحك: هنيئاً لأهل الشام فالخمر كثيرة عندهم يشربونها في الصباح والمساء.

— : وماذا قال الآخر ؟

— : نظر الى المحترش نظرة استخفاف ولم يجب ، ولو لم يكن بالباب بعض

سادات بني تميم للطمته على وجهه لطمة تملأ فمه دماً . انه يذلني امــــام اشراف العرب وساداتها ويفضح نفسه كلما ذكر الخمر .

— : ليفعل ما يشاء يا مولاي فلم يبق لك حيلة في رده .. والآن قل لي . ألم ترَ بين وفود العرب من تسأله عن اهله وبلده غير ذلك الشامي ؟

— : لم يكن لي غرض بهذا السؤال الا ان اعرف من هو ..

— : لم افهم يا مولاي .

— : كانت طوائف العرب تمرّ بي وأنا اتبين الوجوه فلم اجد بينها وجهــاً يجذب الناظر اليه الا وجه هذا الفتى ..

قالت : ألم نرَ هذا الوجه من قبل ؟

— : لا . فالفتى لا يعرف مكة وهي مسقط رأسه ولم يحج البيت الا اليوم

— : اذن هو من الحجاز .

— : نعم ومن اشراف العرب الذين خدموا الكعبة وبذلوا في سبيلها بعض مــــالهم ..

— : وماذا يفعل في الشام ؟

— : له حكاية أرويها لك الآن ..

فأصغت اليه بعاطفتها واحساسها حتى حبست انفاسها كي لا تفوتها كلمة .

قال : في ظاهر مكة قوم من نبلاء العرب يقال لهم بنو النضر بن كنانة .

— : أعرف هذا .

— : ولهؤلاء القوم الجاه العريض والصوت البعيد في الحجاز .

— وأعرف هذا أيضاً .

— : وقد ساعدوا جدنا الأول في الاستيلاء على مكة وكانوا عوناً له عــــلى اصحابها بني جرهم .

قالت : اذكر انك رويت لي اخبار ذلك الفتح .

قال : وتذكرين ايضاً زهرة بن كلاب الكناني .

ـ : نعم وأرى الناس يحبون هذا الرجل ويحترمونه .

ـ : ولكنك لم تعرفي اباه كلاباً لأنه مات قبل ان تخرجي الى هذا الوجود . فرأت حبّى انه يحدثها باخبار زهرة وهي انما تريد ان تسمع أخبار الآخر .. فقالت : أراك تصف بني كلاب يا مولاي ..

ـ : نعم حتى اصل بهذا الوصف الى الفتى الذي ذكرت.. اسمعي يا حبى.. كان كلاب بن مرة سيداً في عشيرته يطيعه قومه ويحبونه كما يحبون زهرة لجوده واباء نفسه . وكان مضيافاً كثير البذل لا تملك يده مالا حتى ينفقه على الناس .

ـ : ولكنه لم يكن غنياً على ما أرى .

ـ : لا . ان الغني هو الذي يحتفظ بماله فلا يعطي احداً شيئاً منه ..

قالت : أليس لزهرة اخوة يا مولاي ؟

قال : تزوج كلاب فاطمة بنت سعد بن عوف فولدت له زهرة هذا واخاه زيـداً .

ـ : ويظهر ان زيداً مات .

ـ : بل مات ابوه وهو صغير وزهرة قد شبّ وكبر ، وبعد أيام قدم مكة رجل من قضاعة يدعى ربيعة بن حرام فتزوج فاطمة ارملة كلاب وحملها الى بلاده في الشام ومعها صغيرها زيد وبقي زهرة في مكة .. وفي الشام ولدت فاطمة لربيعة بن حرام ولداً دعاه ابوه رزاحاً هو اخو زيد وزهرة لأمها فقام في ذهن الفتاة ان رزاحاً هذا هو الفتى الشامي . فقالت : لقد عرفت الآن فتاك .

قال : من هو ؟

ـ : هو رزاح نفسه .

ـ : ان رزاحاً لم يترك الشام . وكان لربيعة ثلاثة بنين من امرأة أخرى هم حنّ بن ربيعة ومحمود وجلهمة رحبوا جميعهم بزيد وأحبوه .

قالت : رأيت وفود بني قضاعه تقصد الكعبة فهل حجّ معها ربيعة بن حرام.

— : وربيعة ايضاً قد مات وليس في هذه الوفود احد من ولده ..

فحارت حبى في الامر .. ان ذلك الشامي لم يزل مجهولا ولم يذكر ابوها اسمه .. وكرهت ان تستعجله في ذكر ذلك الاسم ، اما هو فاستطرد قائلاً :

وشبّ زيد في حجر ربيعة وقـــد استبدلت امه اسمه باسم « قصي » لبعد داره عن دار قومه ، فعرفه الناس منذ ذلك الحين بذلك الاسم ولم يبق « لزيد » ذكر .

— : ومرّ عليه الزمن وهو في ارض الشام ..

— : أجل . مكث بضعــاً وعشرين سنة وهو لا يعرف من امره الا انه ابن ربيعة ، وقد سكتت امه عن نسبه . فلم تذكر له اباه كلاباً . ولم تذكر له مكة ولم يبرح الشام قط ، في ذلك الزمان الذي مرّ .

قالت : لم يبرحها الا اليوم .

فقال ولم يبالِ : حتى كان العام الماضي ، وكان بينه وبين رجل من قضاعة خلاف على جمل . يقول القضاعي هذا لي ويقول قصي هذا لربيعة . حتى قال له ذلك الرجل : ليس لك ان تبحث عن مال ابن حرام لأنك لست ولده بل لست من قضاعة .. فاستولت الدهشة على قصي .. ايجــاوز العشرين من عمره وهو لا يعرف اباه ؟.. ان في ذلك كل العار .. ورجع الى امه ليسألها عما سمع ، فقالت له : ما بالك يا قصي ؟

— : وما بال رجل يعيره الناس بنسبه وهو لا يعرف قومه ؟ ابن من انا ؟

قالت : ومن عـيّرك بنسبك ؟

- : رجل من قضاعة .

فقــالت له : انت يا بني اكرم منه نفساً ووالداً أنت ابن كلاب بن مرة ابن كنانة ..

— : وأين قومي ؟

— : في مكة عند البيت الحرام .

فكره ان يبقى في الشام بعد ذلك وهمّ بالخروج الى قومه حاملا تلك الكبرياء التي جرحها القضاعي ، فقالت امه ، لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج في حاج العرب فأني اخشى عليك ان يصيبك بعض البأس .

فأقام بالشام ساكتاً على غل حتى اذا خرج بنو قضاعة الى مكة يحجون البيت خرج فيهم وهو لا يصدق انه يصل الى بيت الله ليرى عنده اخاه وبني قومه . . .

فتنهدت حبى وهي تقول : ذلك هو اذن قصي بن كلاب ..

— : نعم . وهو اجمل فتيان الحجاز وجهاً واعفهم نفساً كما رأيت .

فأشرق جبينها قائلة : افتستطيع يا ابي ان تقرأ نفس الفتى وانت لم تره غير مرة واحدة ؟

— : لا خير في سادن الكعبة ان لم يقرأ على الوجوه ما تخفيه الصدور لقد رأيت والله على جبينه سطور العظمة والجلال .

— : وهل يريد الاقامة بالحجاز ؟ قالت هذا وهي تضطرب ..

فقال : بل يقيم زمانه كله في مكة كما قال لي .

— : وامه فاطمة ؟

— : باقية في الشام مع ولدها الآخر رزاح بن ربيعة .

— : وماذا يملك قصي يا مولاي ؟

— : ليس عنده شيء من المال حتى انه لا يملك ناقة او فرساً يركبها في مسيره.. ولكن مثله لا يطلب المال حتى يجده بين يديه.. عزيمة صادقة. وجنان ثابت . وصبر على المحن.. وطموح الى المجد يبدو على وجهه للناظرين اليه .. نعم يا حبى . ان المال سيكثر بين يديه عندما يسعى اليه .. وسترين !

قالت : لو حدثت غيري الآن لخيّل اليه ان ابن كلاب احد آلهة الكعبة وانت من عباده ..!!

قال : احترمه كما احترم البيت واحبه كما احب هبل ..

وانت ترى ان الاقدار تخدم حبى . لقد ارادت في تلك الساعة ، ان تعرف كل شيء فقالت له : لقد احببت فتىً صعلوكاً يجهله قومه . .

— : بل احببت سيد بني كنانة .

— : اذن فانت واثق بانه سيسود عشيرته .

فرفع عينيه الى العلاء وهو يقول : لقد قام في ذهني يا حبى انه سيمسي سيد الحجاز .. ثم هامسها قائلاً :

وعلى هذا الأمل سأجعل حبى زوجة له اذا استطعت .

فاحمر وجهها من الخجل ..

قـال : لقد رددت جميع النبلاء الذين ارادوا حبى لانفسهم . ولكني الآن امد يدي واسأل ذلك الفقير الصعلوك ان يكون لي صهراً ..

قالت : لا تفعل يا مولاي ..

— : بل سأفعل ورب الكعبة .. واثق بانك لا ترفضين .

قالت : وستعيرك العرب عندئذٍ بقولهـا : ان حاجب البيت الذي هو سيد السادات قذف بابنته الى حضيض الذل .

— : مـــاذا ؟

— : وتتناقل الافواه خبر هذا الزواج ويطمع الصعاليك ببنات الاشراف .

قال : سأفاخر العرب كلها بقصي .

— : وتقول لها انك طمعت بمظاهر المجد التي تحيط به . أتريد يا مولاي ان ترسلني الى بيت لا يملك صاحبه جملا ؟ انك اذا فعلت خرجت امارة الحجاز من يدك وخسرت حجابة البيت .

— : ومن يجسر على هذا ؟

— : بنو خزاعة انفسهم ثم تتبعهم عشائر مكة ومن والاها من قبائل الجزيرة.

— : ذلك رأي فاسد ..

- : بل هو الصواب كله ! أتطيق العرب وقد عرفت بالانفة والعز ان يزف اميرها بنته ، الى رجل ليس له في بلده منزل يأوي اليه ؟ ألم تستعر نار الحرب في الجزيرة ثلاثين واربعين لعلة مثل هـذه ؟ ومتى كانت العرب يا مولاي ترضى بالذل ؟

- : وأي شأن للعرب بما تقولين ؟

- : شأنها انك ترد السادات وترضى بالصعاليك .. لقد رفضت اشراف بكر بن عبد مناة واشراف صوفة . ورضيت بفتى جميل الوجه يقيم مع قومه في الشعاب والجبال كأن اولئك الاشراف لم يكونوا اهلاً لما سألوك اياه . وكأن ذلك الفتى افضلهم جميعاً واعظمهم نفوذاً وسلطاناً .

فضحك قائلا : اما فضلهم جميعاً فنعم .. انه ابن كلاب بن مرة الذي ينتمي الى عدنان بن اسماعيل فستكونين اذن زوجة رجل لا يدانيه بالنسب اشراف الحجاز الذين تذكرين ، واما اعظمهم نفوذا فورب البيت لا يمر هذا العام والعام الذي بعده حتى تري الخيل ببابه . وامراء العرب يفدون اليه كما يفدون الى ملوك اليمن وملوك الحيرة .. ثم قال :

والعرب يا ابنتي لا تعبأ بالمال . انها تنظر الى النسب العالي فتخضع له وتحني له الرؤوس .. ففكري فيما اقوله الآن .. واعلمي ان حجابة البيت – اذا ضمني القبر .. لا يحفظها لآل حليل إلا قصي.. ورب الكعبة، لقد رأيت نور السيادة والقوة يتلألأ على جبينه الوضاح .

فسكتت وهي تتظاهر بالرضى ثم قالت : أفعل ما تشاء يا مولاي ولكن لا تظهر رأيك هذا لأحد من الناس قبل ان يطلبني قصي .

قال : قد لا يجسر على هذا الطلب قبل ان امهد له أسبابه .

قالت : أتسأل الناس ان يتزوجوا ابنتك وانت امير الكعبة ؟

: وماذا أفعل ؟

قالت : اذا طلب اليك ان تزوجه فقد بلغت الغاية والا فالبقاء في بيت ابي خير من الحياة مع رجلٍ انا طلبته لنفسي .

فأحاط عنقها بذراعيه وهو يقول : انك يا حبى اميرة في كل شيء فليكن ما تريدين ..

ونهض الاثنان فتناولا الطعـــام . ثم انصرف كل منهما الى فراشه . وحبى تشكر القدر الطيب القلب . الذي جاد عليها بذلك الحبيب . وقضت ليلهـــا تفكر في قصي . وهي لا تعلم اذا كان ذلك القدر يجود باللقاء ..

* * *

- ١١ -

نام عبدالله ليلته على امل ان يعود في الصباح الى البحث عن صاحب القناع، وزياد وابوه يعلمان ان عبدالله لا يطيب له عيش الا اذا تمّ له مـــا اراد وعرف الرجل الذي انقذ زياداً .

وكان ليل ليلى كثير الاحلام . ونفسها التي لا يسعها صدرها الصغير ، تثور وتهدأ ، في كل ساعة من ساعات ذلك الليل الطويل الذي ليس له حد ، حتى بزغ الفجر ورأت بعينها طلائعه ، فخرجت الى احـــدى الشرفات تنظر نور الصباح ..

وبينا هي تسبح في فضاء كله تصور وخيال وغرام رأت رجلاً خارجاً من غرفة عبدالله وعلى كتفه جراب . وهو بلباس اهل نجد ، غير ان قلنسوته تشبه قلانس اهل العراق الذين اختلطوا بالفرس . وتحت القلنسوة غطاء للرأس كله الا الانف والعينين اللتين امتدّ على صدغيه منهما خطان من الكحل . فذعرت ليلى عندما رأته ، وظنت انه من اولئك الشذاذ الذين يدخـــلون البيوت ليلا ليسرقوا ما تقع عليه العين ، لكن الذعر لم يلبث حتى زال. فوثبت الى الداخل وهي تقول : لص في البيت يا عبدالله ، غير ان ذلك اللص لم يفر . بل وجّه

نظره اليها وجعل يتفرس في وجهها وهو ساكتٌ ، فقالت له وصوتها يرتجف :
الويل لك ايها الرجل .. من انت ؟
فاجابها قائلاً : عربي من نجد ثم من العراق كما ترين ..
وكان صوته هادئاً كأنه يخاطب اهل بيته .
— : وكيف دخلت قصر زياد بن كعب ؟
— : حملتني الجن في الهواء؛ثم قذفت بي الى الداخل ، فهمت بأن تدعو أباها والعبيد المقيمين في القصر .
فمنعها قائلاً : لا تستعيني بأحد فسأخرج كما دخلت ..
قالت : لعلك قتلت عبدالله ايها اللعين .
قال : لم امدّ يدي اليه ولست قاتلاً .
— : وماذا كنت تفعل في غرفته ؟
— : كنت أباحثه في بعض الشؤون ..
فكانت تختنق من مظاهر ذلك الهدوء ، ثم ابتسم الرجل قائلاً :
اتريدين ان تعرفي ايتها الفتاة ذلك الحديث الذي دار بيني وبين عبدالله ؟
— : اجل ، وفي هذه الساعة .
قال : كنت ادله على الرجل الذي يبحث عنه آل زياد .
— : وتعرف هذا ايضاً ؟
— : نعم كما اعرف ان ليلى التي تخاطبني الآن اكثر القوم اهتماماً بأمر الفتى الذي انقذ أباها من سيف جبير بن عبادة .
فصاحت قائلة : يا عبدالله .
فاجابها ذلك الرجل قائلاً : ماذا تريدين يا ليلى ؟
فجعلت تحدق اليه وتقول : الصوت صوت عبدالله نفسه ، فما هذا ؟
قال : اجل يا مولاتي هذا عبدالله نفسه لا زيادة ولا نقصان .
ثم نزع قلنسوته الضيقة وغطاء وجهه فعرفت ليلى ذلك الوجه ولم تنكر منه

الا ذينك الخطين الاسودين على صدغيه . فضحكت قائلة : أتهزأ بي ايها اللعين ؟

— : وماذا رأيت من مظاهر هذا الهزء ؟

— : القلنسوة العراقية وهذه الثيابّ ثم هـذا الكحل الذي تشبه به نساء يـــثرب ...

قال : رأيت الطواف في مكة ، بهذا الزي الجديد ، خيراً من اظهـــار وجهي للناس ..

— : وما معنى ذلك ؟

— : معناه اني لا استطيـع ان اتعرّف امر الرجل الا من وراء الستار .

— : اذن ستبحث عنه اليوم كما قلت .

— : نعم وقد قدمت من نجد لاشتري فرساً من افراس بني كنانة النازلين في الجبال .

— أي انك تسأل عن الفرس ذات الهلال الابيض ثم تعرف صاحبها . انها حيلة لا بأس بها يا عبدالله . ولكن أين يجعل القوم خيلهم ؟

— : ان مرابطها في الجبال وانا اعرفها من قبل .

— : ولكنها تخرج الى المرعى كل صباح .

— : ورأس زياد لو ارسلوها الى الشام للحقت بها باحثـاً عن الفرس ذات الهلال . ثم حجب وجهه ولبس قلنسوته وهامسها قائلاً :

ماذا تعطيني يا مولاتي اذا وجدت الفتى ؟

قالت : سل أبي يعطك ما تشاء . اما انا فلا اعبأ بوجوده الا لأمر .

— : ما هو ؟

- : هو ان يجزيه ابي على ما فعل .

فتمتم يقول : وهذا القلب الخفاق الذي اسمع ضرباته ؟

فمدت يدها الى اناء من نحاس امامها لتضربه به ؛ فركض كما يركض الفتيان وتوارى في ذلك الدهليز الطويل الذي ينتهي بالباب ، فقالت في نفسها : اذا

وجد عبدالله الفرس فقد وجد فارسها وانتهى الأمر . ولكن .. يجب ان أراه كما رأت حبّى ذلك الشامي .

ومشت الى غرفة جدها تقص عليه ما رأت . ثم استيقظ زياد واجتمع الثلاثة في حجرة الشيخ يذكرون حيلة عبدالله ويضحكون .

* * *

عندما طلعت الشمس ، كان عبدالله في شعاب مكة يطوف حول مضارب القوم . وهو ينظر الى الجهات الاربع كأنه يفتش عن شيء ، وليس في المضارب الا الشيوخ والغلمان والنساء .. ان القوم جميعهم في مكة وقد يعودون منها بعد ثلاثة أيام ، ولم يجد خيلاً كأن الخيل مع القوم ، فرأى ان يسأل احد الغلمان عما قدم لأجله .

وكانوا قد رأوا بينهم غريباً فأحدقوا به يسألونه عن عشيرته وعن غرضه فقال لهم :

جئت أرى الخيل في هذه الجبال فقد قيل لي انها اكرم خيل العرب .

: وما هي غايتك ؟

: غايتي ان اشتري فرساً منها لمولاي .

- : ممن انت ؟

: من تميم ..

: ومن هو مولاك ؟

: عاصم بن سعد ..

- : وهل ماتت الخيل في نجد فلم يجد مولاك له فيها فرساً ؟

قال : قدم مكة حاجاً ومعه فرسان سرق احدهما ووهب الآخر لرجل من هوازن ..

فقالوا : ان مولاك من الاجواد ولكن الخيل في قعيقعان « أعلى مكة » وأصحابها في حرم البيت ، فان شئت فاشترِ فرساً من حي بني بكر .

قال : لقد وصفوا لمولاي خيل بني كنانة .

– : وبنو بكر بن عبد مناة من بني كنانة ايضاً .

– : اذن اعود وانقل اليه ما سمعت ، فقال عندئذٍ احد الشيوخ :

ألا يعلم مولاك ان قومنا لا يتركون البيت قبل ان تنصرف قبائل العرب من مكة ؟

– : قيل له انهم يبيتون كل ليلة في الشعاب . ثم خاف ان يفسدوا عليه امره . فحمل جرابه وشكر الذين حوله وانصرف . ولكنه لم ينزل الى مكة ، بل مشى يريد قعيقعان ، وعلى سطح ذلك الجبل رأى طوائف الخيل .

فجعل يتفرس في الافراس الحمر والغلمان ينظرون اليه وقد اعجبتهم قلنسوته وثيابه .. حتى رأى ذات الهلال الابيض . فابتسم ابتسامة خفية ثم قال :

لمن الخيل ايها الفتيان ؟

– : لاعز اهل الحجاز .

قال : اعز الناس في الحجاز بنو كنانة ..

– : احسنت فماذا تشاء ؟

قال : أتبيعون ؟

فقال فتىً منهم : ويلك اسمعت بين العرب ان خيول بني كنانة تخرج من الشعاب ؟

– : وماذا تفعلون بها وهي طوائف لا تعدّ .

– : نبيع العاجز ليس غير .

قال : ورب الكعبة أدفع ما في هذا الجراب ثمناً لهذه الفرس . لمن هذه ؟

– : لأحسن الفتيان وجهاً واعزهم نفساً ، لصفوان بن الحارث .

– : صفوان بن الحارث ؟ .

– : نعم . ذلك الذي يبيع نفسه كما يباع العبد ولا يبيع فرسه . أتعرفه ؟

– : اني غريب ولا اعرف في مكة احداً .. والآن قل لي . أيبخل صفوان بفرسه . على رجل يدفع له ما يطلب من الذهب ؟

قال : لو كان صفوان حاضراً لما كنت تجرؤ على الطلب ، انه لأجل هـذه الفرس ، ضرب رجلاً من بني اسد بالسيف فقطع يده فهو يعيش بيد واحـدة الى الآن .

وكان عبدالله يريد ان يسمع من ذلك الغلام صفة صفوان فقـال له : وكيف كان ذلك ؟

قال : ذهب صفوان الى خيبر يشتري من اهلها اليهود بعض النوق، فتصدى له الاسدي وسأله ان يركب فرسه ساعة ، فأبى فاستعطفه فلم يرض ، واسمعه ما لا يحب . فأهوى له الاسدي بسيفه فجرح ابهـامه ولكن اليد التي ضربه بهـا طارت عندئذ في الفضاء ..

فقال عبدالله في نفسه : هذه صفة الفتى الذي احبته ليلى .

ولكنه ظل هادئـاً كأن امر صفوان لا يعينه . وقد اراد ان يسترسل في الحديث ليعرف الباقي فقال: عجباً..يحتفظ صفوان بفرسه كأنها باقية الى الابد.. افلا يخشى ان تموت فيخسر المال الذي يعرض عليه .

فضحك الغلام قائلاً انه يملك من الخيل مـا يملكه ملك العراق .. انظر الى هذه الافراس التي ترعى وراءك .. انها مع الامهار التي حولها لصفوان .

– : اذن هو سيد القوم ..

قال : لقد بلغ من عز كنانة انهم لا يجعلون لهم سيداً . كل فتى من فتيانهم سيد نفسه .. ولكنهم رأي واحد في الحرب والسلم . لا ينامون على عار ، ولا يصبرون على ذل .

– : ذلك شيء غريب في العرب ..

– : واغرب منه أن الواحد منهم يطيع الآخر كأنه ولي امره .

– : واين يوجد صفوان اليوم ؟

– : مع قومه في مكة ومعه فرسه « المرحة » ، انه كان يركب هذه الحمراء

كلما هبط مكة غير انه اهملها في هذا العام كأنها ليست له واذا ركبها ففي هذه الجبال وفي الاسفار ..

وذلك دليل جديد على تحجب صفوان ..

واستطرد الغلام قائلاً : ولصفوان شمائل طيبة تعرفها بطون كنانة واحياؤهم منها انه يهب هذه الأفراس كلها لمن يطلب احسانه دون ان ينفخ امامه بالبوق . يطعم الجائع ويغيث المظلوم ، ويقذف بنفسه الى اشداق الموت لينقذ الصعلوك الضعيف وهو في كل ما يفعل متحجب لا يظهر للناس جوده ولا يفاخر احداً في عزة نفسه . ولعل ابغض الاشياء اليه ان يذكر له الفضل او يشكره احدهم على معروف .. وهذا دليل آخر سمعه عبدالله ، فقال : وهل الحارث حي ؟

— : لا ، فقد مات الحارث بن شجنة منذ خمسة اعوام وليس له من الولد غير صفوان ..

— قال : يخيل الي انك من غلمانه ..

— : لا ! فغلمانه اولئك الجالسون على هذه الصخور .

قال : وددت لو اني من غلمانه .. ان هذه الشمائل شمائل اهل الجنة .. صفه لي ايها الفتى .

قال : أصفه بكلمة واحدة لا أقول غيرها هي ان صفوان بن الحارث فتنة الناظرين ..

— : ومن تكون زوجته ؟

— : لم يتزوج وقد جاوز العشرين .. فرأى عبدالله ان ينصرف بعدما عرف كل شيء. لكنه قال قبل ان يحول وجهه : اذن ليس عندكم من الخيل ما نشتريه.

— : لا ..

قال : لولا الحنين الى نجد لجعلت نفسي عبداً للفتى الذي وصفت .

وأخذ ينظر الى الجانبين كأنه يبحث عن الطريق ، فدله الغلام وعبدالله يبتسم في سره ولا يصدق متى يصل الى مكة لينقل الى ليلى خبر صفوان ..

* * *

قضى الناس مناسكهم ثم انصرفوا الى بلادهم .

وقد عرف بنو كنانة ان قصياً الذي نشأ في حضن امه في ارض الشام، ضيف زهرة اخيه ، فاقبلوا يرحبون بالكناني الذي لا يعرف قومه ويسألونه عن بني قضاعة الذين ترعرع في ظلهم : وقد استولى عليهم العجب عندما رأوه ..

لم يكن في كنانة مثله في فصاحة اللسان وادب المجلس وجلال منظره وهيبته التي هي هيبة الملوك..حتى ان شيوخهم وساداتهم كانوا ينظرون اليه كما ينظرون الى حليل بن حبشية حاجب البيت.. وهم يعلمون انه الفتى الفقير الذي حمله احد بني قضاعة الى مكة على ناقة له . وقد بلغ بهم الاعجاب انهم عرضوا عليه النوق والمال ليصلح امره ويتخذ له منزلا بينهم !

اجل فعلوا ذلك عندما رأوه وحدثوه كأن السماء اوحت اليهم بانه سيكون سيد الحجاز .

وكان الفتيان النابهون في الحي اكثر القوم اعجاباً به وبعذوبة حديثه وهم يرون من اعماق انفسهم انهم اتبـــاع له .. انه سر من اسرار الطبيعة لا تدركه العقول .. الناس في كل زمــان ومكان يبنون مجدهم عـــلى مر السنين بالسيف والمال وقصي بن كلاب ذلك الفتى العاجز الغريب الجاهل نسبه ، بنى له في اول مجلس من مجالس قومه منزلة في الصدور لا تزول .

ذلك فعل الخلق النبيل الذي هو ابلغ من السيف والذهب .

فلما انفرد الاثنان زهرة وقصي بعد انصراف الناس جعلا . يتحادثان وزهرة يرى ان لهذا الاخ الصغير سلطاناً عليه يشبه سلطان ابيه ..

وكان همّ قصي ان يدرس احـــوال البيت الذي يعظمه العرب . واسرار حاجبه وعاداته،والتقاليد التي تتبعها العرب في العبادة والدين ، بل لم يكن همه الا ان يستولي على الحجاز .. والاستيلاء على ذلك القطر لا يتمّ له الا اذا كانت له الكعبة .

لقد خرج من الشام وهو لا وطن له . ولكنه اقسم لامه قبل ان يقدم مكة انه سيجعل الوطن الذي تطأه قدماه ملكاً له . لا يقيم فيه عربي الا باذنه .
والكعبة وحدها طريقه الى العلياء .

هي قدس الاقداس عند العرب من دخلها كان آمناً ولو طلبته الملوك . ومن احدث في بلد حدثاً ثم لجأ اليها فقد نجـــا . سادات العرب وامراؤها يعظمون البيت . والناس كلهم يخضعون لذلك القائم ببابه يفتحه ويغلقه ساعة يشاء .. وعلى قصي كما قرأت ان يعرف كل شيء ليكون قادراً على شيء . انه حلم لا يعلم اذا كانت تضمحل صوره عندما يستيقظ .. فقال لأخيه : لقد قيل لي ان عمراً اول ملوك خزاعة ، اول من جعل الاصنام على الكعبة . فهل تعرف هذا ؟

— : نعم وهو اول من عبدها فاطاعته العرب وعبدوها معه .

— : وكيف كان ذلك ؟

— : أتعرف تلك الأرض وكنت اذهب اليها مع ربيعة بن حرام .

قال : سار اليها عمرو بن لحي بعد فتحه مكة بعامين فرأى فيهـــا قوماً يعبدون الاصنام فسألهم عنها فقالوا : هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية . نستنصر بها فننصر ، ونستشفي بهـــا فنشفى ، ونستقي بها فنسقى ، فاعجبه ذلك فطلب منهم صنماً فدفعوه اليه وسار بـه الى مكة فوضعه على الكعبة .

— : وذلك هو هبل .

— : أجل . هبل كبير الآلهة واستصحب ايضاً صنمين يقال لهما اساف ونائلة هما اللذان تنحر امامها الذبائح كما رأيت .

— : ومنذ ذلك الحين عرفت مكة الاصنام ..

— : نعم فقد دعا العرب الى تعظيمها والتقرب اليها فأجابوه .

قال : وفي الكعبة اموال يا زهرة ؟

قال : فيها من المال ما يشتري الجزيرة وليس في بلاط ملك مـا في الكعبة

من متاع وذهب .

— : وكل ذلك من العرب ؟

— : من العرب ومن الفرس .

فهزّ رأسه قائلا : اتعظم الفرس البيت ؟

قال : كانت الفرس في الزمان الاول تهدي الى الكعبة الجـواهر والاموال وقد أهدى ملكها ابن ساسان بن بابك غزالين من الذهب .

— : وقيل لي ان فيها السيوف المحلاة بالذهب والفضة ..

فاجابه قائلاً : أتعرف صاحب هذه السيوف ؟

— : لا .

— : انه ابوك كلاب بن مرة .

فاشرق جبين قصي . . ان لأبيه فضلاً على البيت وهو يجهل ذلك . ثم قال : من يعترف بما تقول ؟

— : يعترف به سادن الكعبة نفسه وتعترف به العرب ، فأبي اول من علق في الكعبة السيوف ذخيرة لها .

— : اذن فلبني كنانة شأن في مكة .

قال بمرارة واستخفاف .

فقال : لهم ما لغيرهم من اهلها فدع عنك هذا الآن .

قال : اني لم اخاطبك الساعة الا لأقول هذا اتظن ان الأبي يرضى بما رضيتم .

فاراد زهرة ان يداعب اخاه . فقال :

ألسنا أعز القوم في الحجاز ؟

— : بلى ولاجل هذا لا تجسرون على ان تبنوا في مكة بيتاً تأوون اليه !

— : ذلك لاننا نحترم بيت الله .

— : بل لانكم تخافون ان يطردكم بنو خزاعة .

— : ولماذا لم يطردوا ابناء عمنا بني بكر بن عبد مناة ؟

— : لانهم حالفوهم كما ذكرت لي من قبل . انكم وحدكم تحترمون البيت

فلا تبنون بجواره منزلاً . قلت لك منذ ثلاثة ايام انكم القوم الذين ينامون عـلى الهوان . والا لكانت لـكم حجابة البيت نفسها قبل كل شيء .

قال : رضينا بالحال التي تركها لنا كلاب بن مرة وكان عظيماً في قومه .

— : كان عظيماً عندكم وضعيفاً عند الآخرين .

— : انه ابوك يا قصي .

— : اجل وقد صرعه القضاء وانا صغير فلم اعرفه ولكني لو كنت في العشرين من عمري كما كنت انت يوم مات لأغمض عينيه وهو يرى بهما مجد بنيه وعشيرته يملأ الجزيرة ..

قال : كان أبي يبغض الحروب لأجل هذا ولم يشأ ان ينازع خزاعة السلطان خوفاً من ان يسقط الحجاز في اتون النار ..

— : أكان يقول لك ذلك ؟

— : نعم وقد اكتفى بان تكون النسأة لنا وهي من اعظم المناصب وصاحبها سيد الحجـــاج . الا تذكر ما يقوله القلمس الكناني للعرب اذا هموا بالصدور مـن المـوسم ؟

— : لا .

قال . يقوم فيخطب قائلاً :

لا مرد لما قضيت ، انا الذي لا اعاب ولا اجاب ولا يرد لي قضاء . فيقول له الناس : لبيك . ثم يسألونه ان ينسئهم شهراً يغزون فيه فيقول :

« ان صفر العام حرام » فاذا قال ذلك حلوا الاوتار ونزعوا الاسنة . وان قال حلال عقدوا الاوتار واغاروا ، وفي هذا يا قصي من العز والسؤدد ما فيه ، والقلمس اول من نسأ الشهور على العرب ..

قال ذكرت الآن ابن عمنا الكناني .. وماذا يقول سيد صوفة عندمـا يجير الناس ؟ أعد عليّ قوله فقد نسيته ..

قال : يتقدم الناس على حمار ثم يقول :

« اللهم اصلح بين نسائنا وعادِ بين رعائنا . واجعل المال في سمحائنا، اوفوا

بعهدكم واكرموا جاركم واقروا ضيفكم ، ثم يقول : اشرق بشير كيما نفير؛ ثم ينفر ويتبعه الناس » .

قال : انك تحفظ القولين يا زهرة وهذا كافٍ ..

– : ولو كنت انت في مكة في الزمن الذي مرّ لحفظته ورددتـــه كما اردده الآن ..

– : بل لو كنت في مكة لحفظته لكي اقوله للناس في عرفة ، وقبل الصدور من الموسم ، أفهمت ؟

– : اي انك كنت تنسأ الشهور وتجير الحجاج ؟

– : نعم فلا يخطو احد من العرب خطوة الا اذا اردت .

– : ذلك كثير يا قصي ..

– : انه اقل مما انا اهل له . فاصبر يا زهرة .. اصبر .. ورب البيت الذي نعبد لا يمر بعض الاعوام حتى ترى الحجاز خاضعاً لي .

قال : كنت امازحك الساعة ، اما الآن فارجو ان تجيبني عما أسألك .

– : سل عما تشاء .

– : بأي شيء تخضع الحجاز ؟

– : لا استطيع ان أقول الآن كلمة ..

– : بل تقول وتذكر لي هذه القوى التي تسود بها العرب ؟

– : بهذه الإرادة الحديدية وبالدهاء ثم نستعين بالسيف ..

قال : اراك تستهين بالقوم وهم اصحاب الامر.. ان سيوفهم اطول من سيوفنا ومالهم اكثر من مالنا ، ورجالهم رجال الشدة والحرب .

فضحك وهو يقول: اذا كانوا أعظم شأناً في كل ما ذكرت فلا نجرد السيف.

فعاد زهرة الى المزاح قائلاً : يخيل اليّ اني أراك بباب الكعبة تأذن للناس في الدخول . وارى مـــلوك كندة وغسان وامراء الجزيرة يحنون رؤوسهم في الدخول والخروج ويظهرون للقائم بأمر البيت قصي بن كلاب ..

— : انا أرى هذا التصور الذي تسخر مني به سيمسي حقيقة تلمسها بيدك وينظر اليها أهل الحجاز باعجاب .. انك يا زهرة من سادات القوم واشرافهم ولكنك راض بما قسم لك الزمان .. اما انا فلست راضياً .. سأطلب المال ولو في الفضاء . وسأذهب الى اليمن والى العراق والى الشام . حتى يصبح بين يديّ منه ما يكفيني فلا امد يدي الى احد . وبعد ذلك .. انظر في الامر الذي استرجع معه مجد آبائي . وأجعل الحجازي سيد نفسه فأعيد اليه امارة البلد الذي يقيم فيه منذ اجيال ..

— : ونسيت الزواج ؟

— : لا لم انس . ولكنها فكرة قبل أوانها الآن . ما رأيك في الفتاتين اللتين رأيناهما ؟

— : لقد ذكرت لك ما يجب ذكره في هذا الشأن .

— : لم تذكر لي الا ان بنت سادن الكعبة اكبر سناً من الأخرى ، وهذا لا يكفي .

— : اذن فاعلم ان ليلى اجمل وجهاً من حبّى .

— : ليلى بنت زياد ؟

— : نعم والاثنتان خير نساء العرب ..

قال : لم افكر قط في النظر الى جمال الوجوه ..

— : وللفتاتين الادب العالي والخلق الكريم وذلك ما تقوله عنهما نساء الحي .

— : هذا حسن .. فلنترك اذن بنت زياد وخبرني بما تعلم عن بنت حليل .. ألم تقل انها ليست مخطوبة ؟

— : بلى وقد خطبها الكثيرون فلم يزوجها حليل كما علمت ..

— : اذكر لي سبباً من اسباب الرفض .

— : لا أعرف شيئاً عن هذا . ان حاجب البيت من صف الملوك وقد لا يزوج بنته الا الملك ..

— : اذا كان ذلك فانا بدون تاج ..

فقهقه زهرة وقال : وقد يكون الأمر غير ما ذكرت ، يقولون ان الامير لا يزوج الا من ترغب بنته فيه .. فبرقت عيناه قائلاً : لقد اعدت الى الصدر الآن ذلك الامل الذي كاد يضيع ..

– : ولكني لست واثقاً بما أقول .. افلا يجوز ان تكون الكبرياء وحدها هي التي تملي على حاجب البيت ذلك الرفض ؟

فاطرق قصي ..

فقال اخوه : اتفكر في حبى ؟

– : اجل فكبرياء سادن الكعبة من هذه الناحية لم تخطر لي ببال .

– : أذن فانظر في امر الزواج من الناحية الاخرى ..

– : وماذا تعني ؟

– : اعني انه إذا كانت حبى تريد ملكاً وانت لا تستطيع ان تكون ذلك الملك ؛ فاخطب ليلى ..

وارتفع صوت زهرة بالضحك .

فاجابه قصي وهو هاديء كأنه لم ير دلائل الاستهزاء على وجه اخيه ، أرأيت يا زهرة اني راغب في الزواج الى حد ان تعد لي نساء مكة حتى تعجبني واحدة منهن ؟

وماذا اذن ؟

قال : كنت في الشام ولم افكر في الزواج ؛ ولكني عرفت فجأةً وانا معك امام الكعبة ان امارة الحجاز لا تصبح في يدي الا اذا تزوجت ..

فحدق اليه ولم يفهم شيئاً ..

قال : ايحيرك هذا القول ؟

– : نعم انه لغز لا يدركه العقل ، أفلا يستطيع الرجل ان يسود الحجاز الا اذا تزوج ؟؟

فخفض صوته قائلاً : لا يصبح قصي بن كلاب سيد العرب الا بعد زواجه ..

– : كأن للحجاز باباً عليه طلسم الساحر فلا يفتحه الا المرأة ..!!

— : أجل وتلك المرأة التي تفتحه هي حبّى .. أفهمت الآن ??

وكأن زهرة اصيب بالذهول في تلك الساعة فلم يرَ ما رآه أخوه ، فقال : حدثني بجلاء .

— : ألم تقل لي ان لسادن الكعبة ولداً يدعى المحترش ?

— : بـــلى ،

— : وانه جهل قدر حجابة البيت فلم يعبأ الا بالخمر ?

— : نعم ..

— : اذن فقل لي الآن الى من تنتهي هذه الحجابة بعد ان يموت حليل ?

— : الى المحترش نفسه فهو الوارث ..

— : ولكن السكران الذي لا يصحو لا يقدر ان يسود الناس ..

— : وماذا يحدث عندئذ ?

— : يحدث ان الطامعين بالامارة ينازعون المحترش اياها وهو أضعف من ان يتصدى لهم فتخرج من يده الى الحزب الأقوى ولا يجد وراءه من ينتصر له ..

— : غير ان العرب لا ترضى بأن تخرج الامارة من سلالة حليل وتلك عادتهم في الدفاع عن صاحب الحق ..

قال : ذلك وهمٌ لا احب ان يقوم في ذهن زهرة بن كلاب ، ألم تكن جرهم صاحبة الامر فأخرجتها خزاعة من مكة بحد السيف ?? ان شيوخ قضاعة قصّوا عليّ هذا وهم يقولون انه لم يقم في العرب من يمنع الفاتح الخزاعي عن ذلك .

— : ومعنى هذا ?

— : معناه ان السيف وحده صاحب السلطان الذي لا يرد .

— : وكيف تحفظ حبّى ما يعجز المحترش عن حفظه ?

— : بقوة ذلك الرجـل الذي ترف اليه وقوة قومه اذ يصبح شريكاً لآل حبشية في الدفاع . وذلك الرجل الذي يمنع الناس من الوصول الى الحجـــابة هو انا . . !!

ثم قال :

إذن لست راغباً في الزواج طمعاً بالمرأة ، بل طمعاً بحبى وحدها التي تسلم اليّ مفاتيح الكعبة وقد يعطي المحترش اياها بملء رضاه. افلا تسلم الآن بالنظر في امر ليلى بنت زياد ، قضية خارجة ليس لنا فيها شأن .

— : سلمت بكل ما تقول ولكني لا أعلم كيف تكون لك بنت حليل وقد تقدمك الاشراف فلم يبلغوا الغاية .

— : اما انا فسأعلم بعد حين ، خبرني يا زهرة بما تعلمه عن أحوال العرب وعاداتها .. اني اريد أن أعرف كل شيء .. أي ملك يأخذ خراج العرب ؟.

قال : كان خراج الجزيرة في الزمن الماضي لليمن ثم امسى بعضه لملوك الفرس، اما اليوم فقد تمتنع بعض القبائل عن دفع هذا الخراج عندما تستطيع فتستعر نار نار الحرب . ثم تخمد .. ثم تعود كما هي الحال في جميع الامم .. العصيان نتيجة القوة . وقد يكون نتيجة الغرور .. والخضوع نتيجة الاستسلام والضعف .. وانت تعلم ان العرب لو اجتمعت لما دفعت من مالها لاحد درهماً .. الضغائن والدم والثأر تفرق شملها وتبعد العشيرة عن العشيرة والحي عن الحي .. خراجهم يأخذه الآن مولاك اليمني وعمال الفرس ملوك الحيرة ليبعثوا الى بهرام جور بحصته منه . ان هذا الملك الفارسي عظيم القوة بعيد النفوذ لا يلبث حتى يستولي بفضل اللخميين على معظم الجزيرة .

— : وملوك اليمن ؟

— : انهم في قمة السؤدد والسلطان ..

— : وقبائل الحجاز تدفع مالا ؟

— : نعم الا بعضها . اما مكة فليس لأحد الملوك ان يطمع بمال أهلها .

— : ألا تدفع مكة خراجاً ؟

— : لا . انها لقاح لا تدين لملك ولم يؤدِ اهلها خراجاً قط لملوك الاقطار ..

قال : لم أرَ بين الحجاج وفداً من اليمن ..

— : ان أهل اليمن يحجون ولكن ملوكهم لم يفعلوا .

– : لمـــاذا ؟
– : لأن عندهم اصناماً يعبدونها في بلادهم .
قال : وفي بعض احياء العرب بل في البيوت أصنام كثيرة يحجّ أصحابها البيت ..؟
– : انهم يفعلون ذلك تعظيماً للكعبة .. يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون. فاذا أرادوا الانصراف اخذ الرجل منهم حجراً من حجـارة الحرم فنحته على صورة الاصنام وجعله قبلة له في طريقه يطوف حوله ويتمسح به ويصلي له تشبيهاً له باصنام مكة .. !

قال : وقد يفضي الامر بهم الى ان يأخذ الرجـل من الحرم حجراً فيعبده في منزله ..؟
– : لك ان تظن في هذا المعنى ما تشاء . فقد بلغ من تعظيمهم البيت ان العربي يطعن بخنجره عربياً آخر فيقتله على قدمي هبل فلا يرتفع لأهـــل القتيل صـوت .
– : ولكنهم يثأرون بعد ذلك ..
– : نعم والثائر مقدس لا يسكت عنه الا" الانذال الذين يخافون على انفسهم ولا يحترمون الدم المسفوك .
قال : تلك عادة اعرفها كما تعرفها انت .. اذكر ما لم تذكره لي قضاعة في الشام .
– : سل يا قصي .
– : ذكروا لي عادةً لم أرها في أحياء قضاعة ولم اصدق انها توجد في العرب . ما هي ؟
– : يقولون ان الرجل منهم عندما تولد له بنت يدفنها وهي حية ..!
فاصفر وجه زهرة ولم يجب، لكن قصياً لم يرَ ذلك الاصفرار ، فقال ! أكان ذلك صحيحاً ؟ فتمتم يقول ! نعم ..
– : وكيف يفعلون هذا ؟

فتنهد زهرة قائلاً : لا تسألني عن ذلك يا قصي .

– : لمـــاذا ؟

– : لأني كلما ذكرت الوأد امتلأت نفسي ألماً ..

فأحسّ قصي كأن سهماً أصابه في قلبه . ان لهجة أخيه لهجة والد دسّ بنته في التراب عندما ابصرت هذا الوجود .. فقال له :

أكانت لك بنت قبل « سودة » ؟

– : لا ،

– : وهل ولد لك غيرها بعدها ؟

– : لا ..

– : اذن لماذا طلبت الي ان أكف عن السؤال ؟

– : لان سودة نفسها وضعت في التراب ثم نجت من الموت ..

قال : أفعلتها ؟

– : نعم واني الى هذه الساعة اذكر ما جرى وأذوب ندماً .

قال : ان لسودة نظراً ورأياً . وعندما حدثتها امس رأيت الحكمة كلها في ذلك الحديث .

– : انها كاهنة الحي يا قصي « وهي المعروفة بكاهنة قريش » .

– : مثلها يصلح للكهانة وسأستشيرها في جميع الامور منذ الآن .. وهل ولدت كسحاء كما هي ؟

– : اجل ولولا هذا العيب لما فكرت في وأدها وليس لي سواها ..

ثم قال : ان للعرب مذاهب مختلفة في الوأد بعضهم من يئد من البنات من كانت زرقاء او سوداء او كسحاء او بها برص ، تشاؤماً منهن بهذه الصفات ..

– : وانت يا زهرة من هذا البعض .. !

– : نعم ولكن لن أدع أحداً من أهلي يفعل ذلك بعد الآن .

– : وكيف نجت سودة من الموت ؟

قال : « ارسلتها مع الحافر الى الحجون ، وأمرته بأن يدفنها هناك . فلمـــا

حفر لهـا وأراد دفنها سمع هاتفاً يقول : لا تئد الصبية وخلها . وأعاد القول . فرجع اليّ فخبرني بمـا سمع ، فقلت : ان لهـا لشأناً وتركتهـا فكانت كاهنة القوم كما رأيت .. »

— : ومذاهب الآخرين ؟

— : اما مذاهب الآخرين فكثيرة . منهم من يئد البنات للغيرة ومخافة ان يلحق العار بهم من اجلهنّ وهم بنو تميم وكندة وغيرهما .

— : وما هو السبب في ذلك ؟

— : ان بني تميم امتنعت عن دفع الخراج لملك الحيرة ، فجرد عليهم أخاه مع كتيبة له معظم رجالها من بكر بن وائل. فاستاق نعمهم وسبى النساء. فوفدت وفود القوم على الملك العربي وكلموه في النساء ؛ فحكم الملك بان يجعل الخيار في في ذلك اليهنّ فأية امرأة اختارت زوجهـا ردّت اليه . فاختلفن في الخيـار .. وكانت فيهن بنت لابن عاصم . فاختارت سابيها على زوجها فلحق بتميم العار من اجل ذلك . ولهم نظرة جديدة في أمور البنات اللواتي يولدن .

— : اي انهم اضمروا لهن الموت .

— : اجل ونذر ابن عاصم ان يدس كل بنت تولد له في التراب فوأد بضع عشرة بنتاً .. ويقولون ان ربيعة اول قبيلة وأدت بناتهـا . فكانت الحـامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرةً فمخضت على رأس تلك الحفرة فـاذا ولدت ولداً حبسته . ! ومنهم من يئد بنته في سنتها السادسة فيقول لامها : طيبيها وزينيها فتفعل . ثم يذهب بها الى بئر حفرها في الصحراء حتى اذا بلغها يقول لها : انظري فيها . ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالارض .

قال : لقد صدق الرواة الذين نقلوا اليّ هذا .

قال : وللوأد حوادث كثيرة واخبار لا اريد ان اذكرها فذكرها يبعث الكآبة الى النفس .

— : وقيل لي انهم يقتلون اولادهم خوف الفقر .

— : اولئك هم الصعاليك الذين لا يملكون شيئاً .

قال : عجباً أفلا يوجـد في العرب من يطعم هؤلاء الصعاليك ويكسوهم ويبعد عن أولادهم الموت ؟

— : بلى في كل عشيرة انصار للمعوز والمحتاج . والكثيرون من عقلاء العرب واشرافهم لا يرضون بأن يئد العربي بنته فهم يفتدونها ويكفونه مؤونتها .

— : هكذا يجب ان نفعل نحن بني كعب بن كنانة . ان الانسان لا يدفن اخاه الانسان وهو حي . فاذا اخطأت واحدة من النساء فليس من العدل ان نقتل بتلك الخطيئة جنسهن جميعه . واما ذلك الذي يقتل بنته خوفاً من ان تجوع فهو الجبان الذي تشبه نفسه نفس الثعلب . ما وراءك ايضاً ؟

قال : أعرف عادات العرب ومفاخرها كلها فما عليك الا ان تسأل .

قال : لنبحث الآن وقبل كل شيء عن المال . اني بحاجة اليه كما ترى وليس لي ان اخطو خطوة الى الامام قبل ان يجتمع لديّ منه ما يكفي . قصّ عليّ ما تعلم عن اسواق العرب التي يكثر فيها البيع والشراء .

— : أأذكر لك القريب منها ام ماذا ؟

— : بل اذكرها كلها فقد ننتقل من هذه السوق الى الاخرى في عام واحد نبحث عن الذهب ..

قال : ينزلون دومة الجندل اول يوم من ربيع الاول والبيع فيها بيع الحصاة

— : وكيف ذلك ؟

— : « يقول احد المتبايعين للآخر : ارمِ هذه الحصاة فعلى اي ثوب وقعت فهو لك بدرهم » .

— : اذن يعود ذلك الى الحظ .

— : نعم وقد يقول : « اي شاة اصابتها هـذه الحصاة فهي لك بكذا » فبيعهم هذا شبيه بالقمار من كل وجوهه ، ولكن للربح لا للمفاخرة .

قال : وأسألك عن القمار لأرى اذا كان كما هو في الشام .

قال : لم نذكر الاسواق بعد « ان دومة الجندل تقوم سوقها الى نصف الشهر

وقد تطول الى آخره . ورؤساؤها بنو كلب » وسوق هجر : « اسم لجميع ارض البحرين ينتقلون اليها في شهر ربيع الآخر ويتولى امرهم بنو دارم » ، وسوق المشقر « في البحرين » تقام من اول جمادى الاخرى، والبيع فيها بالملامسة والايماء » .

— : وعلى أي وجه ؟

— : « على أنواع كثيرة؛ فقد يؤتى بثوب مطوي او في ظلمة فيلمسه الطالب ويقول له صاحب الثوب :

بعتكه بكذا بشرط ان يقوم اللمس مقام النظر ولا خيار لك اذا رأيته » ، وسوق الشحر بين عمان وعدن في ساحل البحر وبيعها يشبه البيع في دومة الجندل ، وسوق ذي المجاز القريبة من مكة وهي على فرسخ من عرفة واصحابها بنو هذيل . واعظم المواسم كما تعلم موسم عكاظ .

« لقد ذكرنا بعض هذه الاسواق في روايتنا السابقة » .

قال : اما عكاظ فقد عرفتها هذا العام ولكني لم أسألك عما رأيته فيها من تحجب بعض الرجال . رأيت الرجل يلف بعمامته معظم وجهه وينزل السوق .

قال : لذلك أسباب يجب ان تعرفها . ان كل شريف في العرب انما يحضر سوق بلده ليس غير ، الا سوق عكاظ فانهم يفدون اليها من جميع الاقاليم هذا له اسير يسعى في فدائه . والآخر مظلوم يشكو الى سادة السوق امره . وهكذا على اختلاف الغايات والحاجات .

فقاطعه قائلاً : من هم سادة عكاظ ؟

— : بنو تميم والحكومة لهم . فاذا اجتمعت العرب في السوق اجتمع العدو بعدوه واهل القاتل بأهل القتيل . فيغلي الدم وتستيقظ الضغائن ثم تجرد السيوف وتستعر نار الحرب .

والثأر لا يموت يا قصي كما علمت فاذا هاجت الصدور تحولت السوق الى ميدان تبارز فيه الفرسان ، واصبحت تلك الساحات بحراً من الدماء تغوص فيه رجال العرب واشرافها فيجرفهم تيار الموت الى الفناء .

فعرف قصي الغاية من ذلك التحجب فقال :
ولأجل ذلك لفّوا العمائم كي لا تبين الوجوه .
- : نعم فقد يساوم القاتل ابن القتيل وهو لا يعرفه .
- : ولكن قد يعرف احدهما الآخر بصوته .
- : « أجل ولذلك عمدوا الى وسيلة اخرى يخفي بها الرجل صوته ، عندما تحضر ساعة الخطب والشعر . يقوم الى جانب الخطيب او الشاعر رجل يسمّونه المبلّغ ينقل الى الناس ما يلقنه اياه صاحبه » .
- : وهذا لا يمنع سوء العاقبة .
- : صدقت ، فلما رأوا ان هذه الوسائل لا تكفي دفعوا سلاحهم في عكاظ الى نبيل منهم حتى يفرغوا من السوق والحج ثم يردها عليهم .
قال : والقمار ؟
- : انه على قياس واحد هنا وفي الشام .
- : وهو احدى المفاخر يا زهرة .
- : نعم ، ولا يقامر الا الغني الأبي الجواد . يجيء عشرة من أهل الثروة والمروءة فينحرون جزوراً ويجعلونها عشرة اجزاء يسمونها الاسهم ، ثم يأتون بعشرة قداح « ويقال لها الازلام والاقلام » لكل منها اسم معين ونصيب معين ، يربح من الاسهم بمقداره ان ربح ، ويغرم من ثمن الجزور بمقداره ان خسر . وقد رأيت القداح في الكعبة وحدثتك بأمرها . وهذه القداح « وهي من نبات ينبت في الجبال اسمه النبع ، يتخذون منه السهام والقسي » ، ينحتونها حتى تصير في طول واحد ، ويعينون قيمتها بجزور « خطوط » يفرضونها فيها فيجعلون في القدح الاول خطاً واحداً ، وفي الثاني خطين ، وهكذا الى السابع منها ففيه سبعة خطوط ، اما الثلاثة الاخيرة فلا خطوط فيها .

ثم يقف صاحب القداح ، وخلفه رجل رقيب هو الحكم ، ويضع القداح في خطوط تدعى الربابة او يدفنها في الرمل بعد ان يخلطها خلطاً يمنع تميز احدها

من غيره ، ثم يضرب « اي يسحب » سهماً ، فان خرج معلماً ربـــح صاحبه بمقدار الخطوط التي فيه . أهكذا يفعلون في الشام ؟

– : نعم . ولهذه القداح اسماء معروفة ربما كانت الاسماء نفسها التي هي في الحجاز اذكرها يا زهرة .

قال : هي : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنـافس والمسبل والمعلـّى والمنيح والسفيح والوغد . فللأول وهو الفذ سهم ان فاز . وللتوأم سهمان حتى تصل الى المعلـّى وله سبعة اسهم وعليه غرم سبعة .

قال : هكذا يفعل الشامي في قماره فالعادة واحدة ، وماذا يصنعون اذا ربحوا ؟

– : أما الربح فيعطونه الفقراء والمساكين لا يأكل احدهم منه شيئاً ويذمون من لا يدخل في هذا ويسمونه « الـــبرم » وهو الذي لا مروءة له ، وتلك هي المفاخر التي ذكرت .. واما العظم وما عليه فيأخذه الجزار . قـل لي يا قصي . أكنت تقامر فتيان قضاعة ؟

فابتسم قائلاً : الرجل الذي لا مال له لا يقامر احداً ، انظر الآن في امر الاسواق فسأذهب اليها واحده بعد واحدة .

– : وتستطيع ان تأخذ معك ما يطيب لك فمالي كله بين يديك .

قال : سأفعل وسأرى سودة قبل السفر وأباحث عقلاء الحي في الامر .

– : اتستشير بنت اخيك كما قلت ؟

– : اجل فهي خير من شيوخ القوم .

ونهض وهو يفكر في ذلك المجد الذي سيبنيه بقوة ارادتـه ، وكان زهرة يقول في نفسه : كنت أقرأ على وجه هذا الأخ الفتى دلائل الجنون . امـا الآن فيخيل اليّ اني عبد له وانه اعقل الرجال ، وسيكون له شأن كما قال .

* * *

عندما كان عبدالله في قعيقعان يبحث عن منقذ مولاه صاحب الفرس ذات الهلال ، كان صفوان بن الحارث الذي هو نفسه ذلك المنقذ ، يطوف في احياء مكة مع بعض ابناء قومه ولثامه يخفي معظم وجهـــه ، وكان ابناء عشيرته يعرفون عادته فلم يستغربوا تنكره .

أجل . كانوا يعرفون ان صفوان اذا احسن في بلد الى احـد الناس عمد الى التحجب في ذلك البلد لا يظهر نفسه الا لقومه ، حتى يمر الزمن وينسى الرجل الذي أحسن اليه انه أسير فضله . ولم يكن أحد يسأله عما صنع . بل يكتفون بأن يروا تنكره ليعلموا انه اغاث مظلوماً او أنقذ نفساً، حتى انه اصبح مضرب المثل في حيه ، في ذلك التنكر الذي هو كل المروءة وكل العز .. وهو يعلم ان ذلك الشذوذ لا يأتيه احد غيره ولكنه كان يستلذه ويطيب له ان يتخفى بعد معروفه واحسانه ، ولم يقم في ذهن صفوان ان امير صوفة يبث عليه العيون في مكة ويرسل مولاه الى الشعاب ليعرف المحسن اليه ، بل لم يقم في ذهنه قط ان الجرح في ابهامه سيدل عليه . وان ذلك الهلال في جبهة فرسه سيفضح سره .

ولو خطر ذلك بباله لأوصى غلمانه بأن لا يبوحوا لأحد باسمه .

لقد رأى عبدالله جاثياً عـــلى قدمي هبل ، وهو يعرفه كما يعرف مولاه ، فخيل اليه انه يخاطب الآلهة ويصلي كما يصلي حجاج البيت . ولكنه عندما همّ بالخروج ونهض عبدالله ليخرج وراءه وهو يحـدق اليه دبت الريبة في صدره ، وقام فمشى كأنه لا يبالي به حتى اختلط بالناس وعبدالله سابح في فضاء الخيال ثم نزع لثامه وخرج مع الوفود وكان ذلك آخر العهد به ..

وفي اليوم الثاني عاد الى التحجب وهو لا يعلم ان عبدالله يبحث عن فرسه في ذلك اليوم ولا يبحث عنه ، وبعدما زار الكعبة مرتـين . خرج مع رهط من اخوانه يروحون ويجيئون حتى اقبل المساء .

فبينا هو بالقرب من المطاف وقد رفع عمـامته عن وجهه لكثرة الحر ابصر

وجهاً ليس غريباً عنه ولكنه لا يذكر اين رآه ، فقال لقومه : اريد ان اعرف هذا الرجل ، وخطا اليه بضع خطوات ثم تفرس فيه قائلاً :

اتعرف من انا ؟

فنظر اليه وهو يتظاهر بالخوف ثم قال : اما هذا الوجه فقد رأيته وهـذا الصوت فقد سمعته من قبل . ولكني لا اعرف من انت يا مولاي .

— : اذكر اسمك .

قال : انك لا تعرفني ولو ذكرته . اسمي عدوان ..

فوضع صفوان يده على جبينه فلم يذكر شيئاً . فقال الرجل: اني مولى جبير ابن عبادة يا مولاي .

— : جبير بن عبادة .. ذلك اللعين الغدار الذي كاد يقتل ..

فقال : الذي كاد يقتل امير صوفة في ميدان مكة .

فانتهره قائلا : اسكت والا ..

— : والا ماذا يا مولاي ؟ أتقتلني في الشهر الذي لا تحمل فيه العرب سلاحاً وانا بجوار الكعبه اطوف حولها ؟ انك لا تقتل الناس بـل تنقذهم من القتل كما انقذت زياداً في ذلك اليوم .

فضحك القوم قائلين : لقد عرفنا صاحبك يا صفوان فهو الأمير الذي يجـيز الناس من عرفة ..

قال : لقد فضحتني ايها اللعين فاستعد للموت .

— : ألآن ؟؟

— : الآن ولو كنت في جوف الكعبة ..

قال : ورب البيت لو رأيت السيف في يدك ثم أحسست به يحز عنقي لـما صدقت انك تفعل .. دعني اقص على سادات العرب ما صنعت بجبير ..

فقال القوم : اذكر ماصنع ولا تخف .

فقال صفوان : احذر ..

قال : أتخوفني بالموت، والموت نفسه يحترم الشهر الحرام؟ اسمعوا أيها القوم،

كان زياد بن كعب على فرس له يركضه في الميدان فتصدى له جبير بن عبـــادة ليقتله ، فحال هذا الفتى بين الاثنين .

قالوا : ولكن لم يكن معه سلاح .

فمدّ صفوان يده الى عنق الرجل وهم بان يجذبه اليه .

فقال احدهم : اسألك بتربة الحـارث وبكل مـا في الكعبة من أقداس ان تأذن لهذا الرجل في القول .

قال : ايفضح اسراري وانا انظر اليه ؟

قال : لم يبق هنالك من اسرار . لقد باح بما كتمتنا اياه وانتهى الامر . قل ماذا جرى ايها الرجل .

قال : وقـد عرض صفوان سيفه على زياد فأبى هذا أن يقتل جبيراً واكتفى بان خـيّره بين الرحيل عن مكة الى الابد وبين الموت .

– : وماذا فعل جبير ؟

– : آثر الرحيل لأنه لا يطيق ان يعصى زياداً .

– : ولأي سبب أراد ان يغدر به ؟

– لأنه أبى ان يزوجه بنته .

– : ليلى ؟

– : نعم ليلى وجبير يكاد يموت غماً وغراماً .

قال : عرفت ليلى فلم أرَ أجمل منها وجهاً..ما رأيك يا صفوان في الجمال؟..

وكان صفوان قد استند الى الجدار وهو ساكت فقال: ليس لي فيما لا أعـــلم رأي .. أتعني جمال بنت زياد ؟

– : نعم فهي حسناء الحجاز .

فقال آخر : صف لصفوان الخيل ولا تصف له النساء .. انه لا يطيب له العيش الا بين الجياد ..

قال : لو رأى ليلى لنسي « المرحة » و « روحاء » و « العقاب » وجميع ما يملك من أفراس .. ونظر اليه وهو يبتسم .

فقال : دعونا من هذا الآن وقل لنا ايها اللعين أين ذهب مولاك ابن عبادة

قال : ترك مكة الى حيث لا أعلم ..

– : وماشيته وامواله ؟

– : أخذها كلها لم يبق منها شيئاً .

– : وانت ماذا تصنع في مكة اتبحث بعد عن زياد بن كعب لتطعنه من الوراء كما اراد مولاك ان يفعل ؟

قال : لقد تركت جبيراً يا مولاي فانا اليوم حر .

– : كذبت يا لعين فاذا كان ابن عبادة هو الذي عرفته فانت باقٍ عنده ولست من الاحرار . ان ذلك الوغد لا يجعل عبيده أحراراً ..

وقال : صدقني يا مولاي فانا لا أجسر على الكذب ..

– : وهل بلغ به الجود والاباء ان يطلق عبداً ؟

– : كانت حريتي نتيجة خوفه يا مولاي .

– : وماذا يخاف ؟

قال : ألم أكن شاهداً على غدره في حادثة زياد بن كعب ؟

– : بـــلى .

– : لقد خاف ان أبوح لاشراف العرب بما رأيت فجعلني سيد نفسي وأمرني بالرحيل الى اليمن ..

– : لو كان ذلك صحيحاً لدعاه خوفه الى الاحتفاظ بك لكي لا تفشي سره. وهل يخشى العـــار مثل ابن عبادة وهو يكمن للناس في وضح النهار ليخطف ارواحهم ؟

– : لقد جعل حريتي قيداً لي مولاي ..

– : في ي شيء ؟

– : وهبها لي وشرط عليّ الكتمان والانصراف الى بلاد قومي ..

– : وكيف لم تفِ بما وعدته ؟

— : لاني آثرت البقاء في مكة على الذهاب الى بلد تركته صغيراً ولا أعرف فيه احداً وليس لي فيه أهل ..

— : واذا عرف انك باقٍ ؟

— : كان نصيبي الموت ولكنه غادر المدينة على أمل أن لا يعود اليها وزياد حي .

قال : لو رأيتك أمام هبل ، وسمعتك تقسم على قدميه بجميع آلهة الكعبة لما خطر لي انك صادق ، في أي منزل تقيم ايها الرجل ؟

— : في منازل الغرباء .

— : وتنفق من المال الذي اعطاك اياه جبير . أليس كذلك ؟

— : نعم لقد أعطاني ما يكفيني سنة ..

— : وعندما ينفد هذا المال ؟

— : أمد يدي الى المحسنين من العرب ..

ففاجأه قائلاً : اذن تتبعني منذ الآن وتكون خادماً لي ..

فأجابه دون ان يتردد : لا اخدم أحداً بعد الآن فقد مكثت في بيت عبادة أربعين سنة وهذا يكفي .

فضحك صفوان والتفت الى الجماعة وهو يقول: انظروا الى هذا اليمني الذي لا يطيب له الا ان يخدم السارقين .

قال : لقد مللت الخدمة يا مولاي .

قال : أجعلك رئيس الرعاة ..

— : وتعبت من رعي النوق ..

— : اذن سأسأل حليل بن حبشية ان يعتزل سدانة الكعبة . وأسأل العرب ان تجعلك سادنها فينتهي الامر .

قال : لو أعطيتني حجابة البيت لما رضيت .

— : وماذا يرضيك ؟

— : خدمة في بيت زياد بن كعب .

– : أتؤثر خدمة زياد على الامارة ؟

– : بل أوثرها على ملك العرب ..

فقال ابن عم لصفوان : ان لذلك حكاية ايها اليمني .

– : أجل . وهي ان ملك العرب لا يساوي نظرة من عيني ليلى الخلابتين .

– : ذلك اغرب ما سمعت ايها القوم .. ارأيتم عبداً يعشق عندما يعشق مولاه ويبغض حينما يبغض ؟

قال : اما العشق فبعيد عن الشيوخ ولست من العاشقين، ولكن ليلى احسن من في الحجاز من النساء ، والنظر اليها كل صباح احدى النعم .. ورب الكعبة لو رآها صفوان هذا لنسي جبيراً وكل ما في مكة من صور ، ونسي خيله التي تذكرون . انها ايها الاشراف تفتن العابد الذي لا يخرج من هذا البيت ، بيت الله .. وأظن ان زياداً يزوجه اياها لانه انقذه من الموت . اجل . ولتكن ليلى لك يا صفوان .. يا مولاي .. فليس في مكة من الرجال من يليق بأن يكون لها عبداً ..

ثم قال : ألست يا مولاي من اشراف هذا البلد ؟

فأجابه صفوان قائلاً . اتجهل بني كنانة ايها اللعين وهم سادة الحجاز ؟

– : عفوك يا مولاي فانا أعلم أنك من هؤلاء القوم. سمعتهم يستحلفونك بتربة الحارث فأي حارث هذا ؟

فقال : لقد حزرت الآن . انك تريد ان تعرف من انا لتنقل خبري الى مولاك فيستعيد شرفه .

– : أتعود الى ذكر الرجل وانا لا اعلم اين هو !

– : قل ما شئت فانت كاذب وانا لا ابالي بمولاك فاذكر له كل شيء . قل له أن الرجل الذي تصدّى لك في ميدان مكة وعرض سيفه على زياد ليقتلك به هو صفوان بن الحارث بن شجنة . فاذا أحب أن يغدر بي فليستعن بظلام الليل وليحمل سلاحه تحت ثيابه فيطعن به صدري في ساعة لا أرى فيها حولي احداً ولا استغيث بأحد .

فقال اللعين في نفسه : لقد عرفتك الآن . وبقي عليّ ان تسأل زياداً ان يزوجك ليلى . فاذا رضي فقد قتلت وقتل زياد .

وجعل يبتسم ويقول : لو كان ابن عبادة في مكة لفضلت الموت على المثول بين يديه . اني لا اجسر على الظهور في مكة وهو فيها كما قلت . سأذهب الان يا مولاي وقد لا اراك فيما بعد . افتأذن لي في كلمة اقولها وانصرف .

فتردد في الجواب .

فقال احد الفتيان : ماذا ؟

قال : لا تنسوا زياداً وابنته فليطلبها صفوان قبل ان تمسي زوجة لرجل مثل جبير ..

فاستشاط صفوان غضباً واسكت ابن عمه قائلاً :

أيكون لهذا الرجل رأي في زواجي ؟ اي شأن له مع ليلى بنت زياد ولماذا الح في هذا الطلب الذي لا يعنيه ؟.

ومشى اليه وهو يقول : لو لم يكن مس السلاح حراماً في هذا الشهر لعلمتك كيف يسكت مثلك الى الابد . اذهب الى لعنة الله والا فانا قاتلك .

فرأى عدوان ان لهجته لهجة قاتل وخير له ان يصون حياته بالانصراف فقد عرف ما اراد ان يعرفه ، بفضل القضاء والقدر .

فترك الجماعة وهو يتلفت الى الوراء ويقول :

يا صفوان بن الحارث . ان هذا العبد اليمني الذي تستخف به سيكون جلادك وجلاد ابن كعب ، وجبير بن عبادة الغدّار سيأخذ ليلى بنت زياد ولو كانت بين يديك .

وكان الليل قد سدل حجابه فاختفى في الظلمات .

* * *

أتعود بعد الى التحجب يا صفوان ؟

قالها رجل من الجماعة وهم قائمون الى جانب المطاف .

فاجابه قائلاً : تريد ان تقول ان التحجب لا خير فيه بعد ان فضحني اليمني.

— : نعم ، فقد عرفنا الآن انك انقذت اميراً من الموت. ولهذا الامير الذي تعرفه العرب بنت هي سيدة الحسان . لقد كان لهذا اليمني فضل فيما قصه علينا الليلة . انه أنقذك من ذلك اللثام الذي تختنق صاحبه . ما رأيـك في الاقتراح الذي سمعته ؟

أي اقتراح هذا ؟

— : أنسيت ليلى ؟

— : قلت لك من قبل انه لا رأي لي في امر لا اعرفه .

— : ولكن نريد ان يكون لك هذا الرأي .

— : أما انا فلا أعلم ماذا تريدون .

قال : تذهب غداً او بعد غد فتخطب الفتاة .

— أخطبها لك او لسواك ؟

— : بل تخطبها لنفسك فليلى احدى النعم كما قال صاحبنا الآن .

— : هب انها احدى نساء الجنة فانا لا ارغب في الزواج ولا افكر في النعم

— : وتتركها لجبير ؟

— : ماذا يفعل جبير وابوها لا يزوجه ؟

قال : ستصلح الشيوخ بين الاثنين .

— : لم يبق زياد سبيلاً الى الصلح . انه يطرد ابن عبادة من بيته كما يطر الكلب ولو كان مع حاجب الكعبة .

قال : اذا قال حليل كلمته انتهى كل شيء .

— : اما حليل فلا يقول هذه الكلمة .

— : من يعلم ؟

— : أنا .. ان جبيراً طلب حبى قبل ان يطلب ليلى فلم يستجب الام ذلك الطلب . أتعرف لماذا ؟

— : لا .

— : لان جبيراً يملك بعد ابيه المال الحرام ، ألم تسمع ؟ انه ابن سارق وقص

على القوم ما يعرفه عن الرجل .

فقال : ولكن الغرام الذي يتغلغل في صدره يدفعه الى ما لا يحب زياد ولو استقبل الموت .

— : اي انه يدفعه الى القتل .

— : لا . بل يأخذ ليلى على الرغم من ابيها ولو كان امـــير صوفة الذي يجيز الناس .

— : وكيف يفعل ؟

— : يخطفها كما يخطف الذئب الشاة .

— : ولكن صفوان بن الحارث يخطف روحه من بين جنبيه .

— : اذا قدرت .

قال : وتربة ابي لا يمس ابن عبادة ليلى وانا حي .

— : اذن فانت تضمر الشر لفتى لم ترَه غير مرة واحدة .

— : بل رأيته كثيراً قبل ذلك اليوم . اجل انه لم يكن عدواً لي من قبـــل ولكنه اصبح ، بعد تلك النذالة التي رأيت من ألد الاعداء . اني عدو النذل اينما وجد ، وعبد للرجل الشريف في كل زمان . وانا لم اصدق كلمة من ذلك الكلام الكثير الذي قاله اليمني لانه مثل مولاه .

قال : أرأيت ابن عبادة بعد تلك الحادثة ؟

— : لم أرَ له وجهاً .

— : وهل سمعت ان احداً رآه في مكة ؟

— : لا . ولماذا تسأل عن هذا ؟

— : لأرى اذا كان باقياً فيها واعرف اذا كان ذلك اليمني كاذباً كما تقول .

قال : وانا بدوري اسألك سؤالاً .

قال : سل ما تشاء .

قال : أتعرف كم هو الزمن الذي قضاه عدوان في بيت عبادة ؟ لقد مضى عليه اربعون سنة وهو في ذلك البيت .

— : واذا كان ذلك .

قال : ألم تسمعه يذم مولاه وهو الذي رباه؟ انه اذا كان صادقاً فيما رواه عن رحيله ، فلا تنس انه كان من الناحية الاخرى نبيلاً جداً في ذلك الذم .

قال : وماذا تريد الآن ؟

— : لا اريد الا ان يسلم زياد بن كعب من شر الغادر ، لقد أصبحت الآن واثقاً بأن جبيراً لم يترك مكة وانه سيمد يد الأذى الى الرجل وابنته .

— : اذن لم يبقَ عليك الا ان تحمي الاثنين ..

فقال فتىً آخر : وانا أرى ان تحمي نفسك قبل ان تحمي الناس .

— : أتظن ؟

قال : اذا كانت هذه صفات صاحبك فحياتك في خطر وقد عرف جبير من أنت .

قال : انها حرب لا يعرف فيها العدو من هو عدوه ..

— : وهذا هو موضع الخوف . اتفعل ما اقوله لك يا صفوان ؟

— : مـــاذا ؟

قـال : ارى ان تزور زياداً في قصره وتنقل اليه أنك رأيت مولى جبير في مكة وان خاطب ابنته لم يبرحها كما ظهر له .

— : وماذا يجري بعد ذلك ؟

— : تبثون العيون على الرجل وتكونون جميعكم اعواناً عليه .

فاطرق صفوان يفكر في ذلك الرأي .

قال : وأرى ان تعود الى التحجب كما كنت .

— : اما التحجب فلا بد منه كما رأيت ، واما ان ازور امير صوفة فهذا ما لا افعله اليوم ..

— : لأني اكره ان يظن بي زياد الظنون ..

قال : ذلك وهمٌ ليس لك فيه عذر ..

— : بل هي فكرة يمليها عليّ الشرف والمروءة.. أأنقذ زياداً من الموت وهو

لا يعرفني ثم اذهب اليه فأقول له انا الذي عرضت عليك سيفي ؟

– : بل تسأله الاستعانة بهذا السيف مرةً ثانية اذا أراد وهذا منتهى الشرف ..

قال : ذلك منتهى اللؤم .. ويخيل اليّ ان زياداً سيقول : لم يظهر لي هذا الفتى نفسه الا لغرض من الأغراض .. هذا يفعله من يطلب مكافأة واحساناً .. وابن الحارث لا يكون صغيراً الى هذا الحد ..

قال : يعرض عليك فتأبى وينتهي الامر ..

– : ورب هذا البيت لا أطيق ان يوجه الي كلمة شكر على ما فعلت .

– : اذن كتب لك ولزياد بن كعب ، ان تموتا عن يد جبير بن عبادة . وستندم في ساعة لا ينفعك فيها شيء ..

فغطّى صفوان وجهه من جديد وهو يقول : سأبحث عن الرجل وانا مقنع وسترى من يفوز .. وعندئذٍ سمعوا حركة بالقرب منهم ..

وخيل الى احدهم انه يرى شبحاً يتردد بجلباب الظلام .. فانصتوا .. ثم راجعوا بحذر الى الوراء فلم يبصروا احداً ، فمشوا يريدون مضاربهم في الحلّ وهم لا يعلمون ان عدوان سمع حديثهم من اوله ..

* * *

من انت أيها الرجل ؟

– : انا نجدي لا تعرف اسمي اذا ذكرته .

– : وماذا تريد ؟

– : جئت اسأل مولاي امير صوفة ان يحسن اليّ ..

فنظر زياد الى ابيه كأنه يسأله عن صوته فرأى ليلى تضحك وهي تنظر الى النجدي .. فذكر عندئذٍ حكاية ذلك الغريب الذي رأته ليلى خارجاً من غرفة عبدالله .. فقال :

عبدالله ؟

– : أجل عبدالله يا مولاي بقلنسوته وكحل عينيه ..

فحدقت اليه العيون .

ثم قال زياد : يخيل الي انك لمست بيدك افراس بني كنـــانة جميعها لم تترك منها واحدة .

– : نعم يا مولاي حتى وضعت يدي على الحمراء ذات الهلال ..

فاشرق جبينه قائلاً : أعرفتها ؟

– : اجل وعرفت صاحبها فهو صفوان بن الحارث .

فجعلت ليلى تلتفت الى جدها وابيها لترى تأثير ذلك القول .. فردد الاثنان قائلين : ابن الحارث ؟

قال : الحارث بن شجنة وهو من سادة القوم ..

فقال ابو زياد : عرفته ورب الكعبة فهو من أعز العرب ..

– : الوالد ام الولد يا مولاي ؟

– : اما الولد فقد اعتزلت الامـــارة قبل ان يولد ولكني عرفت اباه .. ابن شجنة.. اي ورب الكعبة لقد عرفته.. ابن شرف ونعمة.. لقد ذكرت الآن.. وكان يملك من الخيل ما لا يملكه الحي كله .. كيف رأيت الفتى يا عبدالله ؟

– : ان الفتى في مكة يا مولاي والخيل في قيقعان .

– : اذن رأيت الفرس ولم ترَ فارسها ..

– : اجل ويكفي اني حفظت اسمه ..

– : وفي اي حي هو ؟

– : أتسأل عن أحياء الحجاج يا مولاي ؟ انهم يزورون الكعبة ثم يتفرقون في الوادي .

– : احسنت وبنو كنانة يبيتون خارج الحرم ..

وكانت ليلى ساكتة وقد اعجبها ان صفوان من اشراف الناس . وخفق فؤادها لذكره ولم تشأ ان توجه الى عبدالله سؤالاً خوفاً من ان يبوح اللسان بما في القلب .

ثم عاد الشيخ الى الحديث فقال : من رأيت من القوم ؟
— : الرعاة وحدهم ليس غير .
— : وماذا قالوا عن الرجل ؟
— : انهم يصفونه كما يصفون الملوك ، وقد قصوا عليّ يا مولاي اخبار مروءته وكبر نفسه ..
— : وهل كانت مروءة الفتى حديث الناس ؟
— : نعم ، ولعل اروع ما تسمعه هو انه اذا أحسن الى احد كان احسانه من وراء الستار . اتعلم لماذا لم يبح باسمه لمولاي زياد ؟ انه لم يفعل كي لا يصل اليه احسان الامير .

قال : وقد تحجب كي لا يعرفه أحد وتلك مروءة جاوز فيها الحد .. ولكن بقيت عليك مهمة اخرى يا عبدالله ..

قال : هي ان أرى صفوان نفسه في مكة وأسأله المجيء الى هذا القصر ليرى من فيه ...

وارسل نظره الى ليلى ..
فقال زياد : هو ذاك .
اما ليلى فجعلت تهز رأسها استغراباً .
فقال ابوها : ليستَ ليلى من هذا الرأي .

قالت : اجل ، لقد رأيت غيره يا مولاى ، ايحسن اليك هذا الفتى وهو من اشراف القوم ، فتدعوه الى منزلك لتقوم بواجب شكره ، انها بدعة جديدة يوجدها زياد بن كعب في العرب .

— وماذا نصنع ؟
— : يذهب عبدالله فيطوف مرة اخرى في مكة ليرى صفوان .. ان الامر لم ينقضِ بعد ..
— : اتقولين هذا وقد سمعت عبدالله الآن يروي لك حكاية الرجل ؟ اذن فانت لا تثقين بما تسمعين ..

— : بل انا اشدكم وثوقاً به ، ولكنهم وصفوا له صاحب الفرس الحمراء التي يلمع على جبهتها هلال ابيض ..

— : نعم .

— : فلنفرض يا مولاي ان في الخيل فرسين لهما ذلك الهلال وان الذي وصف لعبدالله ليس صاحبك .

قال : وتلك المروءة التي هي صفة صاحبي ؟

قالت : لم يصب الحجاز بقحط في الرجال حتى يجمع ذلك الفتى نبالة الخلق وحده .. ان في العرب يا مولاي اشرافاً غيره ..

فحنى جدها رأسه وقد استحسن ذلك القول .

ثم قـــالت . يرى عبدالله صفوان كما قلت .. يرى عينيه وأثر جرحه .. ثم يقول له بعد ذلك بلغنا الغاية ؟

قال ومتى فعل ذلك بلغنا الغاية ؟

قالت : تبلغ الغاية يا مولاي عندما تذهب الى منزل الرجل في حيه ، وتقول لبني قومه ، صاحبكم هذا انقذني من الموت ، ثم تبعث اليه من خيلك بفرسين ، احدهما الفرس الذي ركبته الى الميدان في ذلك اليوم .

فقال عبدالله : ستنظرون في هذا بعد ان نرى الرجل .

قالت : اما وقد عرفت اسمه فستراه عندما تسأل عنه .

— : وقد ينكر ما جرى على عادته في مثل هذه الامور .

فقال زياد : ليفعل ما يشاء فاذهب الآن .. وابتسم لابنته وهو يقول : اذا كان الرجل صفوان بن الحارث او غيره . فسيكون احساننا اليه اكثر مما تظنين . . .

واقام الثلاثة يتحدثون وقد قام في اذهـــانهم ان صاحبهم هو صفوان بن الحارث نفسه ، وان عبدالله لا يعود الا وقد رآه ..

* * *

من يعرف صفوان بن الحارث ايها القوم ؟
فضحك احدهم قائلاً :
انك تسألنا عمن لا نعلم .
وقال آخر : من أي قوم صاحبك هذا ؟
وقال آخر : يخيل الي ان صفوان هذا من صعاليك العرب ..
فقال عبدالله : ممن انتم ؟
— : اذكر لنا من انت اولاً .
— : أنا مولى زياد بن كعب امير صوفة .
فاجابه احد الفتيان : اذا كان هنالك امراء فنحن نـدلك على الرجل فهو ابن عمنا .
— : واين اجده ؟
— : يجب ان تطوف حول البيت عشر مرات حتى تجده .
— : مع الحجاج ؟
— : اجل معهم . وان لم يقع نظرك عليه فاقصد الصفوف المنتشرة عـلى عرض الوادي وانظر بينها الى جماعات الفقراء فهو معهم يغيث مظلومهم .
فهمّ عبدالله بالذهاب .
فاستوقفه قائلاً : ولكن لا تنسَ ان صفوان يغطي وجهه بعد كل مأثرة من مآثره ..

فقال في نفسه : هذا هو اذن وليس في القوم غيره . ومشى وهو ينظر الى جانبيه ، حتى وصـل الى البيت ، ولم يكن للحجاج نظام في تلك الساعة .. فخيّل اليه ان عينين كعيني عدوان تحدقان اليه من بـين الصفوف ، فخفق فؤاده . ثم مشى مسرعاً الى حيث رأى الرجل فـلم يبصر الا الوجوه التي لا يعرف ، فقام في ذهنه انه مخطىء . ولكنه لم يكن يفكر في عدوان ليمثل امام عينيه ، بل كان قد نسيه كما نسي مولاه .

غير ان العينين اللتين حدقتا اليه هما عينا ذلك اليمني .. ولم يكن عبدالله

مخطئاً في تصوره . فقال في نفسه : لقـد كتب لي ان ابحث عن الكثيرين من الرجال .. خدعنا ابن عبادة وتخفى حتى قـام في اذهاننا انه ترك مكة الى الأبد . ورب الكعبة ان له في هذا الاستخفاء لغرضاً . فاصبر يا عدوان . اصبر ريثما اجد صفوان بن الحارث فاعود الى البحث عنك وعن مولاك . وتغلغل في الصفوف وهو يرسل النظرات الخفية الحادة فلم يجد لعدوان أثراً ، فلم يبالِ ، وانصرف الى ذلك الشأن الذي قدم لاجله ، حتى توسط الوادي ، وقبائـــل العرب تقوم على جانبيه وقد اختلط سيد القوم بالصعاليك . وضاع الرؤساء والنبلاء بين فرق العامة من كل جنس .

ولكن عبدالله اعظم من ان يستسلم الى اليأس . انـه سيتبين وجوه القوم واحداً بعد واحد حتى يرى وجه صاحبه ، واذا كانت العمامة تغطي ذلـك الوجه فقد عرفه وانتهى الامر ، وبينا هو يطوف حول الناس سمع رجلاً يقول لآخر : انه يقضي حاجات الفقراء كأنه ملك .

فاجابه رفيقه قائلاً : لعله احد امراء كندة .

قال : الامراء بين الحجاج كثيرون فلا يعرف من اي قوم هو .

— : ويظهر انه كثير المال .

فتصدى لهما عبدالله وهو يقول : من هو هذا الرجل الذي تذكران ؟

وكان الاثنان من بني عبس فقال احدهما :

لو عرفناه لذكرنا لك اسمه . انه ملاك بعثه الى الحجاج سيدنا اسماعيل .

— : وتقولان انه يعطي الفقراء ؟؟

— : أجل ولا يرد سائلاً .

وكان عبدالله يريد ان يعرف صفته . فقال :

يخيّل اليّ اني رأيته امام البيت منذ يومين فهو شيخ ابيض اللحية والرأس .

فقهقه الرجل ثم قال :

— : لقد غطّى رأسه ولحيته بقناع فلم نرَ شيئاً ممـــا ذكرت . لقد سمعنا صوته وهذا يكفي .

قال : والرجال تعرف من اصواتها فماذا بدا لكما ؟؟
– : بدا لنا انه من الفتيان .
– : ولهجته ؟؟
– : لهجة اهل الحجاز . ألست حجازياً ؟
– : بلى .
– : وتجهل المحسنين من قومك ؟
– : لم اجد في قومي من يحسن الى المعوزين وانا منهم . فهل اعطاكما شيئاً ؟
فقال : ملأ راحتي مالاً ولم يسألني ممن انا .
قال : ارشداني اليه لعلي اصيب بعض هذا المال .
– : الا ترى هذه الخيام السود ؟
– : أراها .
– : وذلك الدخان الذي يحجب وراءها الأفق ؟
– : أراه .
قال : ان الرجل مع اصحاب الحاجات بالقرب منه .
فشكرها عبدالله وركض لئلا يفوته .

وهناك .. في سفح ذلك الجبل . رأى عبدالله بضعة وعشرين رجلاً يحدقون بالفتى المقنـّع الذي يطلبه ، وهو يعطي الواحد منهم ثم يصرفـه لينظر في أمر غيره . فلم يجسر على الدنو منه خوفاً من ان يضيعه . وهو لم ينسَ فشله في المرة الاولى واحتجاب الفتى في دهاليز البيت ، وقد رأى ان يصـبر حتى يتفرق اولئك الصعاليك الذين يمدون ايديهم لأخذ المال ..

وكان قد نسي كل ما حوله من مشاهد ومن حجاج ولم يفكر الا في صاحب القناع وهو واثق بأن صفوان بن الحارث لا سواه ، وجعل ينظر اليـه والى الفقراء الذين يدعون له ، وقلبه يضطرب في صدره . ولو ارسل عبدالله نظره الى خيمة منفردة تقوم الى الجانب الآخر لأبصر رجلين اثنين ينظران اليه والى فتاة بعيون تتقد فيها النار ..

ولو كان قريباً منهما لسمع احدهما يقول للآخر :
ليبذل هذا المجنون ماله فسيموت قبل ان يرى ليلى بنت زياد .

* * *

- ١٣ -

مدّ الظلام رواقه فوق ذلك الوادي الذي تبيت فيه العرب .

وتصاعد دخان الحجاج في الفضاء .

اما ذو القناع فلم يترك الجماعة الا عندما آوى الناس الى المضارب .

وعند ذلك نزع قناعه ومشى يريد قومه ولكنه لم يكن وحده في طريق الوادي بل كان هنالك ثلاثة رجال يتبعون أثره ، عبدالله ، والاثنان الآخران ، وهو لا يعلم ان العيون تنظر إليه من الوراء .

كما ان عبدالله لم يكن يعلم شيئاً من هذا .

حتى وصل صاحبنا الى البيت فوقف ينظر لى وجوه القوم القائمين حوله كأنه يطلب رفاقاً له ، وامام البيت تقوم الانوار .. فتقدم عبدالله بقدم ثابتة وهو يقول : اعطني يا مولاي كما أعطيت اولئك الفقراء . ومدّ اليه يده يسأله احساناً .. فبغت الفتى وأخذ ينظر الى محدثه ، ثم تلجلج صوته قائلاً : أفقير أنت ؟

— : نعم وبحاجة الى القوت ..

قال : هب انك محتاج فمن قال لك اني من المحسنين ؟

— : رأيتك تهب مالك باليدين ..

— : كذبت فلست من الاغنياء ، وحوّل عنه وجهه وقد عرف انه مولى زياد بن كعب .

لكن عبدالله كان وقحاً فقال : كلمة يا مولاي .

قال : قل كلمتين ايها اللعين فقد عرفت من أنت .

لقد عرف أحدنا الآخر فلا سبيل الى الكتمان .
قال : انك مولى زياد بن كعب .
– : وانت يا مولاي صفوان بن الحارث .
– : وأي غرض لك ؟
– : وهل تجهل غرضي وغرض مولاي الذي أنقذته من الموت .
فارتجف صفوان ثم قال : ان مولاك لا يحتـــاج الى مثلي . وضحك ضحك الساخر الهازىء بما يراه .
فاضطرب عبدالله . وخيّل اليه انه يخاطب رجلاً ليس بينه وبين صفوان وجه شبه ، فقال : اتعود الى التحجب يا مولاي وانا ابحث عنك باسم زياد وقــد طفت غير مرة في مكــة وفي الجبال حتى رأيت وجهك ؟
فحاول الفتى بدوره ان يخدعه فقال له :
انك لم ترَ بعـــد ذلك الرجل الذي طلبت .. اني من يثرب ولا أعرف صفوان ...
– : بل انت هو وقد رأيت هذه العمامة من قبل .
– : أين ؟
– : في جوف الكعبة امام الصنم الأكبر ثم ضيعتك .
– : اخطأت فالعرب جميعها تلبس العمائم مثل هذه .
– : وقد وُصِفت لي عيناك الساحرتان اللتان أراهما الآن .
– : وفي عيون العرب كلها شيء من السحر ، فاذهب الى مولاك واذكر له ما سمعت ..
– : بقي شيء آخر لا انصرف حتى أسألك عنـــه وأراه بعيني ، وألمسه بيدي ، ثم لك ان تأمرني بعد ذلك بما تشاء .
– : وما هو هذ
لقد قيل لي ان في ابهام يدك اليمنى جرحاً .
فأخفى الرجل يده .

فقال : اعطني يدك يا مولاي لأرى ما وُصف لي .

فوضع يده على كتفه وهو يقول :

أرى ان مولاك لم يترك في وجهي وفي يـدي شيئاً الا وصفه لك .. أنا هو صفوان بن الحارث فماذا تريد الآن ؟

فتنهد عبدالله قائلاً : أمرني مولاي بأن أعرف المحسن اليه وقد عرفته .

— : وبعد ذلك ؟

— : انقل الخبر الى زياد ثم انتظر امراً آخر .

فقال : ان مولاك لم يسأل عن الفتى الذي عرض عليه سيفه الا ليجزيه على ما فعل أليس كذلك ؟

— : لا أعلم فقد يكون ذلك غرضه .

— : وأنا أريد الآن ان تحفظ ما أقوله لك لتنقله اليه دون ان تنسى منـه كلمة . أتعدني بهذ

قال : اقسم لك اني أعيد عليه قولك كله كما اسمعه .

فقال : اني صفوان بن الحارث كما رأيت وانا من كنانة ، وهذه يدي والجرح الذي ذكرت ، فقل لمولاك ان ابن الحارث الكناني لا يقبل جزاءً ولا يريد ان تمتد اليه يد ملك او امير بعطاء، لقد فعلت ما ملاه عليّ خلقي ومروءة العرب . وسأجعل حياتي كلها محامد دون ان يكون لأحد عليّ فضل ، فاذا أحب زياد ان يعطيني شيئاً من ماله فليعطه صعاليك العرب وفقراء الحجاج ذلك خير من ان يبذله لكناني لا يحتاج اليه ..

ان مولاك من امراء مكة واشرافها واصحاب الشأن في الحجاز ، وانا فتى لا يعرفني غير قومي وليس لي في هذا البلد رأي ومع ذلك فانا راض بما انا فيه ولا ارغب في جزاء احني له رأسي الى الابد وشهرة تنسيني نفسي وتخرجني عن حدي .. فليعلم زياد بن كعب امير صوفة اني عرضت عليه سيفي في ذلك الموقف الغريب لأنقذ حياة الشريف العربي من غدر الجبان. ولأقطع يد النذل قبل ان تمتد بسوء

الى رؤوس النبلاء .. وهو عمل ليس لي فيه فضل كما ذكرت ، ولا أمن به على احد .. اسمعت كل هذا يا عبدالله ؟؟

— : نعم يا مولاي وانا معجب بما سمعت .

— : وليثق زياد بان سيفي الذي لم يجرد من غمده ، هو له في جميع مواقف الخطر الذي يهدد حياته . اضرب به عدوه ولو كان سادن الكعبة نفسه .. واطرحه عند قدميه عندما يحتاج اليه ، على امل ان لا يذكر المعروف ولا يعمد الى الجزاء ..

قال هذا ومشى كأنه لا يريد ان يسمع جواباً .

فقال عبدالله : ولكن مولاي يرغب في ان يراك واعتقد انك تأذن في هذا .

— : انه يرغب في ذلك ليسمعني كلمات الشكر الذي اهرب منه ولا اطيقه ..!!

— : ولأجل هذه الغاية سيزورك في الحي ..

— : ولكنه لا يجدني في المنزل اذا فعل .

— : ان صفوان بن الحارث لا يفر من الناس .

— : سأفر ورب الكعبة .. ثم تمتم قائلاً : اجل اني اريد .. ويجب ان اراه . . .

فبرقت عينا عبدالله وهو يقول : لقد انتهى الأمر الآن وسيزورك غداً .

— : بل اذهب اليه عند الصباح قبل ان يقع ما اخشاه .

فدب الخوف في قلب الشيخ وارتجفت ركبتاه ..

فما هذا الذي يخشى صفوان وقوعه وأي خطر يكمن لزياد وقد نجا من غدر جبير ؟

انه لغز لا يدركه عقل عبدالله ، فقال : أتأذن لي يا مولاي ان اسألك عما سمعت الآن ؟

قال: ستعرف غداً ما تريد ان تعرفه الآن .. ان في مكة افعى تطوف حول بيت مولاك لتنفث فيه السم .. نعم سأزوره غداً وان كنت أكره زيارته ..

وسأمضي في الدفاع عنه الى النهاية فهذا ما كتب لي.. ثم قال : وماذا جرى لأبن عبادة يا عبدالله ؟

— : لقد تر مكة يا مولاي ولا نعلم في أي بلدٍ هو .

— : ومولاه اليمني ؟

— : عدوان ؟

— : نعم عدوان ..

فتردد في الجواب ثم قال : ان هـذا اليمني لا يترك سيده .. ومع ذلك فقد خيل الي اني رأيته ..

فاظهر الفتى الاستغراب قائلاً :

متى كان ذلك ؟؟

— : في هذا اليوم قبل غروب الشمس .

— : أواثق انت ؟؟

— : بعض الوثوق يا مولاي فقد رأيت عينين ناريتين تشبها عينيه ..

— : ثم اكتفيت بما رأيت ..

— : بل هممت باللحاق به فمنعتني صفوف الحجاج من الوصول اليه .

— : اما انا فقد كنت اسعد حظاً منك .

— : ماذا ؟ ..

— : لك ان تعلم ان الاقدار تدفعني الى زياد بن كعب وانا احـــاول الهرب منه .. ولم يبق بد من الذهاب اليه .. فارض بما سمعت والى اللقاء عند الصباح.

وتركه واتجه نحو المطاف ..

فأطرق عبدالله قليـــلا ثم سار بخطى مضطربة يريـــد قصر زياد ، وفي الوقت نفسه . أجل في الوقت نفسه تغلـّل رجلان في الظلام وهما يتهامسان .. وعلى الواحد منهما قناع كقناع صفوان ..

وقد عرف القارىء انهما جبير وعدوان .. وقد سمعا كل ما قيل ..

* * *

يــثرب

المدينة الثانية في الحجاز بعد مكة . فيها النخيل والزروع تسقي من الآبار عليها العبيد . ولها سور يعود عهده الى الزمان القديم .

وهي تبعد عشر مراحل عن عاصمة الحجاز ، وحولهـــا . لأهلها ، المزارع والضياع جنات غناء .

يحيط بها مواضع ذكرتهـــا كتب العرب ووردت في الاشعار ، منها بقيع الفرقد من الشرق ، وقباء على نحو ميلين الى ما يلي الجنوب ، وأحُد ، جبلٌ في شماليها وهو اقرب الجبال اليها يبعد مقدار فرسخين ، ووادي العقيق بينها وبين الفرع والفرع يبعد عنه من الجنوب اربعة أيام .

واعذب مياه تلك النواحي آبار العقيق وقد وصفها غير واحـد من الشعراء ومن البحرين الى المدينة كما يقول ياقوت نحو خمس عشرة مرحلة ومنها الى الكوفة نحو عشرين والى دمشق مثلها .

واول من أقام فيها العماليق اصحاب الحجاز الأولون كما قرأت ، ثم جـاء بعدهم اليهود غزاة فاتحين ، فجعلوهـا وجعلوا خيبر ، القريبة منها ، مقراً لهم ، وفي المدينتين وغيرهما من القرى جرروا اذيال النعم والرفاه .

ولهذين الشعبين وغيرهما ممن نزل يثرب حكايات ذكرها ياقوت وابو الفرج والكثيرون من المؤرخين ، نوردها لك ، على قياس العلم بالشيء ولا الجهل به ..

قال صاحب الاغاني :

« كان ساكنو المدينة في اول الدهر قبل بني اسرائيل قوماً من الامم الماضية يقال لهم العماليق وكانوا قد تفرقوا في البلاد وهم أهل عز وبغي شديد .

وكان ساكنو المدينة منهم. بنو هف وبنو سعد وبنو الازرق. وبنو مطروق وملك الحجاز يومئذٍ رجل يقال له الارقم ينزل ما بين تيماء الى فدك . وكانوا قد ملأوا المدينة ولهم بها نخل كثير وزروع .

وكان موسى بن عمران عليه السلام في عنفوان مجـــده وقد بعث الجنود الى الجبابرة من اهل القرى يغزونهم ، وبعث الى العماليق جيشاً من بني اسرائيل ، وامرهم بان يقتلوهم جميعاً ، اذا ظهروا عليهم ولا يستبقوا منهم احداً .

فقدم الجيش الحجاز . فاظهرهم الله عز وجل على العماليق فقتلوهم أجمعين الا ابناً للارقم ، فـانه كان وضيئاً جميلاً فضنوا به عن القتل وقالوا : نذهب به الى موسى فيرى فيه رأيه . فرجعوا الى الشام فوجدوا موسى عليه السلام قد توفي . فقالت لهم بنو اسرائيل : ما صنعتم . فقـالوا أظهرنا الله جل وعز عليهم فقتلناهم ولم يبق منهم احد غير غلام كان شاباً جميلاً فنفسنا به عن القتل وقلنـــا نأتي به موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه .

فقالوا لهم : هذه معصية .قد أمرتم ان لا تستبقوا منهم احداً والله لا تدخلون علينا الشام أبداً .

فلما صنعوا ذلك قالوا : مـــا كان خيراً لنا من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز. نرجع اليهم فنقيم بها.فرجعوا على حاميتهم حتى قدموا المدينة فنزلوها. وانتشروا في نواحيها كلها الى العالية فاتخذوا بهـا الآطام « الحصون » والاموال والمزارع . ولبثوا بها زماناً طويلاً ..

ثم ظهرت الروم على بني اسرائيل جميعاً بالشام فوطـأوهم وقتلوهم . فخرج بنو النضير وبنو بهدل « اليهود » هاربين منهم الى من بالحجاز من بني قومهم لمـا غلبتهم الروم على الشام .

فلما فصلوا عنها باهليهم بعث ملك الروم في طلبهم ليردهم فأعجزوه وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز . فلما بلغ طلب الروم الثمد . انقطعت اعنـّـاقهم عطشاً فماتوا . وسمي الموضع ، الروم ثمد ، فهو اسمه الى اليوم .

فلـــا قدم بنو النضير وقريظة وبهدل المدينة نزلوا الغابة فوجدوها وبيئة . فكرهوها . وبعثوا رائداً امروه ان يلتمس لهم منزلاً سواها .

فخرج حتى اتى العالية ، وهيَ بطحـــان ومهزور ، واديان على تلاع أرض

عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر ، فرجع اليهم فقال : قد وجدت لكم بلداً طيباً فيه واديان على تلاع عذبة في متأخر الحرة ، فتحول القوم اليها من منزلهم ذلك. فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان . وكانت لهم ابل نواعم فاتخذوها اموالاً . ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور فكانت لهم تلاعة وما سقي من أرضه .

وكان يسكن يثرب جماعة من ابناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود .

وكان بنو مرانة في موضع بني حارثة . ولهم كان الأطم الذي يقال له الخال. وكان معهم من غير بني اسرائيل بطون من العرب . منهم بنو الحرمان حي من اليمن . وبنو مرشد حي من بلى ، وبنو معاوية حي من بني سليم . وبنو الشظية حي من غسان . وكان يقال لبني قريظة وبني النضير ، خاصة من اليهود ، الكاهنان ، « نسبوا بذلك الى جدهم الذي يقال له الكاهن كما يقال العمران والحسنان والقمران » ، فلما أرسل الله سيل العرم على اهل مأرب وهم الأزد قام رائدهم فقال :

من كان ذا جمل مغنٍ ووطب مدنٍ فلينقلب عن بقرات النعم فهذا اليوم يوم هم وليلحق بالثني من شن « موضع بالشراة » فكان الذين نزلوه ازدشنوءة .

ثم قال لهم : ومن كان ذا فاقه وفقر وصبر على ازمات الدهر فليلحق ببطن مرّ . فكان الذين سكنوه خزاعة . اصحاب مكة .

ثم قال لهم : « من كان منكم يريد الخمر والخمير والأمر والتأمير ، والديباج والحرير فليلحق ببصري والحفير وهي من ارض الشام فكان الذين سكنوه غسان . ثم قال لهم : ومن كان منكم ذا هم بعيد وحمل شديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد فكان الذين نزلوه ازدعمان . ثم قال : ومن كان يريد الراسخات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكان الذين نزلوها الاوس والخزرج .

فلما توجهوا الى المدينة تفرقوا . منهم من لجأ الى عفاء من الارض لا ساكن فيه فنزلوا به . ومنهم من لجأ الى قريه من قراها فكانوا مع اهلها ، واقـاموا في منازلهم التي نزلوها بالمدينة في جهد وضيق في المعاش ليسوا باصحـاب ابل ولا شاء لأن المدينة ليست بلاد نعم، وليسوا باصحاب نخل ولا زرع ، وليس للرجل منهم الا الاغـداق اليسيرة والمزرعة يستخرجهـا من ارض موات ، والاموال لليهود . فلبثت الاوس والخزرج بذلك حيناً » .

ذلك مـا رواه مؤرخو العرب عن الشعوب التي ذكرت . ثم كتبوا بعده الروايات عن الاوس والخزرج النازلين بين اليهود قالوا :

« وفد رجل من بني الخزرج يدعى مالك بن العجلان الى ابي جبيلة الغساني وهو يومئذٍ ملك غسان .

[ليس في ملوك غسان ملك يدعى ابا جبيلة ولعله احد امرائهم]

فسأله الامير عن قومه وعن منزلتهم . فأخبره بحـالهم وضيق معاشهم فقال له ابو جبيلة : والله ما نزل قوم منا بلداً الا غلبوا أهله عليه فمـا بالكم ؟ ثم امره بالمضي الى قومه وقال له : اعلمهم اني سائر اليهم ، فرجع مـالك بن العجلان فأخبرهم بأمر ابي جبيلة ثم قـال لليهود : ان الملك يريـد زيارتكم فأعدوا نزلاً ، فأعدوه ، واقبل ابو جبيلة سائراً من الشام في جمع كثيف حتى قدم المدينة فنزل بذي حرض .

ثم ارسل الى الاوس والخزرج فذكر لهم الذي قدم له واراد ان يمكر باليهود حتى يقتل رؤوسهم واشرافهم وخشي ان لم يمكر بهم ان يتحصنوا في اطـامهم فيمنعوا منه حتى يطول حصاره اياهم .

فأمر ببنيان حائر واسع فبني ثم ارسل الى اليهود : ان أبا جبيلة الملك قـد قد احب ان تأتوه

فلم يبق وجه من وجوه القوم الا اتاه وجعل الرجل يأتي معه بخاصته وحشمه رجاء ان يحبوهم ويحسن اليهم ، فلما اجتمعوا ببابه أمر رجالاً من جنده ان

يدخلوا الحائر الذي بني ثم يقتلوا كل من يدخل عليهم من اليهود .. وامر حجابه بان يأذنوا لهم في الحائر ويدخلوهم رجلاً رجلاً .

فاذن لهم الحجاب وجعل الجند الذين في الحائر يقتلونهم حتى أتوا على آخرهم، فقالت سارة القريظية ترثي من قتل منهم :

بنفسي امة لم تغن شيئاً ... بذي حرض تعفيها الرياح
كهول من قريظة اتلفتهم ... سيوف الخزرجية والرماح
رزئنا والرزية ذات ثقل ... يمر لأهلها الماء القراح
ولو اذنوا بامرهم لحالت ... هنالك دونهم حرب رداح

وقال الرمق وهو عبيد بن سالم احد بني الخزرج من قصيدة يمدح بها ابا جبيلة:

وابو جبيلة خير من يمشي واوفاهم يمينا
وأبرهم براً وأعلمهم بفضل الصالحينا
ابقت لنا الأيام والحرب المهمة تعترينا
كبشاً لنا ذكراً يفل حسامه الذكر السمينا
ومعاقلاً شماً واسيافاً يقمن وينحنينا

فلما أنشدوا أبا جبيلة ما قال الرمق . ارسل اليه فجيء به . وكان رجلاً ضئيلاً غير وضي . فلما رآه قال : عسل طيب ووعاء سوء . فذهب مثلاً ، ثم للأوس والخزرج : ان لم تغلبوا على هذه البلاد بعد من قتلت من أشراف اهلها فلا خير فيكم . ثم رحل الى الشام .

وأقاموا زمناً بعدما صنع واليهود تعترض عليهم وتناوؤهم . فقال مالك بن عجلان لقومه :

والله ما اثخنا يهود غلبة كما نريد . فهل لكم ان اصنع لكم طعاماً ثم أرسل في مائة من اشراف من بقي من اليهود فاذا جاؤوني فاقتلوهم جميعاً .

فقالوا نفعل . فلما جاءهم رسول مالك قالوا : والله لا نأتيهم ابداً وقد قتل ابو جبيلة منا من قتل .

فقال لهم مالك : ان ذلك كان على غير هوىً منـا وانما اردنا ان نمحوه وتعلموا حالكم عندنا . فأجابوه. فجعل كلما دخل عليه رجل منهم أمر به مالك فقتل . حتى قتل منهم بضعة وثمانين رجلاً ، ثم ان رجلاً منهم أقبل حتى قام على باب مالك فتسمع فلم يسمع صوتاً فقال : أرى أسرع ورد وأبعد صدر .

فرجع وحذر اصحابه الذين بقوا فلم يأتِ منهم احد .

قالوا : وصورت اليهود مالكاً في بيعهم وكنائسهم فكانوا يلعنونه كلمـا دخلوها ، فلما قتل من قتل منهم ذلوا وقلّ امتناعهم وخافوا خوفـاً شديداً وجعلوا كلما هاجمهم احد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمشِ بعضهم الى البعض الآخر كما كانوا يفعلون قبل ذلك . ولكن يذهبون الى جيرانه الذي هو بين ظهرانيهم فيقول : انما نحن جيرانكم ومواليكم . فكان كل قوم منهم قد لجأوا الى بطن من الأوس والخزرج يتعززون به .

ذلك هو تاريخ المدينة بسطناه لك كما ورد لان للمدينة شأناً في الحجـاز ولكي تزداد علماً بذلك التاريخ ونورد لك حوادث أخرى لها علاقة بما قرأت حوادث زعزعت اركان ذلك الاتحاد العربي في يثرب وجعلت الرجل فيها عدو أخيه لا يعبأ بصلة الرحم يدوسها بقدميه ولا يبالي بالجار يحمل له الموت بين يديه.

* * *

اصبحت الأوس والخزرج بعد نكبة اليهود اعز اهل يثرب واعظمهم نفوذاً، فكثرت اموالهم وبعد ذكرهم . وما لبثوا حتى شيدوا الحصون والقصور وهم مجتمعون متحدون ؛ السماء صافية فوقهم والدنيا تضحك لهم والارض تخرج لهم من جوفها النعم .

وللقوم سيدان هما صاحبا السلطان والرأي ، مالك بن العجلان سيد بني الخزرج . وأحيحة بن الجلاح سيد الاوس .

فبينا القوم على ما رأيت من الهدوء بعث رجل من غطفان من بني ثعلبة بن

ذبيان الى يثرب بفرس وحلة مع رجل من قومه وقال له : « أدفع الفرس والحلة الى أعز أهل يثرب .

فجاء الرسول بهما حتى ورد سوق بني قينقاع فقال ما أمر به ، فوثب اليه رجل من غطفان كان جاراً لمالك بن العجلان الخزرجي يقال له كعب الثعلبي فقال : مالك بن العجلان اعز اهل يثرب ، وقام رجل آخر فقال : بل احيحة ابن الجلاح اعز اهل يثرب . وكثر الكلام . فقبل الرسول الغطفاني قول الثعلبي الذي كان جاراً لمالك بن العجلان ودفعهما الى مالك .

فقال كعب الثعلبي : ألم اقل لكم ان حليفي اعزكم وافضلكم ، فغضب رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف يقال له سمير فرصد الثعلبي حتى قتله ، فأخبر مالك بذلك ، فأرسل الى بني عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس :

انكم قتلتم منا قتيلاً فارسلوا الينا بقاتله .. فلما جاءهم رسول مالك تراموا به ، فقالت بنو زيد : انما قتلته بنو جحجبا ، وقالت بنو جحجبا : انما قتلته بنو زيد . ثم أرسلوا الى مالك : انه قد كان في السوق التي قتل فيها صاحبكم ناس كثير ولا يدري ايهم قتله ، فأمر مالك اهل تلك السوق بان يتفرقوا ، فلم يبقَ فيها غير سمير وكعب ، فارسل مالك الى بني عمرو بن عوف بالذي بلغه من ذلك وقال :

انما قتله سمير فارسلوا به اليّ اقتله .

فأرسلوا اليه : انه ليس لك ان تقتل سميراً بغير بيّنة .

وكثرت الرسل بينهم في ذلك يسألهم مالك ان يعطوه سميراً ويأبون ان يعطوه اياه ..

ثم ان بني عمرو بن عوف كرهوا ان ينشبوا بينهم وبين مالك حرباً فأرسلوا اليه : ان صاحبكم حليف وليس لكم فيه الا نصف الدية .

فغضب مالك وأبى ان يأخذ فيه الا الدية كاملة او يقتل سميراً .. فابت بنو عمرو بن عوف ان يعطوه الا دية الحليف وهي نصف الدية ، ثم دعوه ان يحكم

بينهم وبينه عمرو بن امرىء القيس احد بني الحرث بن الخزرج وهو جد عبدالله ابن رواحة ، ففعل . فانطلقوا حتى جاءوه في بني الخزرج فقضى على مالك بن العجلان انه ليس له في حليفه الا دية الحليف ، فابى مالك ان يرضى بذلك وآذن بني عمرو بن عوف بالحرب واستنصر قبائل الخزرج، فأبت بنو الحرث بن الخزرج ان تنصره غضباً حين ردّ قضاء عمرو بن امرىء القيس .

فقال مالك بن العجلان يذكر خذلان بني الحرث بن الخزرج له وعطف بني عمرو بن عوف على سمير ويحرض بني النجار على نصرته من قصيدة :

ان سميراً ارى عشيرته قد حدبوا دونه وقد انفوا
لا يسلمونا لمعشر ابداً ما دام منا ببطنها شرف

وقال درهم اخو سمير في ذلك :

يا قوم لا تقتلوا سمير فان القتل فيه البوار والاسف
ان تقتلوه ترنّ نسوتكم على كريم ويفزع السلف

ثم ارسل مالك بن العجلان الى بني عمرو بن عوف يؤذنهم بالحرب ويعدهم يوماً يلتقون فيه . وأمر قومه فتهيأوا وتحاشد الحيان . وجمع بعضهم للبعض الآخر ..

وكانت اليهود قد حالفت قبائل الأوس والخزرج الا بني قريظة وبني النضير فانهم لم يحالفوا احداً منهم . حتى كان هذا الجمع فارسلت اليهم الأوس والخزرج كل يدعوهم الى نفسه . فاجابوا الأوس وحالفوهم .

ثم زحف مالك بمن معه من الخزرج . وزحفت الاوس بمن معها من حلفائها من قريظة والنضير . فالتقوا بفضاء كان بين بني سالم وقباء . وكان اول يوم التقوا فيه . فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انصرفوا وهم منتصفون جميعاً ثم التقوا مرة اخرى عند اطم بني قينقاع حتى حجز الليل بينهم . وكان الظفر يومئذ للأوس على الخزرج .

ولبث القوم متحاربين عشرين سنة في امر سمير يتعاودون القتال في تلك السنين وكانت لهم فيها ايام لم تحفظ .

فلما رأت الأوس طول الشر وان مالكاً لا يفرغ قال لهم سويد بن صامت الأوسي وكان يقال له الكامل في الجاهلية .

يا قوم أرضوا هـذا الرجل من حليفه ولا تقيموا على حرب اخوتكم فيقتل بعضكم بعضاً ويطمع فيكم غيركم وان حملتهم على انفسكم بعض الحمل .

فارسلت الاوس الى مالك بن العجلان يدعونه الى ان يحكم بينه وبينهم المنذر ابن حرام جد الشاعر العربي حسان بن ثابت .

فاجابهم الى ذلك .

فخرجوا حتى اتوا المنذر وهو في البئر التي يقال لها سميحة فقالوا : انـّا قد حكـّمناك بيننا .

قال : لا حاجة لي في ذلك .

قالوا : ولمَ ؟؟

قال : أخاف ان تردوا حكمي كما رددتم حكم عمرو بن امرىء القيس .

قالوا : فانـّا لا نرد حكمك فأحكم بيننا .

قال : لا احكم حتى تعطوني موثقاً وعهداً لترضون بحكمي وما قضيت به .

فاعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم . فحكم بان يؤدي حليف مـالك دية الصريح ثم تكون السنة فيهم بعده على ما كانت عليه في الصريح على ديته والحليف على ديته وان تعد القتلى الذين اصاب بعضهم من بعض في حربهم ثم يعطوا الدية لمن كان له فضل في القتلى من الفريقين .

فرضي بذلك مالك وسلمت الاوس وتفرقوا على ان أهل بني النجار نصف دية جار مالك معونة لاخوتهم . وعلى بني عمرو بن عوف نصفها .

فرأت بنو عمرو بن عوف انهم لم يخرجوا الا الذي كان عليهم . ورأى مالك انه قد أدرك ما كان يطلب . وودى جاره دية الصريح .

والأوس والخزرج هم القوم الذين عرفوا بعد الاسلام بالانصار ، انصار النبي العربي الكريم .

* * *

هذا عمك قصي يا سودة يريد ان يستشيرك في بعض اموره فهل تأذنين له في الدخول ؟؟ فابتسمت تلك الفتاة الكسحاء لابيهـا قائلة : عمي سيد العرب وله ان يدخل عندما يشاء !!

فسمع قصي وكان بالباب فدخل وهو يقول : ان عمك اليوم احد الصعاليك وليس في يده ما يسود به قومه .

فقالت له : لو كان المال يرفع الناس لارتفع الكثيرون في مكة الى السماء .. ان القوة الكامنة في صدرك ستجعل لك في الحجاز عرش ملك ..

فنظر الى أخيه زهرة نظرة ظافر ثم قال : اما القوة وحدها فلا تكفي .

فجعلت تتفرس في عينيه وفي جبينه وعيناهـا تلمعان ووجهها يفيض بهجة ونوراً .. ثم دعت اباها وعمها الى الجلوس قائلة :

أتترك مكة يا عم ؟

— : اجل . أتركها بضعة أشهر . ومن قال لك هذا ؟

— : سمعتك تقول المال والمال لا يطلبه الرجل وهو في بيته .

قال : لقد كتب لبعض الناس ان يناموا فوق الذهب وهم لم ينقلوا في سبيله قدماً ..

— : هنا في الحجاز ؟

— : بل في مكة جيران الكعبة .

فعرفت سودة ما أراد فقالت : اولئك هم الامراء يهبط عليهم الذهب من فوق ..

— : وتنحني لهم الجباه كأنهم آلهة ..

قالت : سيصبح عز هؤلاء كلهم بين يديك . الى اين انت ذاهب اليوم ؟

— : فكرت في الذهاب الى البحرين ثم اعود منها الى يثرب .

فقال زهرة : وماذا تفعل في البحرين ؟

— : احمل اليها انسجة الشام ..

قال : لم تقم السوق في البحرين وقد لا تجد فيها ما تطلبه .

— : اذن اسير الى الحبشة او الى فارس .. ألم تقل لي ان بني قومنا يحملون منها الشمع والسكر في كل عام ؟؟

— بلى ولكن قومنا لا يرحلون الى اليمن والى بلاد الفرس الا في الشتاء .

— : اما انا فارحل اليوم ..

فدهش زهرة قائلا : ومن رفقاؤك يا قصي ؟؟

— : لم افكر في هؤلاء الرفقاء .

— : اي انك لم تفكر الا في الانسجة تبيعها ثم تشتري بثمنها ما يطيب لك.

— : اجل واي شأن لي مع غيري من الناس ؟

— : شأنك ان الحجازي لا يترك الحجاز وحده سائراً الى الحبشة او الى اليمن الا اذا كان مجنوناً ..

قال : لم افهم هذا فاعمد الى الجلاء ..

قال : اذا خرج اهل الحجاز الى البلد البعيد للبيع والشراء خرجوا طوائف وفرقاً عليها القواد والرؤساء .

— : ومعنى ذلك ؟

— : معناه انهم اذا حملوا انسجتهم الى ذلك البلد وجب ان يحموا ما يحملون ...

— : ممن ؟

— : من جميع الناس الذين يمرون بينهم . ان الغزو يسود في بلاد الناس كما يسود في بلاد العرب ، واطماع الشعوب من جميع الاجناس ليس لها حد . والشذاذ والصعاليك كثيرون ، وهم يرون في كل ركب يروح او يجيء مطمعاً يبلغون به اغراضهم ، أتسير وحدك يا قصي ورحلة مثل هذه لا يرجع منها الا الجيش الجرار ؟

فالتفت قصي الى سودة فاذا هي ذاهلة وقد اغمضت عينيها فقال : ألا تسمعين يا بنية ؟

فاجابته قائلة : لقد سمعت والصواب فيما يقوله .

— : وما الرأي ؟

— : أرى ان لا تتجاوز الحجاز الا مع القوم في الشتاء .

— : ولكن ألا تظنين ان الخطر الذي يخافه زهرة لا وجود له ؟

— : ليس في كل ما قاله أبي غلو . ان الخطر في اول خطوة تخطوها خارج الحجاز . .

— ولماذا لا يوجد هذا الخطر الذي تذكرين في الحجاز نفسه ؟

— : لانك اذا ذكرت نسبك لأهله عرفوا مقامك ولم يعرضوا لـك بسوء . انك من القوم الذين تحترمهم العرب في هذا القطر .

— : أليس لكنانة ذكر الا فيه ؟

— : هب ان لهم ذكراً في غيره فليس لهم فيه نفوذ . انظر الى ملوك كندة واليمن والعراق . ان الملك منهم اذا رحل رحلة صيد مشت الجنود امامه ووراءه يمنعون الشذاذ من الوصول اليه .

قال : يدفعهم الى ذلك ابهة الملك . .

— : بل الخوف من طوائف معروفة لا تبالي بالملوك . هذا تبّع ابو كرب اعظم ملوك العرب قتل ابنه غيلةً ولم يعبأ به .

— : ومن هو قاتله ؟

— : اهل يثرب فليرو لك ابي خبر قتله .

قال : هات يا زهرة . . لقد سمعت خبر ابي كرب وانا في الشام . ولكني لا اذكره .

قال : ألم ترَ تلك الحبر اليمنية في الكعبة .

— : رأيتها فما هي ؟

— : هي الكسوة التي كسى بها الكعبة تبع الذي ذكرت . وهو اول من فعل ذلك تعظيماً لها .

قال : أهذا حديث القتل ؟

— : ليس كله بل بعضه . وابو كرب هو الذي جعل للكعبة باباً يغلق .

— : ولم يكن لها باب من قبل ؟

— : لا .

— : هات ايضاً

قال : سأعطيك .. ان ابا كرب هذا من الرجال المغاوير .. كان بعيد الصوت كثير المغازي ، ينتقل من بلد الى بلد ، ومن فتح الى فتح والنصر يخفق مع بنوده ..

قال : ذلك من احب من الرجال ؟

— : وقد غزا المشرق فاخضع الشعوب واذلّ الملوك وعاد الى اليمن يحمل الوية الظفر .

— : ولكن ..

— : ولكنه يحمل مع ظفره هماً انساه كل ما لقيه من مجد هو حزنه على ولده الذي قتلوه .

قال : لقد وصلنا الآن .

— : نعم ، ان ابا كرب مرّ بالمدينة في طريقه الى المشرق .

— : وحمّل اهلها ما لا يطيقون حمله فقتلوا ابنه ..

قال : مرّ ولم يعرض لهم ولم يهج احداً وترك بينهم ابناً له يقيم بيثرب حتى يعود .

— : فلما سار مع جنوده لاخضاع الاقطار غدروا بولده

— : اجل ولم يبالوا بذلك الغازي الجبار الذي تهابه الجن .

— : وماذا جرى بعد ذلك ؟

— : عاد تبع فقيل له ان ولده قد قتل ولم يعرف قاتله ، وزادوا على ذلك ان رجلاً من بني النجار يقال له احمر قتل ضابطاً من ضباط ابي كرب والقاه حين قتله في بئر من آبارهم يقال لها ذات تومان .

قال : ذكرت الآن ان الحرب نشبت بينهم وبين الملك اليمني لهذا السبب .

— : نعم ورئيس القوم يومئذٍ عمرو بن الطـــلة من الخزرج ، ويقولون انهم كانوا يقاتلونه في النهار ويطعمون جيشه في الليل ..

— : ذلك خبر جديد لم اسمعه ..

— : وهو غريب كما ترى ، ومع ذلك فالناس يروونه وبينهم من كان في يثرب في ذلك العهد..

— : وكيف انتهت الحرب ؟

قال : كان اليهود اصحاب يثرب كما تعلم .

— : نعم

— : وبينهم الاحبار والعلماء اصحاب الرأي فأقبل منهم اثنان من بني قريظة يسألان الملك ان يكف عن الحرب فرضي واغمد سيفه .

— : ودم ولده ؟

— : تركه كما يترك الملك ثأره وهو قادر عليه ونسي ذلك الدم الذكي كما ينسى الأبي النبيل غـدر الضعيف . ولكنه سأل الحبرين ان يخرجا معه الى اليمن وقد اعجبه دين اليهود وسمعنا بعد ذلك انه تهوّد مع قومه ..

قال اسألك عن الأوس والخزرج أكانوا يدفعون خراجاً لليهود من قبل ؟

— : اجل واليهود بدورهم يؤدون الخراج للفرس .

— : اذن يدفع القوم خراجين .

— : نعم خراج الفرس لعاملهم على تهامة والمدينة وخراج قريظة والنضير .

— : وماذا كان من امر كسوة البيت ؟

قال : ترك تبّع المدينة قاصداً مكة وهي طريقه الى اليمن . حتى اذا كان بالدّف من جمدان بين عسفان وأحج ، اتاه نفر من هذيل يسألونه ان يستولي على مال الكعبة .

— : من هذيل ؟؟ وهل في الحجاز قوم يستهينون بالبيت ؟

قال : لا ولكنهم ارادوا ان يهلـــك تبّع في مكة اذا هو استخف بكعبة العرب .. ان جميع الذين استخفوا بها هلكوا.. قالوا له : « ايها الملك ألا ندلك

على بيت مال داثر قد اغفلته الملوك قبلـــك فيه اللؤلؤة والزبرجد والياقوت والذهب ؟

قال : بلى .

قالوا : « بيت بمكة يعبده اهله ويصلون عنده »

فارسل الى الحبرين اللذين معه يسألهما عن ذلـــك فقالا له : لم يرد القوم الا هلاكك وهـلاك جندك ولئن فعلت ما دعوك اليه لتهلكن وليهلكن من معـك جميعـــا » .

قال : فماذا اصنع ؟

قالا: «اذا قدمت مكة فاصنع عند البيت ما يصنع اهله. تطوف به وتعظمه وتتذلل له حتى تخرج » .

— : ما يمنع اليهود من ذلك ؟

قالوا : « لقد حال اهله بيننا وبينه بالاوثان التي نصبوا حوله وبالدمـــاء التي يهرقون عنده » .

فقال قصي : أتقول اليهود هذا وتسكت العرب ؟

— : لم تعرف العرب ذلك الا بعد ان انقضى الزمان .

فجعل يهز رأسه وهو يقول :

حتى ان اليهود وهم في الحجاز يستهينون بالعرب .. وبعد ذلك ؟

— : « بعد ذلك قرّب الملك النفر من هذيل فقطع ايديهم وارجلهم ثم مضى حتى قدم مكة » .

« وقد اري في المنام ان يكسو البيت فكساه الخصف « الاثواب الغليظة » ثم أري ان يكسوه احسن من ذلك فكساه المغافر . ثم أري ان يكسوه احسن من ذلك فكساه الملاءَة والوصائل وكان تبّع هذا اول من كساه وأوصى به ولاته وجعل له باباً ومفتاحاً » .

قال : لقد خرجنا عن الأمر الذي قـدمت لاجله . اني جئت لاستشير سودة

في امر السفر فكانت هـذه الاستشارة حديثاً عن التبابعة وعن اليمن ، انعدل عن السفر بعد ان هممنا به ؟

فقالت سودة : ارجو منك يا عم ان لا تتجاوز الحجاز كما قلت لك ، لقد اردت السفر الى البحرين والرجوع منها الى يثرب فاترك البحرين الآن فلا سوق فيها واكتفِ بالذهاب الى المدينة ففيها الغنى ..

قال : اذهب الى الشام اولاً فأحمل انسجتها .

— : بل تترك الشام فطريقهم مثـل طريق البحرين والخطر كثير . أو لم تر الحجاج اذا قدموا منها قدموا مجتمعين .

— : وماذا افعل في المدينه اذن ؟

- : يعطيك ابي بعض ماله فتشتري الصوف ..

فقال زهرة : ان مالي كله لك يا قصي . وقد وهبت لك النوق التي تحمـل صوفك ..

قال : سأردها ضعفين .

قالت : بل تعطيه بعد قليل عطايا الملوك ..!

قال : أأصير ملكا بنية ؟؟

— : نعم ويمتد رواق هذا الملك فوق الحجاز كله .

— : ومن اوحى اليك بهذا ؟

فقالت دون ان تتردد : ذلك الذي اوحى اليك بان تخطب حبّى بنت حليل لتمهد لك طريق العرش ..

فنظر الى زهرة نظرة عتاب

وقد قام في ذهنه انه قصّ على سودة ذلك الحديث الذي دار بينه وبينه .

فعرف زهرة معنى تلك النظرة القاسية فقال :

لم اذكر لها شيئاً ورب الكعبة .

قال : اذن فانت تعرفين ما في القلوب يا سودة ..

قالت : وأي شأن للكهانة في العرب اذا كان صاحبها جـاهلاً ؟ اني اعرف

من امرك يا عم ما تعرفه انت .
قال : حدثيني بهذا الأمر ..
— : لا ابوح لك الآن الا بما سمعت .
— : تبوحين لي ببعض امري وتكتمينني البعض الآخر ؟ .. ذلك ما لا أرضاه .
— : بل ترضى فأنا مكرهة على السكوت وليس ذلك البعض في يدي لأبوح به .
— : الا تذكرين لي شيئاً منه ؟
— : اذكر لك ان بينك وبين العرش الذي ستبنيه حروباً تملأ مكة وجوارها جثثاً ..
فارتعش قائلاً : سودة ..
قالت : وسيقوم من ابناء عمنا من يشهر عليك السيف ..
فقال في نفسه : اولئك هم بنو بكر بن عبد مناة .. انهم فرع من كنانة .
ثم قال لها : وبينهم الامراء ..؟
— بينهم وجوه كثيرة لا اعرفها ..
— : ومن يقاتلني من اصحاب حليل ؟؟
— فابتسمت قائلة : لا اعلم .
بل تعلمين .. قولي كلمة ليس غير .
— : قلت اني لا أعلم فأرجو ان تكف عن السؤال .
— : وبنو صوفة !
— : ماذا ؟
— : ايكونون لي ام عليّ ؟
— : وهذا ما لا اعرفه
ثم ارادت ان تغيّر الحديث فقالت : اذا بعت الصوف فاشترِ من اهل المدينة بعض الادراع .

قال : اليوم ؟

– : نعم اليوم حتى يجتمع لديك منها العدد الكثير عندما تستعر النار .

فارتجفت شفتا قصي عندما سمع تلك الكسحاء تخاطبه بأمر مستقبله وتوصيه بان يعد للحرب عدتها من الآن .. ولكن البهجة كانت تملأ نفسه والاعجـــاب بسودة يملك عليه مشاعره ، انهـا تعلم كل شيء .. وقد ذكرت له بعض اسراره والاطماع التي تجول في صدره وتنبأت له بأنه سيبني العرش الذي يفكر فيه .. ولكنه اراد على رغم مـا رأى . ان يمعن في الاختبار ويسأل سؤالاً آخر قبل ان يغادر مكة فقال لها : اسألك سؤالاً آخر يا بنية .

فاجابته وهي تنظر الى الارض تريد ان تسألني عن حليل بن حبشية ..!

قال : أجل ، فهل يرضى بي زوجاً لابنته ؟

قالت : وهذا ايضاً ليس في يدي لأقول لك عنه ولكني اعلم ان حبى ابنته تفكر فيك .

فتمتم قائلاً : هذا يكفي فقد رأتني مع زهرة امام القصر .

قالت : اتحبها يا عم ؟

– : لقد بدأت الآن في هذه الساعة اشعر بهذا الحب ..

– : كما انت تشعر منذ ايام بان في يد حبى مفتاح الكعبة ..

فقال لأخيه : يخيل الي انك حدثتها بأمري .

قال : وتربة كلاب بن مرة لم افعل .

فضحكت سودة وهي تعبث بخيزرانة في يدها .

قال : اراكِ تضحكين .

فلم تجب . لان عمها لم يكن واثقاً بما تقول ..

فقال : خبريني يا سودة .

– : ليس عندي ما اقوله لك .

– آمرك بان تفعلي ..

فبرقت عيناها وهي تقول : لك ان تأمر الناس عندما تصير ملكاً ..

ــ اذكري ما تعلمين عن بنت حليل ..

ــ : اما الآن فلا ..

قال : ارجع في هذا الليل ؟

قالت : اذا رجعت فلا تسمع شيئاً ولكن اصبر ريثما تعود من المدينة ومعك الأدراع ..

ــ : اين توجد هذه الادراع يا زهرة ؟

ــ : عند الاوس والخزرج وقد نجد منها في احياء اليهود .

فاطرق ملياً ثم قال :

أأشتري بمالك عدة الحرب وقد تكون احوج مني الى هذا المال ؟

فقاطعته سودة قائله : ليس كثيراً على قومنا ان يبذلوا في سبيل سيدهم وملكهم ماهم كله ..

قال : لقد احسست الآن اني ملك .. وارتسمت على جبينه دلائل الوقار والعز . . .

فقالت له : اشترِ بمال قومك ما تشاء .. فلا يرتفع لقومك ذكر الا اذا فعلت ما تشاء ..

قال : سأترك مكة وانا افكر في حبى ..

قالت : ولا تنسَ ان تشتري لها درعاً فربما خاضت معك غمار الحرب .

ضحكت كعادتها والقت الخيزرانة من يدها كأنها تقول : ان الحديث قد انتهى الآن ..

فلم يرَ قصي ان يحدثها بشيء بعدما رأى اصرارها على الكتمان .. وخرج مع زهرة وهو لا يدري لشدة فرحه اين يضع قدميه ؛ فقد وثق بذلك القول الذي سمعه وبان الدهر سيبسم له ..

* * *

عرفت مولاي فهو صفوان بن الحارث نفسه ، فاضطربت ليلى وحبست انفاسها .

فقال ابو زياد : احدثته يا عبدالله ؟
– : نعم وطال حديثنا وقد تركت صفوان عند الكعبة .
ومتى كان ذلك ؟
– : الآن .
فجلس زياد الى جانب ابيه وبينهما ليلى وهي تقول : سيقص علينا عبدالله الآن حكاية جديدة ..
– : نعم يا مولاتي وهي حكاية ذات اقسام .
قالت : نسمع القسم الاول منها .
– : اما الاول فصفوان فتىً لا تقع العين على احسن منه في عذوبة الحديث وجمال الوجه ، انه كما وصفه مولاي زياد فتان ساحر النظرات .
فقاطعه زياد قائلاً : لقد عرفنا هذا فاذكر ما لا نعرفه .
– : وهو من الفتيان الذين اذا حدثتهم بدت لك نبالة اخلاقهم وعظمة نفوسهم
فقالت ليلى ضاحكة : نحن لم نزل في القسم الاول يا عبدالله ..
– : نعم ومن هذا القسم ان صفوان ذو قناع لا ينزعه عن وجهه الا عندما يجن الظلام ..
قالت : تلك رواية قديمة رويتها لنا من قبل .. فهات القسم الثاني اذا شئت.
قال : واما الثاني فان الرجل حاول التحجب عندما تصديت له وهو يعرف اني مولى زياد بن كعب .
– : وماذا صنعت عندئذ ؟
– : لحقت به ومددت اليه يدي اسأله الاحسان .
– : ويلك اتكون مولى زياد وتفعل هذا ؟!
– : وهل تريد يا سيدتي ان امره بالوقوف فيمتثل كأنه عبدٌ لي ؟ لقد رأيته قبل الغروب يبذل ماله لفقراء الحجاج فسألته عندما سدل الليل حجابه ان يحسن الي كما احسن اليم فعرف حيلتي وهزأ بي .

– : وبعد ذلك ؟

– : وبعد ذلك تعارفنا فذكرت له الامر الذي ابحث عنه لاجله ونقلت اليه ان مولاي مدين له بالحياة وهو يحب ان يعرف الذي انقذه من جبير بن عبادة .

قال زياد : وماذا كان جوابه ؟

: لم اذكر له ذلك حتى ابتسم قائلا : ان مولاك يريد ان يذلني في بحثه عني كأنه يظن اني من اولئك الناس الذين ينتظرون جوائز الامراء على الوجب الذين يقومون به ..

فنظر زياد الى ابيه مستغرباً . فقال ابو زياد :

اذا لم يقبل الفتى الجائزة فليقبل الشكر ..

قال : ذكرت له ذلك فابى ان يزوره مولاي لهذه الغاية كما انه أبى ان يقدم هو لزيارته .

قال : لقد عرفناه وسننظر في امره .

– : ولكن بقي القسم الثالث يا مولاي .

– : وتنتهي حكايتك بعده ؟.

– : نعم ، فقد سألني سؤالا غـيّر رأيه بعده ووعـدني بانه يجيء غداً عند الصباح. فوضعت ليلى يدها على صدرها تمنع قلبها المضطرب من الوثوب، وعينا عبدالله تنظران اليها .

فقال زياد : أيجيئنا صفوان غداً ؟

– : نعم فهكذا وعد واظن انه سيفي بوعده .

– : وكيف انتقل فجأةً من الرفض الى الرضى ؟

– : دعاه الى ذلك الانتقال سؤاله الذي ذكرت .

– : اعد علينا ذلك السؤال يا عبدالله .

– : سألني عن مقر جبير .

– : وماذا قلت له ؟

– : خبرته انه ترك مكة الى حيث لا نعلم. ولكني لم اكد افعل حتى ابتسم

هازئاً وهو يقول : سأزور مولاك غداً في قصره فهذا ما كتب لي :

فساد الصمت قليلاً والثلاثة يفكرون في الامر .

ثم تولى الحديث ابو زياد قائلا : قل لي يا عبدالله ماذا فهمت من حديثه ؟

— : فهمت انه سيحدث مولاتي بشأن ابن عبادة .

— : اصبت فهو يعلم من امر الرجل ما لا نعلمه نحن .

— : كما ان مولاك عبدالله يعلم ما لا تعلمون ..

— : اذكر ما تعلم .

قال : ان عدوان في مكة وقد رأيته ..

فرقصت لحية الشيخ ابي زياد .

اما زياد فلم يبد على جبينه شيء من الاستغراب بل جعل يردد قائلاً : انه قدم مع الحجاج .. واين رأيته ؟

— : بين الصفوف وقد ارسل الي من عينيه سهمين ناريين ثم تغلل بين القوم واختفى كأنه لم يكن .

قال: ليس في القسم الثالث من حكايتك ما يستحق الذكر الا مجيء صفوان.

قال : ألم تستغرب وجود عدوان في مكة يا مولاي ؟

— : وكيف استغربه وهو عربي وله ان يحج البيت مع الناس ..

— : ومولاه ابن عبادة من العرب ايضاً ..

— : نعم وله ان يحج مثله فالكعبة لجميع العرب من كل جنس بل هي لجميع الشعوب والامم ..

قال : لو كان الحج غاية عدوان لهان الأمر .

— : وما هي غايته اذن ؟

— : اخشى ان يكون باقياً مع جبير في مكة ..

— : وما الذي تخشاه يا عبد الله . اتخاف جبيراً على مولاك كأن لا حياة لي في مكة اذا بقي فيها ؟ وهل تظن ان هذا الغادر يجسر على الظهور في السوق وانا حي ؟ ورب الكعبة لئن رأيته في حضن حليل بن حبشية لأضربنه بالسيف.

هكذا قلت له من قبل وهكذا سأصنع . والويل له اذا رأيت وجهه .
قال لا تغضب يا مولاي فانا لا اخافه ولكني اخاف غدره .
قال : ايدخل عليّ في ظلام الليل فيضرب عنقي ؟
— : بل يكمن كما يكمن الثعلب ثم يثب كالذئب ويطعن من الوراء .
— : انه اضعف من ذلك .
فقال ابو زياد : دعوا البحث في هذا الآن وانظروا في امر صفوان بن الحارث ، ماذا تريد ان تعطيه يا زياد ؟
قال : لو طلب اليّ هذا القصر لوهبته له .
فقال عبد الله : ان مثله لا يطلب شيئاً ..
قال : اعرض عليه كل ما املك حتى يرضى ..
— : وسيكون اعظم من ان يمدّ يده ..
— : ألم تقل انه من عشاق الخيل ؟
— : بلى .
— : اذن اعطيه « ام الجنادب » « والريان » والمهر الذي ركبته يوم عرض عليّ سيفه في الميدان .
— : ومع ذلك فسيأبى على ما أرى .
— : واعطيه جميع النوق التي حماها جبير ..
— : انه لا يستطيع ان يعد النوق التي يملك ..
— : اذن اتخلى له عن الامارة وينتهي الامر .
فابتسم قائلاً : لنفرض أن له حاجة يا مولاي ..
قال : يكفي ان يذكرها حتى نقضيها له . ولكن ما بالك تقول هذا وانت القائل الآن انه لا يطلب شيئاً .
قال : لا اعلم غرضه من القدوم اليك ولكني افترض ..
قال : كن واثقاً يا عبدالله بان مولاك لا ينسى فضل المحسن اليه ليطلب دمي ابذله وهذا كل ما عندي فلا تعد الى هذا الافتراض .

فهمّ عبدالله بالجواب فاسكته قائلاً : اذا كان لك مـــا تقوله فافعل ولكن لا تفترض ..

قال : اظن ان صفوان سيطلب ..

فضحك زياد وابوه ؛ اما ليلى فقطبت حاجبيها كأنها لا تريد ان يحدثها احد بامر الزواج .. ولما لم يسمع عبدالله جواباً اعاد قوله ..

فقال زياد : هل سمعت صفوان يذكر ليلى ؟

— : لا يا مولاي .

— وهل يعرف ليلى من قبل ؟

— : لم اسأله عن هذا .

— : وما الذي دعاك الى هذا الظن يا لعين ؟

قال : اسباب كثيرة يا مولاي ، منهـا ان صفوان اجمل فتيان مكة وليلى اجمل حسانهـــا فمن العدل ان يزّف ذلك الفاتن الى هذه الفاتنة فنستريح من كل شيء ..

وضحك قائلا : وعندئذٍ تنسى ليلى ابن عبادة الذي تـكاد تجن بهواه ..

وليلى على رغم ذلك القول لم تبتسم ..

اما زياد فكان يقول وهو لم يكف عن الضحك: ومن اين لها ان تنساه وهي اسيرة غرامه . ثم قال : وهل بقي شيء يا عبدالله ؟

— : بقي ان اعلم ماذا تجيب الرجل اذا سال هذا السؤال ..

— اذن فاعلم ان ليلى وحدها هي التي تتولى غندئذٍ امر الجواب ..

وكان الليل قد انقضى نصفه فانصرفوا الى مضاجعهم وليس لليلى همّ الا ان يطلع الصباح .

وكان عبدالله يقول في نفسه :

ساجعل صفوان زوجاً لليلى ولو خربت مكة ..

ولم يغمض له جفن في ذلك الليـــل . فقد احب صفوان منذ رآه ، كما يحب

مولاه ، ونام الجميع على ان يستقبلوا في الصباح ذلك الفتى الكناني الذي انقذ زيـــاداً

* * *

هذا زهرة بن كلاب يا مولاي .

– : ومن معه ؟

– : فتى لم أرَ وجهه من قبل .

وكان المتكلم احد العبيد في قصر سادن الكعبة حليل بن حبشية .

فقال له حليل : لقد أذنا لهما في الدخول .

وهمس في اذن حبى قائـــلا : سترين اني كنت مصيباً فيما ذكرته عن الفتى الشامي ، ثم التفت الى المحترش وكان الى جانبه يقول له : استقبل ولدي كلاب ابن مرة يا بني ، فخرج المحترش يرحب بالقادمين . ودخـــل زهرة وقصي ، ولم يشأ سادن الكعبة ان تنصرف حبى الى غرفة ثانية او تسدل على وجهها الحجاب.

ذلك لانه أراد ان ترى قصياً وتسمع حديثه العذب ..

وابتسم للزائرين قائلاً : أهلاً يا بني كلاب . ان كلاباً كان سيد كنانة .. اجلس يا زهرة . اجلس يا قصي . وخبرني بما رأيت في مكة .

فقبّل الاثنان يد الامير الاكبر وجلسا . ثم قال : هذا ولدي المحترش وقد رأيته يا بني بباب الكعبة . وهذه ابنتي حبى . وهذا قصي بن كلاب الذي نشأ في حي قضاعه في ربوع الشام .

وهكذا تمّ التعارف بين قصي والأخوين .

وجعل حليل يردد : اهلاً بزهرة وقصي. اننا لا نراك كثيراً يا زهرة. كأنك ناسك من اولئك النساك المقيمين بالعراق . ألا تعلم يا بني انك اعز من في مكة على حاجب البيت . اني اذكر اباك كلاباً ذلـــك الكناني الجواد الذي وهب للكعبة سيوف الذهب .

وسكت قليلاً ثم قال : لقد سمعت بعض سادات العرب ينقلون الاخبار عن سودة الكاهنة . سودة بنتك يا زهرة . وليس غريباً أن يقوم الكهان من ولد

كلاب . انكم أهل لهذا وأحب ان أرى سودة .

وكثر حديث حليل والاثنان يسمعان حتى انتهى الى ان قال : والآن ماذا رأيت عندنا يا قصي ؟

وكان قصي هادئاً ينظر برصانة الى الأمير كأنه وحده في ذلك المجلس لا يرى احداً غيره .

فقال : وماذا يرى المرء في مكة يا مولاي ؟ يرى بلداً آهلاً بالنبــلاء من العرب . وبيتاً تحجــه السادات والملوك ، وحليل بن حبشية يملأ هذا البيت جلالاً وهيبة .

فنظرت اليه حبى باعجاب وكان أخوها المحترش يفكر عندئــذٍ في كأس الشراب ..

ثم قال قصي : وانا اسألك يا مولاي عن احوال العرب .

قال : اما العرب فقبائل كثيرة لا اعرف عنها شيئاً الا عندما تقدم مكة ، ان حاجب البيت يا بني لا يعنيه من أمر العرب الا النظر في شؤون الحجاج .

— : مع انك يا مولاي سيد العرب جميعها .

فضحك حليل قائلاً : اما اني سيد العرب جميعها فذلك بالاسم ، اجل ، ان لحاجب البيت مقاماً في جميع الاقطار . في اليمن والبحرين ، وتهامة ، ونجد ، والعراق ، والشام ، ولكن ليس له فيها سلطان ، القوة والنفوذ لأولئك الملوك والأمراء الجالسين على العروش . نعم ، وبــلادهم بلاد نعم وخصب ، وعندهم الجند والحصون والاموال يبذلونها عندما يشاؤون ، ويمنعونها عندما يشاؤون . واما مكة فوادٍ كما ترى لا ينبت لنا شيئاً ، وصاحبها لا ترى المال عيناه الا في أيام الحج كما قلت .. وهو يحمل حملاً ثقيلاً يا قصي . هذا نكب بماله ، وهــذا سرق فرسه ، والآخر سلبوه حقه . وسادن الكعبه قاضٍ ينظر في كل هــذا ويقضي الحاجات . ان الحجابة منصب قديم من مناصب اليهود ، كان عندهم كاهن خاص يقوم بحراسة الهيكل ويدعونه حافــظ الباب . وليس له ان يفعل شيئاً الا الحجابة ، اما العرب فقد جعلت هذا المنصب مرجعاً لكل شيء ، لا

تطرف عين في مكة الا بإذن صاحبه .

قال : يخيل اليّ انك مللت الحجابه يا مولاي .

قال : وماذا يفعل الشيخ الذي اتعبته الايام وكثرت حوله اطماع الامراء في مكة ؟ اسمع . ان الذي يسقي الحجاج لا يرضى بمنصبه ، والذي يجيز الناس غير راض ، وقد يكون ابن عمكم الكناني ، ذلك الذي ينسأ الشهور طامعاً بمنصب آخر غير منصبه . وأنا أرى كل هذا وأحول وجهي عنه ، تاركاً الأمر للزمان حتى يسلم الحجاز ولا تهرق فيه الدماء .

قال : ان الزمان يا مولاي لا يسكت الاطماع .

فهزّ رأسه قائلاً : ستمر الأيام الباقية لي كما يمر السحاب فانزل الى القبر لا عليّ ولا لي .

— : واذا اكرهوك على حمل السيف ?

— : حملته بيدي المرتجفة واقتحمت المجال ضارباً عدو مكة حتى يسود الأمن ، وتموت الاطماع في الصدور . ثم تنهد وهو يقول : ولكن الحرب ! آه من الحرب انها قضاء الله يجتاح الناس كما تجتاح العاصفة الطائشة اغصان النخيل

فتحير قصي في موقفه . انه لا يرى مظاهر الضعف ، حتى يرى مظاهر القوة . ولا يسمع شكوى الشيخوخة حتى يبصر زهو الشباب .

أجل ، كان حليل بن حبشية قوياً وضعيفاً في وقت واحد ولم يعلم قصي ، ان دينك المظهرين ، حيلة ودهاء ، عمد اليها سادن الكعبة ليقرأ نفس الفتى الذي يحدثه .

على ان قصياً ، رأى في تلك الساعة ان يعمد بدوره الى الاختبار ، فقال : أأقول وانا آمن يا مولاي ?

— : قل ما تشاء .

قال : الا تذكر يا مولاي ان قومنا بني كنانة كانوا اعواناً لكم يوم فتحتم هذا البلد وطردتم بني جرهم ?

فاجابه قائلاً : نذكر ذلك ولا ندري ما الذي يدعوك الآن الى هذا القول .

فقال المحترش : انه يمنّ علينا ..
فتجهم وجه قصي . لكن حبى تداركت الامر قائلة :
اما انا فقد عرفت ما الذي دعاه اليه .
فافتر ثغر الفتى وسكت ينتظر الجواب .
فقال حليل : اذكري يا حبى ما تعرفين .
قالت : يريد ان يقول ان قومه الذين ساعدوا جدنا الاول في فتح مكة هم الذين يساعدون سادن الكعبة في اخضاع الطامعين .

فاشرق جبين قصي وقال : لقد عرفت يا سيدتي ما يجول في هذا القلب :
وفي تلك اللحظة تلاقى النظران . فقرأ كلاهما في عيني صاحبه عذوبة الحب .
ثم قال حليل : أهذا الذي أردته يا ابن كلاب .

— : نعم يا مولاي ، وتلك السيوف التي جردناها لنغمدها في صدور جرهم هي نفسها نجردها اليوم لنغمدها في صدر عدوك .
قال : اعلم يا ابن كلاب انه ليس لحاجب البيت عدو .
— : لقد عنيت اعداء مكة يا مولاي .
— : احسنت ولكن قل لي أتتكلم عن نفسك ام عن قومك ؟
قال : أتكلم بلسان تلك الفئة الكبيرة التي تقيم في الشعاب والجبال لا استثني منها أحداً .
— : ومن ندبكَ الى ذلك ؟
— : نفسي ..
فكاد حليل لشدة اعجابه يفتح للفتى ذراعيه ويضمه الى صدره . لكنه تكلف الهدوء قائلاً :
— : مع انك لا تعرف احداً من قومك .
— : يكفي ان يعرفوا يا مولاي اني ابن كلاب .
— : وفيهم السادات والرؤساء يا قصي .
قال : احملهم على الاعتراف بأني سيدهم .

— : ذلك زهو العشرين يا بني .

قال : سترى يا مولاي شيوخ قومي الذين بلغوا الثمانين ينحنون امام هذا الفتى الذي يخاطبك الآن .

فحولت حبى وجهها كي لا يرى القوم الدموع في عينيها السوداوين .

وعاد حليل الى الحديث قائلاً : بقي علينا ان نعلم في اي شيء تسود قومك.

— : لك ان تعلم يا مولاي ان بني كنانة جنـــد لك دون ان تسأل عن السبب في ذلك .

— : واذا اعتزلت الحجابة ؟

قال : عرفت ما تعنيه يا مولاي انك تريد ان تعلم اذا كان بنو كنانة عوناً لحاجب البيت أياً كان ام لحليل بن حبشية ، أليس كذلك ؟

— : نعم .

— : اذن فاعلم اننا انصار حليل .

قال : سأعتزل الولاية لولدي المحترش .

قال : ونحن انصاره .

— : ويقوم الامراء فيطلبونها لانفسهم .

فمدّ يده الى الامام قائلاً : اقسم بمن بنى البيت ان الحجابة لا تكون لغير حليل بن حبشية وانا حي .

فضحك قائلاً : لا يقدم على هذا القسم الا الملك البعيد الصوت الذي تقوم الجنود وراءه .

قال : ورائي ليوث في ايديها السيوف يا مولاي فلا تستخف بي . اجـل انك تقول في سرك الآن اني لا املك شيئاً . نعم يا مولاي . ولكن لا ينقضي هذا العام والعام الذي بعده حتى ترى ذلك الذي لا يملك شيئاً يملك كل شيء ..

وارتسم الجلال على جبينه . فخيل الى حبى انها ترى ملكاً يلمع فوق مفرقه التـــاج ..

وفي تلك الساعة تكلم زهرة قائلاً :

جميع ما في ايدينا يا مولاي هو لقصي .

قال : وبماذا استحق حليل بن حبشية هذا الحب ؟

فقال قصي : رأيت قومنـــا يضمرون لك الحب فكنت مثلهم ؛ وسمعت الحجـاج من اشراف العرب من قضاعة وكندة وتميم وطيء يتناقلون الثناء على حاجب البيت فوضعت يدي حيث وضعوا ايديهم واقسمت اني سأكون له ولداً ولو لم يرد ان يكون لي أباً ..

فنظر حليل الى حبى كأنه يذكرها ذلك الحديث الذي دار بينه وبينها عن قصي ، ثم قال : وحاجب البيت يقسم لك الآن انه سيكون لك ولقومك الوالد البار .. قل الآن ماذا تريد ان تصنع في مكة .

— : سأغادرها بعد ايام يا مولاي .

— : الى أين ؟

وقد استولت الكآبة على الفتاة العاشقة ..

فقال : هممت بالذهــاب الى الشام ثم اعود منها لأسير الى البحرين ثم ارجع الى يثرب ..

فقال المحترش : لو كان الأمر بيدي لذهبت الى الشام مع قصي ..

فغمغم حليل قائلاً : وفي الشام تكثر الخمر ثم قال :

اما ما هممت به يا قصي فهو الجنون .

قال : لقد ذكروا لي اخطار هذه الرحلة فعدلت .

— : حسناً صنعت فامكث في مكة الآن .

— : ولكني سأذهب الى يثرب .

— : ليس عليك في الحجاز من بأس . ماذا تحمل اليها ؟

— : الصوف يا مولاي من مال أخي زهرة ..

— : ونحن نعطيك من مالنا ما تشاء ..

قال : اتعطيني مالك ليكون حبي اياك مبنياً على المنفعة ؟ ان هذا لا يكون يا مولاي .

— : لقد اثبت هذا الحب قبل اخذك المال .

— : ومع ذلك فالمال وسيلة من وسائل الاغراء .. اني أوثر نصائح مولاي على الذهب .

— : سيعلمك الزمان ما لا يعلمك اياه الناس . اتعرف بماذا اوصيك ؟

قال : لو كتب لي ان اعرف مـــا في قلوب الناس لكنت أعظم من هبل . بماذا يوصيني مولاي .

— : بان تقصر ايام رحلتك فتعود الينا بعد شهر .

— : ذلك ما افكر فيه يا مولاي .

— : وبأن تختار كرام قومك رفيقاً لك في سفرك .

— : سأفعل وسأستعين برأي اخي زهرة على الحصول عليه .

فقال زهرة : لقد اظهر الكثيرون من قومنا رغبتهم في السفر مع قصي .

— : ومن تختار منهم ؟

— : لا نعلم الآن ولكن سيكون ذلك الرفيق من الفتيان النبلاء اصحاب المقام في كنانة ..

قال : احذروا اخوان السوء فقد كثروا في مكة ..

قال قصي : سأستشير سودة في امره .

قال : ان أحسنت الاختيار طـاب سفرك .. وصفت لك الموارد في الرواح والمجيء .. ان الفرس الكريم والرفيق الامين خير ما يلجأ اليه المرء في اسفـاره

ثم قال : واحمل لنا شيئاً من طيب المدينة يا قصي فقد مهر اليهود في صنعه .

— : سأحمل منه الشيء الكثير يا مولاي .

قال : واذا رأيت ان تزورنا مرة ثانية قبل سفرك فافعل .

قال : لقد غمرني مولاي بفضله وانا لا استحقه . وليعلم مولاي ان المثول بين يديه أحب شيء الي ..

وساد السكوت .. فخافت حبى ان ينتهي الحديث وينصرف قصي قبـل ان تعرف ما تتوق اليه ؛ فقالت له وهي تنظر اليه وكأنها لا تعرف شيئاً عنه ،

متى تركت مكة يا ابن كلاب ؟

— : تركتها يا سيدتي وانا طفل في حضن امي وعدت اليهـــا اليوم وقد جاوزت العشرين .

— : اذن انت لم تعرفها من قبل .

— : لا يا سيدتي لم أرَ ما فيها من المحاسن الى اليوم .

— : ان محاسن مكة لا تذكز اذا ذكرت محاسن الشام .

قال : لا اعني محاسن البلد يا سيدتي ..

— : وماذا تعني اذن ؟

— : محاسن القوم الذين يقيمون به ..

فابتسمت قائلة : أراك تصف محاسن قومك فانت لم ترَ غيرهم بعد ..

— : بل رأيت مولاي سادن الكعبة واهل بيته وهذا يكفي .

فقال حليل في نفسه : لقد اعجبته حبى وهذا ما ارغب فيه .

واطرقت حبى وقد احمر وجهها من الخجل .

فرأى قصي ان ينصرف مع اخيه ويسكت عند هذا الحد .

ونهض يسأل الامير الاذن في الخروج .

فمد حليل يده وهو يقول :

لا تنسَ يا زهرة ان تختار لقصي رفيقاً كما قلت ..

وخرج الاثنـــان وتبعهما المحترش يريد ان ينفرد ببعض اتباعه وراء الجدر ليشرب الخمر ..

اما حبى فقد احست ان قلبها وثب من صدرها ليذهب مع قصي ..

ولم يشأ قصي ان ينظر الى الوراء .. ففي تلك النظرة ضعف . وهو ارفع من ان يظهر ضعفاً ..

* * *

— ١٥ —

في صباح ذلك اليوم الذي ذكره عبدالله اقبل صفوان بن الحارث على قصر

زياد بن كعب وكان يـتردد في الدخول ، كأن مجيئه في ذلك الصبـــاح يجرح عزة نفسه !

وبباب زياد العبيد والحجاب ..

فأومأ الى احدهم بان يأخذ فرسه . ثم تقدم وهو يقول لآخر : قل لمولاك ان صفوان بن الحارث يريد ان يراه ..

فاجابه الحاجب قائلاً : اذا كنت صفوان فادخل .

— : وان كنت غيره !

— : لقد امرنا مولانا بادخـــال الرجل الذي ذكرت ، فدخل وهو يقول في نفسه : لقد بدأت ارى مظاهر العناية والشكر ، وهذا ما لا ارضاه ..

وكان زياد وابوه في قاعة الجلوس . وليلى معهما . وامامها وعاء تفوح منه رائحة الطيب ، فوضع صفوان سيفه على مقعد في الدهلـيز ومشى بقدم ثابتة الى حيث وقعت عليه العيون.. فوثب زياد الى الخارج قائلاً : انت هو صاحبي ورب الكعبة ، وعانقه بفرح ولم يعطه يده كما هي عادة الأمراء . ثم اخذه بيده وهو يقول لأبيه : لقد رأيت الآن المحسن الى ولدك .

فقبل صفوان ركبتي الشيخ ثم انحنى امــــام ليلى العاشقة .. المرتجفة .. الخافقة القلب ..

وفي تلك اللحظة . اجل في تلك اللحظة ، ذكر الفتى قول عدوان اليمني ان ليلى فتنة الناظرين .. واحس ان تينك العينين الذابلتين اصابتا قلبه الخلي .

فتمتم قائلاً : لم أكن محسناً اليك ايهـــا الامير بل كنت كنانياً رأى العبد يحاول ان يضرب مولاه فحال بينه وبينه ووقف بجانب الامير يعرض عليه سيفه.

فقال ابو زياد : وكأنك لم تفعل شيئاً يا ابن الحارث ؟

— : ألست حجازياً يا مولاي ؟

— : نعم .

— : ومــا هو فضل الحجـــازي اذا جرّد سيفه للدفاع عن حياة امير من امراء بلده ؟

– : الامير وحده يعرف هذا الفضل ان لم تعرفه انت .

فرفع رأسه وهو يقول : لقد جئت هذا الصباح انقل الى مولاي الامير خبراً لا يعرفه وانا لا احب ان اسمع من فمه كلمة ثناء على ما فعلت .

– : ذلك شأن صفوان بن الحـــارث الذي يضع العمامة على وجهه ليخفي احسانه .. اما نحن فمن شأننا ان نجزي الذي احسن الينا على ما فعل دون ان يكون لأحد رأي في الامر .

فذعر الفتى عندما سمع لفظة الجزاء وقال اتذكر الجزاء ايها الامير ??

– : نذكره ونسأل الفتى العربي الشريف ان يذكر حاجته فهكذا تفعل اشراف العرب وليس في ذلك ذل ..

فنهض قائلاً : أستأذن الامير في الانصراف فليس لي حاجة اذكرهـــا ولا خبر اقصه عليه ..

فاستوقفه زياد بقوله : ألم تكن المروءة هي التي اوحت اليك بما فعلت ?

– : سمِّ ذاك الفعل ما تشاء يا مولاي .

قــال : هذا الذي اعرفه يا صفوان فارجو ان تكون جواداً بكل شيء كما كنت جواداً بسيفك .

– : وماذا يريد الامير الآن ?

– : يريد ان يثبت لابن الحارث انه يعرف جميله ..

– : وانا لا اطيق ان تذكر لي هذا الجميل ..

وعندئذ اقبل عبدالله وكان في الدهليز فقال :

أبيت اللعن يا صاحب العمامة الخضراء.فابتسم قائلاً لقد جعلتني من الامراء..

– : ورب الكعبة لم أرَ اميراً أعز نفساً منك .

قال زياد : ولكنه يأبى ان نعترف له بفضله .

– : ذلك ما ذكرته لك يا مولاي . ولكن لي كلمة اقولها .

– : ما هي ?

قال : عندما تختلف العرب تعمد الى رجل منها تجعله حكماً ..

ــ : انجعلك ذلك الحكم ايها اللعين ؟

ــ : لا يا مولاي بل تجعلون ليلى ..

فاجابه صفوان دون ان يتلجلج صوته قائلاً : لقد رضيت .

ــ : وانت يا ليلى ؟

ــ : لم اسمع قط ان العرب احتكمت الى النساء .

قال : سواء أكان هذا ام لم يكن فليس لك الا ان ترفضي او ترضي به

ــ : استشير جدي في الامر ماذا تقول يا مولاي ؟

قال : أسألك الرضى يا ابنتى فارى كيف تقضين بيننا .

ــ : على رجاء ان لا ترد حكمي يا ابن الحارث .

قال : ما رضيت به لكي أرده .

فنظرت اليه والغرام يتغلغل في صدرها قائلة :

اذكر الآن ما تشاء .

ــ : لقد ذكرت يا سيدتي كل ما يجب ذكره .

ــ : اذن انت تعترف بانك انقذت ابي من الموت .

ــ : لم يكن هنالك موت كما يريد الامير ان يقول ، ولكني سمعت ابن عبادة يغلظ لأبيك القول. ورأيت الفتى يحمل سلاحه وليس مع الامير سلاح فخفت ان يضرب الغادر ضربته فيشفي غليله .

ــ : وعندئذٍ عرضت على الامير سيفك ليستطيع الدفاع عن نفسه ، أليس كذلك ؟

ــ : نعم .

قالت : هب انك لم تكن في الميدان في ذلك اليوم .

ــ : ثم ماذا ؟

ــ : وقام جبير فضرب الامير فجرحه ولم يقتله وانتهى بينهما الأمر عند ذلك الحد أترى يا سيدي ان جرح الامير لا يعد شيئاً ؟

فسكت قليلاً ثم قال : تريدين ان تقولي اني اذا كنت لم انقذ الامير من الموت

فقد انقذته من شيء آخر .

— : بل اريد ان اقول انك منعت ابن عبادة من الوصول الى أبي ولا أقول غير هذا أتعترف بذلك ام لا ؟

فنظر اليها نظرة الضعيف يستغيث بالقوي ثم قال : يخيل اليّ يا سيدتي انك ستحكين للامير .

— : أرجو ان تنتظر هذا الحكم بصبر وتثق بي ، ثم قالت لأبيها : اذكر قضيتك يا مولاي .

قال: اما هذه القضية فلا أذكرها لأني رددتها عشرين مرة وانا اجهل صفوان. ولكني اذكر انه عرض عليّ سيفه في ساعة ضيق وهذا يكفي .

فقاطعه قائلاً : لقد اقسمت يميناً يا مولاي

قالت ليلى : اتقص علينا حكاية هذه اليمين ؟

— : نعم حلفت اني لا اتناول جزاء على معروف ولو كان من ملك .

— : ومتى فعلت ذلك ؟

— : يوم حمل الناس جثة ابي الى القبر .

قالت : لقد حلفتها في يوم لا تنساه ما الذي دعاك الى هذا ؟

— : قصة جرت لأبي مع امير من امراء العرب لا اسميه .

— : ولكن تذكر قصته ؟

— : نعم . ان ذلك الامير أعطى ابي بدرتين من الذهب ثم رآه في عكاظ فمنّ عليه امام فريق من السادات والنبلاء . فرجع أبي الى مكة وهو غاضب لكرامته وأقسم انه لا يقبل عطية احد .

— : وكيف كان قسمك ؟

قال : فلما كان اليوم الذي اسلم فيه الروح ، أمرني بأن اصنع المعروف واستخفي حتى لا اسمع شكراً ، وبأن اقسم على قبره اني لا اقبل جزاءً ولو كان من ملك . ففعلت .

فاجابه زياد قائلاً : وانا قد حلفت يميناً امام الصنم الاكبر ان لا اترك محسناً

بدون جزاء ولو كان ملكاً .

— : واذا رفض ؟

— : احسنت الى الشخص الاقرب اليه .

— : ومعنى ذلك يا مولاي ؟

— : معناه ان ابن كعب لا يكون امير صوفة وهو لا مروءة له .

— : وماذا نفعل الآن ؟

فقالت ليلى : لقد حكمت .

قال : مولاتي .

— : مهلا فقد رضيت بهذا الحكم قبل صدوره . سيبرّ ابي في يمينه فيعطيك ما يشاء . ثم قالت لأبيها : ما هي عطيتك يا مولاي ؟

قال : أعطيته فرسي ام الجنادب .

فاطرق صفوان وهو متحير في أمره . ان ذلك الحكم لم يكن عادلاً كما أظن . وذلك الوثوق بليلى لم يكن في موضعه . ثم سمع ليلى تقول : أرضيت يـــا ابن الحارث ؟

فرفع رأسه بكآبة وهو لا يعرف ماذا يقول .

أيقول لا وقد رضي مختاراً منذ ساعة بذلك الحكم ام يقول نعم وينسى يمينه التي حلفها فوق جثة ابيه ؟ انه موقف يصعب الخروج منه على الشريف العربي .

وكان يهم بالجواب فتقف الالفاظ عند شفتيه .. وعبدالله ينظر الى ليـــلى باستعطاف . حتى خرج صفوان من ذلك الموقف مجروح الكرامة وهو يقول : نعم ..

فقالت لجدها : وأنت يا مولاي ماذا تعطيه ؟

— : السيف والدرع اللذين تركهما لي ابي .

فمد صفوان يديه الاثنتين قائلا :

أسألك سؤالاً واحداً يا سيدتي واستحلفك بشرف قومك ان تسمعي لي .

— : ما هو سؤالك .

قال : خذي السيف الذي اعطانيه ابو زياد واضربيني به حتى اموت في هذا المكان .

– : انفعل هذا ونحن جميعنا نريد لك الحياة !

قال : اذا اردتموها انتم فقد كرهتها انا . اعطوني الدرع والسيف واسرجوا لي فرس الامير .

قالت : اتنصرف الآن ؟

– : أجل وفي هذه الساعة ..

فابتسمت كما يبتسم القاضي الطاهر الوجدان ثم قالت : لا نعطيك ما طلبت الا اذا أعطيتنا عهداً .

– : واي عهد يعطيه رجل لا يقدر ان يبر فيه ؟ ما هو هذا العهد؟ اذكريه.

– : تقسم الآن انك لا تقتل نفسك ..

– : او لم اقسم من قبل اني لا اقبل جزاءً ؟

– : بـــلى .

– : وكيف قبلت الآن هذا الجزاء ؟ اني يا سيدتي نذل لا استطيع ان أفي بالعهود والوعود .

– : ومع ذلك نريد ان تحلف لنا .

فنهض قائلاً : اذن احلف اني لا اخرج من هذا القصر حياً .

فلم يستغرب للقوم ذلك القول ..

اما ليلى فقالت بهدوء : أتموت يا صفوان ؟

– : وهل تريدين ايتها الاميرة ان يخرج صفوان بن الحارث الى العالم حاملاً ذله وعاره ؟ ورب الكعبة لا اخرج من هنا الا على الاعواد ..

قالت : لا تعطيه السيف يا عبدالله ..

فمشى الى الدهليز وهو يقول :

سيقتلني السيف الذي احمله .

قال عبدالله : ولكني اخفيته .

فعمد الى خنجر في حزامه فأخرجه وهو يزأر كالأسد ثم قال :
هذا يفعل ما يفعله السيف .
واهوى به لصدره .. ولكن يداً حديدية ، هي يد زياد . ابعدت الخنجر عن ذلك الصدر .. وسمع الفتى صوت ليلى وهي تقول :
ستبرّ في يمينك يا صفوان .
فبغت قائلاً : لقد حكمت وانقضى الأمر .

قالت : ولن ارجع عن هذا الحكم ، فاسمع : ان السيف والدرع في هذه الحجرة التي ترى . واومأت اليها ، وام الجنادب امام القصر وهي مسرجة ، فلكي لا ترى عينيك ما وهبناه لك ، اخرج الى هذه الشرفة واعط كل ذلك ، اول قادم من ناحية الكعبة فتبرّ في يمينك .

فوضع يده على جبينه وقال : ورب الكعبة ان في ذلك مخرجاً .. ولكن أفعل غير هذا ..
— : وكيف ذلك ؟
— : اني اذا وهبت عطية أبيك لاول قادم فقد قبلت الجزاء وتصرفت به تصرف المالك ..
— : ولكنك تملكه الآن .
— : اجل . وبما انه اصبح مالاً لي فقد وهبته .. وهبت الفرس والسيف والدرع لابيك هذا ..
فضحك ابو زياد قائلاً : اجلس يا ابن كنانة فقد كان عبدالله صادقاً في كل ما نقله عنك .
وقام زياد وليلى يصافحانه والجميع يضحكون .
فعرف صفوان عندئذٍ ان القوم دبروا خطتهم في ظلام الليل ليلمسوا بأيديهم ما ذكر لهم عنه . وعاد الى مقعده وهو ينظر الى الجماعة نظرات الشكر . والى ليلى نظرات الغرام .

* * *

فاحت رائحة المسك . وقد طابت نفس صفوان .
فقال زياد : اما الآن فستذكر لنا الغاية التي جئتنا من اجلها في هذا الصباح
- : نعم يا مولاي وكدت انساها . ألم تقل لقومك اني حفظت حياتك ؟
- : نعم وسأقول ذلك الى الابد .
- : مع اني لم احفظها كما تظن .
- : لماذا ؟
- : لان ذلك النذل الذي اراد ان يغدر بك باقٍ في مكة مع مولاه !!
وكان زياد قد سمع ذلك الخبر من عبدالله . فقال :
وماذا تعني يا صفوان ؟
- : أعني ان الحقد لم يزل في صدره والسيف في يده وهو ابن ابيه ..
- : ولكني لا أعبأ بذلك الحقد وبهذا السيف .
- : بل لا تعبأ بالجيش تقتحمه في الميادين . واما الغدر فالويل لمن لا يبالي به
قال : هب ان جبيراً بقي في مكة ليستريح من زياد بن كعب فأي شأن بهذا لصفوان بن الحارث .
- : قبل ان اذكر لك هذا الشأن اسألك سؤالاً ؟
- : قل .
- : ألم نأمر ابن عبادة بان يغادر مكة ؟
- : بلى .
- : فماذا تقول لو نقل اليك الناس انه باقٍ فيها ؟
- : أقول انه الجبان الذي تخفى خوفاً من زياد .
- وانا اقول انه الجريء المستخف بأمر سيده والمتمرد الغادر الذي يبحث في ظلام الليل عن أمير صوفة ليشرب من دمه حتى يروي حقده .
- : أيجترىء عليّ ابن عبادة ؟
ان الذي يجترىء عليك في وضح النهار وانت على ظهر فرسك ، يجترىء عليك وانت امام قصرك عندما يسدل الظلام حجابه .

فقال عبدالله في نفسه : أرى مولاي يعيد الكلام الذي قاله لي .

وكانت ابتسامة السخرية على شفتي زياد وهو يقول : مهما يكن الامر فابن عبادة لا نخشاه .

- : انا ادعوك الى الحذر يا مولاي واعلم انك لا تخاف .

قال : انحذر رجلا لا نرى له وجهاً ؟

- : نعم لأنك تعرفه وقد يمشي حيث تمشي ويقيم حيث تقيم .

فقالت ليلى : لقد أصاب صفوان فالحذر لا بدّ منه .

فاجابها زياد قائلا : أجل ويجب ان نخرج الى سوق مكة ونحن لابسون عدة الحرب . ولماذا نفعل ذلك ؟ لأنه خيّل الى مولانا عبدالله انه رأى عينين تشبهان عيني عدوان .

فقال صفوان : أما انا فقد رأيته وحدثته بعد غروب الشمس عند المطاف .

- : وماذا قال لك ؟

- : قال ان مولاه طرده من خدمته وترك مكة الى حيث لا يعلم .

فقال ابو زياد : كاذب ورب الكعبة .

- : اجل يا مولاي . ومن يصدق ان ذلك اليمني الذي قضى اربعين عاماً في بيت عبادة يترك سيده ليطوف في بلاد العرب ماداً يديه للمحسنين .

فاطرق زياد واضعاً رأسه بين يديه .. ولم يكن واثقاً قبل ان يقص عليه صفوان ذلك الخبر بان جبيراً يجرؤ على البقاء في عاصمة الحجاز بعد ان امره بان يختار له بلداً غيرها ، اذن فوجود عدوان عند المطاف يعني وجود جبير بالقرب منه ، والغدر ، اجل الغدر وحده غرض الاثنين .. ثم رفع رأسه فقال : أعد علي يا صفوان حديث اليمني .

قال : ان في هذا الحديث ما لا أذكره الا لك ..

- : أكان بينك وبينه اسرار ؟

قال : لم اره غير مرتين . يوم كان الى جانب سيده في الميدان . وفي تلك الساعة التي ذكرت .

قال : لا نكتم ابا زياد وليلى شيئاً فبح لنا بتلك الاسرار .
فخفض صوته قائلاً: لقد وصف لي محاسن ليلى وذكر لي انها اجمل نساء الحجاز .
فاستولى الاستغراب على القوم . ان تلك الكلمة تبعث الريب الى الصدور .
واستطرد صفوان قائلاً: وكان يسألني باستعطاف وذل ان اخطبها اليك قبل ان يخطبها سواي ..
فاحمرت وجنتا الفتاة ..
اما زياد فنظر الى ابيه ينتظر جوابه ، فلم يسمع ذلك الجواب .
فقال عبدالله : اتعلمون ما هو غرضه ؟
قال صفوان : اذا أذن لي الامير ذكرت ما اعلم .
- : قل يا صفوان .
- : يريد ان يدفعني الى طلب الزواج ليعرف موقف ليلى وموقف آل كعب .
- : واي موقف هذا ؟
- : موقف الرضى او موقف الرفض .
قال : افترض اذن احد الموقفين ..
- : لنفترض الرضى يا مولاي .
- : نعم .
- : ثم لنفترض ايضاً ان الخبر بلغ ابن عبادة .
- : فماذا يجري ؟
- : يعمد الرجل الى قتلي ليقول لزياد بن كعب بكل صراحة وجلاء : ان ليلى لا تزّف الى عربي وهو حي .
اذن فزياد بن كعب لا يقدر ان يزوج ابنته !
قال : يستطيع ان يزوجها ولكن الراغب في ذلك الزواج يموت ..
- : وبعدئذ ؟
- : يقتل الغادر اثنين او ثلاثة من اشراف العرب فيرضى بذلك القتل كرامته التي جرحها امير صوفة ..

- : ثم يأذن لنا بعد ذلك ان نفعل ..
- : لا يا مولاي بل يعمد بعد ذلك الى أفظع من هذا كله. انه يقتل الامير نفسه.
فابتسم قائلاً : افترض الرفض يا صفوان فذلك خير لنا ..
قال : ان حياة الامير في الموقفين تكتنفها الاخطاء
فقال عبدالله ورأس مولاي هذا ما أفكر فيه .
فقال زياد : لم يبق الا ان تقوم الحراس حولنا في الدخول والخروج .
فارتفع صوت الفتى وهو نقول : سيكون رجل غريب عنك يقوم وحده بهذه الحراسة ..
- : من هو ؟
- : أنا ...
فتنهدت ليلى كما يتنهد العشاق .. وتساقطت الدموع على لحية ابي زياد ..
اما عبدالله فكان قلبه يرقص من الفرح ..
فقال زياد هادئاً : أتتبعني كما يتبع العبد مولاه لتنقذ حياتي من الموت ؟
- : نعم .
- : ولكن يجب ان أعرف السبب .
قال : اقسم لك بكل ما في البيت من آلهة اني لا اعرف هذا السبب لأذكره لك ، فمسح ابو زياد دموعه وهو يردد قائلاً : الحارث بن شجنة .. لقد كان فتى المحامد والمكرمات كما كان فتى الحرب.. انك صورة ابيك يا صفوان واني لأشعر الآن باني اخاطبه وان صوتك صوته. الا تعرف يا بني لماذا تصنع المعروف مع الناس؟
قال: لقد كتب لي ان ارى مولاي زياداً في ميدان مكة واعرض عليه سيفي، ثم رأيت ان احمل هذا السيف لأدافع عنه .. ثم رأيت ان ابذل حياتي لأنقذ حياته .. وأنا في كل ذلك لا اعلم ما الذي يدفعني الى هذا ..
-: اما نحن فنعلم ان النبالة التي غرسها ابوك الحارث في صدرك هي التي تدفعك اليه .
- : لنترك هذا الآن يا مولاي .

— : ولننظر في امر جبير .
— : نعم .
فقاطعه عبدالله قائلاً ؟
لي ما اقوله في هذا المعنى ..
فقال زياد : ذلك رأي جديد نسمعه منك .. هات يا عبدالله .
قال : في مكة رجل تخافون غدره أليس كذلك ؟
— : أجل .
— : وانتم لا تعلمون في اي مكان يقيم وأي موضع يتهيأ فيه للشر .
— : واذا كان ذلك ؟
— : اذا كان ذلك فأرسلوني ابحث عنه فاجيئكم به واضمن سكوته الى الابد.
— : وكيف تضمن ذلك السكوت ايها اللعين .
— : اقول له ان مولاي يدعوك ليزوجك ليلى فينتهي كل شيء .
— : اي انك تريد ان تنصب له شركاً ..
— : لا يا مولاي بل اريد ان تزّف ليلى اليه فيستريح هو ونستريح نحن .
فقالت ليلى:وانا اقترح على ابي ان يقطع هذا اللسان الذي يشبه لسان الحية.
قال : لماذا يا مولاتي وجبير اكرم محتداً وارفع منزلة ونفساً من صفوان بن الحارث .. وقد اراد بهذا الكلام ان يستدرج صفوان الى القول .

فقال صفوان : اعترف باني اضعف اهل الحجاز شأناً ، واما ان ابن عبادة اكرم مني محتداً فهذا ما لا اعترف به ..
فلم يبال عبدالله بما سمع بل قال لليلى:أتؤثرين صفوان بن الحارث على الرجل؟
قالت : اسكت يا لعين فأي رأي لليلى فيما تقول ؟
قال:ظننت ان القضية قضية زواج فرأيت ان تختاري جبيراً فهو خير منهذا.
فقال ابو زياد اذا كانت القضية كما ذكرت فانت لا تستطيع ان تجد في مكة خيراً منه ..
قال: من أغرب ما رأيت يامولاي اني اخاطب ليلى فتتولى انت امر الجواب .

— : أولم تعلم لماذا ؟
— : لا .
— لانك من اخبث الناس .. فضحك الجميع ..

على ان صفوان لم يذكر الزواج كما ظن عبدالله .. اجل . لقد احس في ذلك الموقف انه عبد لليلى وأسير هواها .وان خير ما يصنعه في حياته ان تكون زوجة له . ولكنه ، وهو الشريف الأبي ذو الخلق العالي لم يشأ ان يعكر صفو اخلاصه لعرض من اغراضه الخاصة .. فترك البحث في امر الزواج على امل ان يخطب ليلى في وقت آخر وعاد الى حديثه الاول قائلاً : سيطوف عبدالله في مكة باحثاً عن جبير واكون انا من حراس الامير ..

فقال زياد : وماذا يقول الناس عن هــذا الامين عندما يرون الحراس تسير وراءه ؟ سيقولون ان امير صوفة يفعل كما تفعل الملوك ..

— : ليس هنالك حراس يا مولاي انهم سيرون فتى على وجهه قناع ، ماشياً وراء زياد بن كعب كما يمشي الناس ..

فضحك قائلاً وهذا يكفي ..

قال : ليقل الناس ان لزياد بن كعب تابعاً لا ينفصل عنه . افلا ترى ان لرؤساء العشائر والامراء اتباعاً كثيرين ..

— : ذلك هو الضعف والعجز ..
— : بل هو العز يملي عليهم بان يتشبهوا بالملوك .

فقال عبدالله : وهذه العمامة الخضراء التي جعلتها قناعاً ؟؟

— : ماذا تعني ؟
— : ألا تتغير ؟
— : ابداً فقناعي اخضر زاه كما ترى .ثم قال : والآن فانا ذاهب اذا اراد الامير .
— : ومتى تصبح من الحراس ..؟
— : ليس لك ان تسألني عن ذلك .. ان الامير يستطيع منذ الآن ان يثق بقائد حرسه .. وجعل ينظر الى جانبيه .

فقال ابو زياد : ان حارسنا يفتش عن سيفه .

— : نعم يا مولاي فانا لا أخطو خطوة واحدة بدون هذا السيف .

فخرج عبدالله الى الدهليز ثم حمله اليه ، فتقلده بهدوء ثم شدّ عمامته وأرسل من تحتها عينيه الساحرتين وتمتم قائلاً : الى اللقاء .

فقال زياد : على قائد الحرس ان لا يهجر قصر اميره هجراً طويلا

قال : أرجو ان تأذن لي من الآن في الدخول عليك ساعة أشاء .

— : ان صفوان بن الحارث يأذن للناس .

فوضع يده على قبضة سيفه ووجّه الى ليلى نظرة قصيرة اطـلّ معها فؤاده الخافق وخرج وهو يردد قول عدوان اليمني كما فعل عند دخوله .

ان ليلى فتنة الحجاز ..

أجل ، قدم صفوان قصر زياد وهو خليّ القلب لا يعرف الهوى ثم خرج منه وذلك القلب الخليّ يخفق على الغرام .

* * *

— ١٦ —

جمع زهرة بن كلاب قومه عندما همّ قصي بالسفر الى يثرب وحدثهم بالأمر ، وقصي ساكت يتبين القلوب . مما على الوجوه وفي العيون . فتسابق الفتيان الى اظهار الرغبه في السفر معه ، وصفوان بن الحارث مع القوم . ولكنه لم يبـدِ رغبته في ذلك ولم يقل كلمة . مع انه يحس بميل قوي الى قصي ويكاد يعبد الهيبة والجلال اللذين يراهما فيه . فلما كثر الراغبون في السفر قام زهرة فقال : اختر يا قصي ما تشاء من قومك .

فاجابه قائلاً : لا أوثر احدهم على الآخر ولكن استشير سودة .

فنهض زهرة الى حجرة الكاهنة وقص عليها مـــا جرى في مجلس القوم ، فقالت : وماذا تريد الآن ؟

— : أريد ان ترشدنا الى الفتى الذي يرافق قصياً .

قالت : ليس لكم ان تختاروا يا مولاي ففي الاختيار اهانة لبني عمك .

- : وكيف نفعل اذن ؟

- : اضربوا على ذلك الرفيق بالقداح فالذي تخرج عليه فهو صاحبكم .

قال : ذلك هو الرأي ورب الكعبة ، ثم خرج قائلا لقومه : القداح يا قوم.

فجاءوا بها وجعلوا يضربون فخرجت على صفوان . صفوان بن الحارث نفسه كأن ذلك الضارب كان يتعمده في ضربه ،

فصافح قصي رفيقه وهو ينظر اليه نظرة الارتياح .

النبالة والاخلاص على جبينه. والسحر والصفاء في عينيه . والجرأة والاقدام في كل مَظهر من مظاهره . وقد عرف قصي من قبل اي فتى هو صفوان .

ولكن صفوان ظل ساكتاً كأن الأمر لا يعنيه .

فقال قصي : ان السفر لا يطيب لابن عمنا على ما أرى .

فقال : بل يطيب لي الموت وانا معك .. ولكن .

- : ولكن ماذا ؟

- : لقد حلفت امس يميناً يا ابن العم .

- : ان لا ترافقنا في سفر ؟

- : لا ولكنها يمين تقضي عليّ بالبقاء في مكة .

فنظر القوم بعضهم الى البعض الآخر :

اما قصي فابتسم قائلا : القداح . مرة اخرى يا زهرة . فقد حالت اليمين بيننا وبين هذا .

فاجابه صفوان قائلا : ذلك ما لا يرضاه عربي . ولكني اذهب الليلة ثم اعود وانا احمل القبول او الرفض .

- : أتستشير أحداً ؟

- أستشير ذلك الذي اقسمت له .

- : من هو ؟

- : لقد نسيت اسمه يا قصي الى الابد .

: ولكنك تذكر اليمين على الاقل .

– : ونسيت هذه اليمين فلا اذكر منها غير الشرف الذي يملي عليّ البر فيها. ففهم القوم ان للفتى سراً يريد كتمانه وهم يعلمون ان اسراره اسرار محامدواخلاق.

فقال قصي : ومتى تعود يا صفوان ؟

– : صباح غدٍ عندما تخرج النوق الى المرعى ، وقام فخرج قبل ان يسمع جواباً .

فقال احدهم : ليس في الحجاز من هو أكتم لسره من صفوان .

وقال آخر : وقد لا تجد في العرب من هو اعز نفساً منه ، فازداد اعجاب قصي بالرجل وامسى شديد الشوق الى سماع جوابه عند الصباح ، ولم يشأ زهرة ان يخبر سودة بالامر ، بل اجمع القوم عـلى الانتظار . وقصي يقول في نفسه : لو كان الحجاز كله حزباً عليّ لما رضيت بغير صفوان رفيقاً لي .

* * *

مشى صفوان يريد قصر زياد بن كعب ، وقد استولى الهم عليـــه وملأت الكآبة نفسه . انه الآن بين أمرين لا ثالث لهما . اما ان يترك قصياً ليقوم بحراسة زياد ، واما ان يترك زياداً ليرافق بن كلاب الى المدينة . ولولا تلك اليمين التي حلفها لاختار السفر مع ابن عمه ، لانه يحب الاسفار ، ولان قومه ينظرون الى قصي ، قصي الفقير الذي لا يملك فرساً ، كما تنظر الرعية الى الامير . وكان يقول في نفسه : لقد خرجت القداح عليّ فترددت . وذلك هو العار . ان العربي لا يرد حكم الآلهة . ولم تكن القداح غير ارادة هبل ، إله الكعبة الاكبر .

فاذا اصرّ على الرفض فقد اغضب الإله والويل له اذا فعل .

غير ان هنالك وعداً . وهنالك ليلى . الشرف والغرام . وهو اعظم واقوى من ان يضيع واحداً من الاثنين . حتى وصل الى قصر زياد وهو يرى ان السفر لا سبيل اليه الا اذا أذن له فيه صاحب ذلك القصر .

وكان مجلس زياد، في ذلك الليل، غاصاً بنبلاء بني بكر وبني صوفة، يتحدثون عن الحجاج في ذلك العام ، فشد عمامته ودخل . فرأى ليلى وعبدالله جالسين في الدهليز وهما يتهامسان . فنهض عبدالله قائلاً : أهلاً بابن الحارث .. فاومأ اليه

بالسكوت وهو يقول : اريد ان أرى الامير ، قالها وقد خفض صوته المرتجف .
فاحمر وجه ليلى ..
ثم اضطربت اضطرباً ظاهراً لخاطر خطر لها في تلك الساعة ، ان صفوان لا يجيئهم في مثل ذلك الليل الا لأمر .. وقد يكون رأى جبير . وزياد في خطر .
اما عبدالله فكان يبتسم ومعنى تلك الابتسامة انه استلذ الفكر الذي قـام بذهنه .. ثم قال ماذا تريد يا مولاي ؟
– :اريد ان أرى الامير ، وتنهد وهو ينظر الى الفتاة .
فقال الآن ؟
قال : في هذه اللحظة واحذر ان تذكر اسمي امام القوم
فهامسه قـائلاً : لقد عرفت الغرض من قدومك الليلة افلا تقوله لي قبل ان ترى مولاي ؟
– : ادعُ مولاك فستعلم كل شيء ..
قال : أليست القضية قضية خطبة ؟..
فارتعش قائلاً : لو كتب لي ان أخطب ليلى ايهـا الابله لجئت زياداً في وضح النهار . ودفعه بيده الى الداخل .. وعندئذٍ سمع ليلى تقول :
يخيل الي انك رأيت ابن عبادة ..
– : لا يا سيدتي بل رأيت حظي الاسود يخفق له جناحان في الفضاء .
فكادت ليلى تقع على الارض .. ان صوت صفوان يتردد في حلقه . والالفاظ تخرج مضطربة بين شفتيه . وهمت بالجواب .. لكن اباها كان قد اقبل ، فصافح الفتى وهو لا يستطيع ان يخفي دهشته ، ثم دخل الجميع حجرة صغيرة في آخر الدهليز هي حجرة السلاح الموروث، ومد نبلاء المجلس اعناقهم ليروا ذلك الضيف الذي تركهم زياد من اجله .
فابصروا رجلاً على وجه عمامة خضراء ، فقال بعضهم للبعض الآخر : ضيف ذو قناع ..
ثم قالوا : انه رسول احد الامراء ..

ثم قالوا : وقد يكون اميراً فزياد لا يخرج لأجل رسول ..
وكان ابو زياد قد لحق بابنه ، فقال لصفوان : ان لك لغرضاً في هذا الليل ، فما هو ؟
قال : أيستطيع العربي ان يرفض امراً ضرب عليه بالقداح ؟
— : ذلك ما لا تفعله العرب فماذا جرى ؟
— : كنا الليلة في منزل زهرة بن كلاب .
فقال زياد : سمعت الناس يتحدثون عن أخيه قصي الذي نشأ في الشام ويقولون انه مقيم معه ..
— : نعم ولاجل قصي دعا زهرة قومه .
— : وهو يريد ان يزوجه على ما أرى .
— : لا يا مولاي بل اراد ان يختار له رجلا من قومه يسير معه الى يثرب ليبيع الصوف ..
فضحك قائلا : كأنه لا يجرؤ على السفر وحده ويثرب في قلب الحجاز ؟
قال:ان قصياً اعظم من ان يخاف شيئاً يا مولاي ، له قلب يشبه صخور مكة وجنان اثبت من الحديد وعزيمة اقوى من الفولاذ وهو لم يكن له رأي في هذا الرفيق.
— : ولماذا اذن ؟
— : ان الفتى لم يعرف الحجاز من قبل .. وزهرة لا يحب ان يقذف به الى بلد لا يعرف احداً من اهله ، وانت تعلم يا مولاي ان لزهرة مقاماً في كنانة ومنزلة تشبه منزلة أبيه .
قال : وانت كثير الاعجاب بقصي يا صفوان .
— : نعم فهو خير فتيان كنانة وقد بدأ يسود قومه ويسحرهم بعظمة نفسه وصدق نظره ..
— : وسيصبح بعد قليل امير الشعاب ..
قال : هكذا كان ابوه وسيخلفه في النفوذ .
فأحس زياد في ذلك الحين ان في صدره عاطفة بغض لقصي .. وذلك عامل

من هوامل النفس التي لا تدركها العقول .. ثم قال ومن اختار منكم ؟

– : تسابق القوم الى السفر معه فـلم يروا الا ان يعمدوا أخيراً الى القداح وهكذا فعلوا .

– : وعلى اي فتى خرجت ؟

– : على صفوان بن الحارث ..

فاهتز جسم ليلى ورأت عندئذٍ ذلك الحظ الاسود يخفق له جناحـان في الفضاء .. ان صفوان لم تكن له رغبة في ذلك السفر.. ولو كانت له تلك الرغبة لما ذكر لليلى حظه .. اذن فهو يحبها .. ومن اجل هـذا الحب وحده ترك قومه وهبط مكة ليستشير اباهـا في امره .. ذلك ما كانت تفكر فيه ، وكانت تقول في نفسها : لقد رأيت قصياً هذا وانا على شرفة قصر حليل مع حبى.. انه الفتى الذي اختارته حبى ليكون زوجاً لهـا .. لقد اتفقت بنت حليل وبنت زياد كما اتفق ابن الحارث وابن كلاب ..

وعندما قـال صفوان كلمته عرف القوم غرضه من المجيء في تلك الساعة فاجابه زياد قائلاً :

وقد ترددت في القبول يا صفوان أليس كذلك ؟

– : وكيف لا اتردد يا مولاي وقد اقسمت يميناً في هذا البيت الا افـارق صاحبه ؟

– : وماذا فعلت ؟

– : سألت القوم ان ينتظروني الى الصباح .

– : وجئت تستشيرنا في ذلك ؟

– : نعم .

قال : اي الامرين أحب اليك ؟

– : وان في كليهما شرفاً يا مولاي .. لقد وعدت اني سأكون تابعاً للأمير وجاءت القداح تفسد علي هذا الوعد ، فما هو الرأي ؟

فظهرت العظمة عـلى جبين ابن كعب وقال : لا يستطيع احد ان يفسد

عليك وعدك يا ابن الحارث .

- وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : تذهب الى يثرب مع قصي لئلا يظن قومك الظنون ..

- : وجبير ؟

قال : ان الامير يقدر ان يحمي نفسه ريثما تعود وبعد ذلك تبر في اليمين التي حلفت ..

- : أخشى ان تستخف بما سمعته عن جبير فيقع ما لا نحب .

- : لا تخشَ شيئاً يا بني ان الموت لا بد منه ونحن لا نعلم أتجيئنا من جبير ابن عبادة ام من سواه .. ولكن قل لي يا صفوان اذكرت يمينك لبني قومك ؟

فرفع رأسه قائلاً : انا ابن الحارث يا مولاي ..

قال : وبماذا اعتذرت ؟

- : قلت اني مقيد بيمين وسأستشير الذي حلفتها له ، ثم قال : وانت يا ابا زياد افلا ترى ان في سفري نقضاً للعهد ؟

فقال الشيخ: بل أرى ان الشرف كله في هذا السفر الذي تخشاه. ان العرب ولو عرفت يمينك لا تقبل لك عذراً في ردك حكم الآلهة. فاذهب مع قصي بن كلاب فأمير صوفة يأذن لك في ذلك وستقوم بحراسته كما وعدت بعد رجوعك من يثرب.

فقال عبدالله : اتمكثون طويلاً فيها ؟

- : الامر بيد قصي ولست غير رفيق له .

قال : يظهر ان قصياً كثير المال .

قال : لولا قومه لما وجد منزلاً يأوي اليه وليس في يده درهم .

فقال زياد : اذن هو يخرج في مال قومه .

- : في مال اخيه يا مولاي ثم يصبح ذلك المال بما يتبعه .

- : وقد يكون تاجراً حكيماً مثل بني قومه فيكثر ماله في شهر واحد، ان بني كنانة يملكون نواصي التجارة في الحجاز فاذهب وليحرسك هبل .

فالتفت الى عبدالله قائلاً : احذر يا عبدالله.. يريد بذلك ان يحذره من جبير.

فقال: لقد عرف عبدالله من قبل ان يحرس سيده ولكني اخاف جبيراً عليك.
قال : ايتبعني الى يثرب ؟
- : من يعلم فقد يسير مع غلمانك وانت تدري ..
فرفعت ليلى نظرها الى صفوان وهي خائفة ..
فقال : خير لي ان اراه في يثرب من ان أراه في مكة .
ومد يده فصافحهم واحداً واحداً وهو يقول :
سأذكر وعدي ولا أنساه وسأفي به اذا رجعت .. قالها وهو يهز يد ليلى .
فعرفت الفتاة عندئذ انه يعنيها بذلك القول .. ولو نظر الاثنان الى عبدالله
لرأيا تلك الابتسامة المعنوية على شفتيه .. ومعناها انه عرف ما يجول عندئذٍ في
خاطر العاشقين.
وبعد خروج صفوان قال زياد لأبيه : لم أرَ قط فتىً اكرم محتداً من هذا.
فقال : كلما رأيته ذكرت اباه وطهارة نفسه فهو كأبيه لا زيادة ولا نقصان.

* * *

حدثنا بما تعلم يا عبدالله عن قصي بن كلاب .
- : ومن قال اني اعلم شيئاً عن الرجل ؟
قال : افلم تذكر لنا انك رأيته ؟
: بلى رأيت فتى يسير مع زهرة بن كلاب الى الكعبة وهو بلباس اهل
الشام وقد ذكرت لك كيف رأيته بعد ذلك على قدمي هبل مع اخيه. وانا ابحث
حول الكعبة عن المحسن اليك .
: وماذا رأيت غير ذلك ؟
: رأيت الاخوين يحدثان سادن الكعبة وهما خارجان وحليل يبتسم لها .
قال : لقد خبرتنا ما رأيت فقص علينا ما سمعت ..
: وسمعت من الناس ان قصياً زار سادن الكعبة في قصر مع زهرة اخيه.
ثم سمعت شيئاً آخر ذكره المقربون الى جانب البيت وانا غير واثق به
: ما هو ؟

— : ان قصياً سيخطب حبى ..

فقهقه زياد وهو يقول : ذلك حديث الغلمان والعبيد .. أيجسر هذا الفتىان يطلب بنت حليل .

— : ولماذا لا يجسر وهو من اشراف الناس ؟

قال : لقد تقدمه الكثيرون من اشراف الحجاز فلم يتم لهم الامر .

قال : لو كنت سادن الكعبة لزوجته ابنتي ولم احفل بابناء الملوك ..

— : لماذا ؟

— : لأن العين لا تقع على احسن منه يا مولاي .

قال : وجه فوق اطمار بالية ..

قال : سيصير غنياً بفضل قومه. ويقول اهل الشعاب ان مالهم كله يبذلونه له.

فاطرق زياد يفكر في ذلك .

فقال له ابوه : في اي شيء يستحق قصي مثل هذا التفكير يا بني ؟

قال : ألا ترى يا مولاي انه اذا أمسى زوجاً لحبى امسى امر الحجابة بين يديه ؟

قال : اينتهي بك الامر الى هذا الحد ؟

— : نعم يا مولاي فالمحترش لا يصلح للحجابة وقد يعتزل حليل منصبه لهذا الكناني .

قال : اما ان المحترش غير اهل فهذا صحيح وفي خزاعة من هو اهل بعد حليل . واما ان يعتزل ابن حبشية سدانة الكعبة فذلك لا يكون وهو قادر على فتح الباب واغلاقه . أتظن يا زياد ان رجلاً يخضع له الحجاز ويهب سلطانه ونفوذه لسواه . وهو يملك قواه ! .

قال : ستنتهي الحجابة على كل حال الى الرجل الذي يتزوج حبّى .

— : نعم اذا كان من خزاعة .

— : واذا كان من كنانة ؟

— : يثور ابناء عمنا فيأخذون الحجابة منه بالسيف

- : وتستعر النار في الحجاز بيننا وبين أهل الشعاب .

- : لتستعر ، وليسقط الحجاز على رؤوس اصحابه على ان تكون الحجابة اليوم حليل .

قال عبدالله : أراكم تخافون شيئاً لا وجود له الآن .

قال زياد : لو كان موجوداً لمشينا اليه بالسيوف .

- : أتطمع بالحجابة يا مولاي ؟

قال : اذا رأيت انها ستخرج من يد خزاعة طلبتها لنفسي .

قال : هب ان حاجب البيت اختار صعلوكاً من صعاليك العرب وزوّجه ابنته فماذا تقول ؟

قال : ذلك حديث لا أريد ان أسمعه لانه لا يكون .

- : واذا اختار رجلا فقيراً مثل قصي لا يملك غير شرف المحتد فأي شأن لزياد بن كعب بهذا الزواج ؟

- : ليس له شأن .

- : اذن ليفعل حليل ما يطيب له على ان تبقى لك الامارة .

قال : أخشى ان اخسر هذه الامارة عندما يخسر بنو خزاعة حجابتهم .

- : وكل ذلك يفعله قصي يا مولاي ؟

- : نعم .

- : بقوة هبل ام بقوة الجيش الذي يقوده .

قال : ان قصياً الذي لا يملك اليوم مالاً ولا يقود جيشاً يمطره الحجاز ذهباً وجالا عندما يصير سيده . والفقير الذي يخرج اليوم الى يثرب في مال اخيه ليبيع الصوف تكثر وفود العرب ببابه عندما يستولي على الكعبة وتطرح الاموال على قدميه كما تطرح على أقدام الآلهة . ثم قال : وحبى . حبى وحدهـا هي الطريق الذي يسلكه قصي للوصول الى الحجابة . أجـل اني لا اعرف الفتى الشامي ولم أرَه . ولكن قلبي يحدثني بأنه سيكون له في الحجـاز شأن وفي حديث هذا القلب همس خفي تضطرب له نفسي .

فنهض ابو زياد وهو يقول :

نعم .. نعم .. سيخلق لنا هذا الكناني حرباً . وخرج من الحجرة الى قاعة الجلوس . فقال له النبلاء : من هو صاحب العمامة الخضراء ايها الامير ؟

قال : حجازي يسألنا قضاء حاجة له .

— : واين الامير زياد ؟

— : مع عبدالله وسيجيء الآن .

* * *

لي كلمة أقولها يا مولاي .

قالها عبدالله لزياد وهو يخفض صوته ، فأجابه قائلاً : عجّل فسأعود الى مجلس القوم .

قال : أي رأي لك في بني كنانة ؟

— : هم القوم الإشراف اصحاب المفاخر .

— : ألا ترى ان تضع يدك بأيديهم فيصبحوا لك .

— : وكيف ذلك ؟

— : انت تخشى ان يصبح ابن كلاب زوجاً لحبى فتنتقل السدانة اليه .

قال : وتنتقل الامارات واحدة بعد واحدة الى بني قومه ، ونخسر كل شيء ، ان الكنانيين ابطال اشداء ، وقد يخرج علينا فريق من قوم حليل من خزاعة . فيضيع كل أمل .

قال : افعل ما يفعله حليل يا مولاي .

فحدق اليه قائلاً : أفعل ماذا ؟

قال : اذا زفت حبى الى قصي زففت ليلى الى شريف آخر .

— : ومعنى ذلك ؟

— : معناه ان هذا الزواج يضمن سكوت القوم ويجعلهم حلفاء لزياد كما يجعلهم زواج حبى حلفاء لحليل .

قال : ليس القوم اعداء لنا اليوم ولكنهم اذا استووا في العرش جاهروا

بالمداوة ..

— : وعندئذٍ يمنعهم زوج ليلى من هذا .

فابتسم قائلا : ومن هو هذا الزوج ؟

— : هو صفوان يا مولاي .

فقامت ليلى وهمت بالخروج .

فاستوقفها زياد قائلا : امكثي يا ليلى فلا نريد ان نكتمك امراً . امكثي واسمعي حكمة عبدالله في هذا الرأي . هات يا عبدالله .

قال : ان صفوان بن الحارث ابن عم قصي ، هذا سيد في قومه والآخر مثله ، وسيكون رفيقاً له في سفره الى يثرب ، فاذا امسى قصي بعد زواجه غولاً يبتلع الحجاز كله كما تظنون كان صفوان وهو الذي لا تخشون الى جانب ذلك الغول يرده الى الهدى وينتزع من يده السيف الذي يخضع به الرؤساء والأمراء .

قالها وهو يضحك كأنه هازىء .

فاجابه زياد قائلا : انها الحكمة كما قلت لو لم تكن اعترافاً بالعجز . أتريد يا عبدالله ان يزفّ زياد ابنته الى رجل يخشى حربه ؟ انه زواج سياسي لا ترتاح ليلى اليه .

قال : لنترك السياسة يا مولاي ولننظر في الامر من الجانب الآخر . ألم يكن صفوان محسناً الى آل زياد ؟

— : بلى .

— : فهب انه جاءك خاطباً ليلى فماذا تقول له ؟

قال : لا ارده الا اذا ردته هذه ، وأومأ الى ابنته قائلا : لقد جاءك ابن الحارث الكناني خاطباً أتردينه ام تقبلين ؟

فأرخت نظرها الى الارض وقد استيقظت في صدرها عاطفة الحب ... ولم يسمع زياد جواباً .

فقال : ليلى . هبي ان صفوان ينتظر الجواب الآن .

فقالت : ليس في الزواج رأي الا اذا كان طالبه جبير بن عبدة .

– : أي انك ترضين بجميع الناس .

–: أرضي بمن يرضاه ابي لي .

– : رضيت بصفوان ؟

– : وأنا قد رضيت ·

فالتفت الى عبدالله وقال : بقي ان يجيئنا صفوان طالباً ليلى . هات ايضاً يا عبدالله .

قال : اذا جاز لي ان اذكر كل شيء قلت ان صفوان عاشق .. عاشق يذيبه الغرام .

– : وكيف اتاه غرامه ؟

– : ارسلته اليه عينان ساحرتان في قصر بن كعب واقسم برب الكعبة انه يحب ليلى ولولا عزة نفسه لخطبها الليلة .

قال : كأن الحب وعزة النفس لا يتفقان ايها اللعين ؟

– : بلى يا مولاي ولكن فتىً مثل صفوان يكره ان يطلب اليوم شيئاً لئلا يظن انه يسأل جزاءً .

قال: احسنت فستكون ليلى له عندما يشاء وسننظر مرة أخرى في امر قصي.

وحاول الأمير كثيراً ان يمحو عاطفة البغض التي تغللت في صدره فلم يستطع. ولم يعلم ما هو ذلك الصوت الخفي الذي يهامس اعماق نفسه .

ولو ذكر ذلك البغض لعبدالله لقال له :

انك يا مولاي تخاف هذا الفتى الكناني الفقير الذي يتحدث بأمره أهل مكة والذي لا حول له ولا طول .

وكانت ليلى مطرقة وهي لا تدري أكان أبوها هازئاً ام جاداً فيما ذكره عن الزواج . وحسب عبدالله اجل حسبه ان ليلى تعشق صفوان وهو لا يعبأ عندما يوجد الحب بارادة زياد وابي زياد فالاثنان لا يغضبان ليلى اذا اختارت لها زوجاً مثل صفوان .

* * *

أحبها حباً ملك عليه جميع مشاعره . حتى ان الليل انطوى كله وعيناه ساهرتان لم يغمض لهما جفن ، وكان يقول في نفسه :

يكفي زياد بن كعب ان يكون عنده مثل ليلى لتجتمع قلوب الناس على حبه.

وكان يفكر في الزواج ولولا تلك الكبرياء لعاد من الشعاب الى مكة يحمل قلبه بيديه ليطرحه على قدمي التي احب ، اجل . ان الكبرياء وحدها ، كانت تمنعه من اظهار غرامه كما قال عبد الله ، وهو يخشى ان يقول القوم في انفسهم : كانت ليلى جزاءً لابن الحارث على ذلك المعروف ... ولم يكن يرى ، لشدة وثوقه بنفسه ، ان زياداً يرده اذا طلب ليلى ، او ان ليلى تأبى ان تكون زوجة له ، ولكن شيئاً واحداً كان يقطع عليه احلامه هو انه لم يكن يعلم ، اذا كان في صدر ليلى شيء من ذلك الحب الذي يعذبه ..

حتى طلع الصباح وهو يناجي طيف الحبيب .. فذكر عندئذٍ وعده وقام فانصرف الى منزل زهرة بن كلاب ليرى اخاه .

فلما وصل اليه كان قصي واقفاً امام خيمة له ينظر الى مكة الجاثية على قدميه كأنه يعرض ما فيها من احياء وقصور كما يعرض القائد جنده قبل ان يخوض المجال ، وقد وضع يده على جبينه مبتسماً لحلمه الذهبي ..

ولم يرَ صفوان حين وصوله لان عينيه كانتا تنظران الى ابعد منه ..

فقال صفوان مازحاً : ابيت اللعن ايها الامير .

فالتفت اليه قائلاً : اراك بدأت تسلم بالامارة يا ابن الحارث ؟

قال : نعم لاني رأيتك الآن اعظم الامراء .. وتغيرت لهجة صفوان عندما ابصر ذلك الجلال ..

فمشى امامه الى الخيمة وهو يقول : خبّرني ماذا فعلت بيمينك ؟

قال : لقد انتهيت منها الآن وسأبر فيها بعد رجوعي .

قال : لا اسألك عنها لاني احترم اسرار الناس ولكني اريد ان ترافقني بضمير هادىء وقلب مطمئن ..

– : لو لم يكن ضميري هاهنا لجئتك الآن معتذراً ، متى نسافر ؟
قال : النوق تعج وراء الخيام وقد اعد الغلمان كل شيء .. نترك مكة غداً عند المساء فاختر لك ناقة تركبها ..
قال : اتركب النوق يا قصي ؟
– : اجل فهي خير الدواب في الاسفار .
– : ولكني لا اركب غير فرسي وقد اعددت لك فرساً آخر اهبه لتاجر الصوف ..
قال : دعها في الشعاب فلا حاجة لي الى الخيل .
قال : اترفض هديتي ؟
– : اقسمت اني لا آخذ من احد شيئاً الا اذا اصبحت ذا مال .
– : وكيف تأخذ من زهرة ما تشاء ؟
– : ذلك مال آل كلاب وانا منهم فلا تعد الى مثل هذا واترك ذلك الفرس ريثما اعود .
ومتى قال قصي كلمة فكلمته قضاء لا يرد ، فلم يلج صفوان في طلبه بل قال: سأتركه اذاً ريثما تعود وبين يديك المال .
قال : وعندئذٍ نبحث عن شيء آخر ..
فلم يعلم الفتى ما الذي عناه فقال له : ما هو ذلك الشيء ؟
– : ستعرفه بعد ان نبيع صوفنا في يثرب .. انك يا صفوان فتىً باسل وتحب الحرب .. أليس كذلك ؟
فابتسم قائلاً : وهل نخوض غمار الحرب في يثرب يا قصي ؟
فقال وعيناه تلمعان : اما في يثرب فلا .. ثم قال : ولكن من يعلم اين تشتعل النار ..
قال : انك تحدثني بما لا أعلم ..
– : اصبر فقد عودنا الزمان الصبر ..
ومد يده الى الافق .. فوق جبال مكة واخذ يقول : سنحارب هذا

السحاب الاسود الذي يجر ذيوله فوق الحجاز حتى ينجلي .. اذهب يا صفوان وأعدّ ما تحتاج اليه ..

قال : الفرس ملجم . والسيف بالسرج .. وسآخذ معي بعض المال انفقه في يثرب واشتري ، ان بقي منه شيء درعاً من دروع الاوس .

قال : اما الدرع فأهبها لك .

فلمعت عيناه قائلا : لقد اقسمت انت يا قصي انك لا تأخذ من احد شيئاً الا اذا اصبحت ذا مال . اما انا فاقسمت اني لا آخذ من أحدٍ شيئاً ما بقيت .

فقال : صدق الذين قالوا انـك اعز الناس .. ودخل زهرة في تلك الساعة فقال : ألا ترى الكاهنة قبل سفرك يا قصي ؟ فنهض وهو يقول : اراها الساعة لوجه السماء مكفهر . والغيوم كثيرة سوداء .

فقال صفوان : اما انا فأرى السماء صافية والافق يبسم لي ..

وقام فخرج وهو لا يفهم شيئاً من هـــذه الالغاز التي يرددها ابن كلاب ، ولكنه كان واثقاً بان قصياً سيفضي له في يثرب بجميع ما عنده من اسرار كما قال ، وجعل يفكر في الرجوع الى مكة ليرى ليلى . غير ان الكبرياء انتصرت على العاطفة في ذلك الحين ..

* * *

عشرون ناقة باحمالها ، وثمانية من العبيد يتبعهم قصي على بعيرٍ له وصفوان على فرسه الحمراء ذات الهلال .

والاثنان يتلفتان الى الوراء ، الى مكة .. هذا يفكر في اطماعه واحلامه وهذا يفكر في غرامه ..

وفي الاثنين الاطماع والحب ، عاطفة فياضة هائجة ، واستسلام الى اللذة .

كان قصي بن كلاب يحلم بالاستيلاء على الكعبة ؛ وخيال حبى يمر امام عينيه ، وصفوان بن الحارث يحلم بالاستيلاء على قلب ليلى بنت زياد ..

وكاد ينسى ابن عبادة ..

اي ان الفتيين اللذين هما في زهرة العمر كانا يفكران في الفتح . ولكل واحد

منها كعبة تتجه اليها عاطفته واحساسه .

وكانا ساكتين حتى احتجبت مكة وراء الجبـــال .. فرفع صفوان رأسه قائلاً : والآن يا قصي ..؟

قال : اما الآن فلا شيء ..

— : أتحب الرجوع الى الشام ..؟ فاستفاق من ذهوله وهو يقول :

ما تركت الشام لأعود اليها .. ولكني اذكرها وفي الذكرى مرارة وألم ..

فخيل الى صفوان ان قصياً احب احدى الحسان في الشام وفصلـــته عنها الاقدار . فقال له : اذا كان في الذكرى ألم فانت من العاشقين ..

فابتسم قائلاً : اجل ولكني لا اعشق النساء . وليس في الشام كلهـــا امرأة يخفق لذكرها القلب غير فاطمة بنت سعد ..

— : وهذا يكفي ..

قال : انها امي .. وانا لا اذكر غيرها من نساء الشام الساحرات العقول .

قال : وما معنى هذا الألم ؟

فتنهد قائلاً: معناه اني رأيت الشام والحجاز فلمست القوة في الأولى وابصرت الضعف في هذا ، فتألمت .. وسيستمر هذا الألم حتى ارى هنا ما رأيته هناك .

قال : في الشام يقوم النزاع والحرب ..

— : وفي الحجاز يقوم الخمول ويعقبه الموت ..

قال : ورب الكعبة لئن حدثتني بعد بمثل هذا الغموض لأرجعن الى مكة.. اي خمول رأيت ؟

قال : اما الغموض فسيزول في هذه الرحلة ، واما الخمول الذي رأيت فـلا يزول حتى يذكر الماضي بنو كنانة ..

— : نحن ؟

— : نحن !

قال : أكانت قضاعة التي نشأت بينها اعزّ من قومك .

— وهل تذكرون العز يا ابن الحارث وانتم عبيـــد هؤلاء اليمنيين ، الذين

سادوا بلدهم ، واستولوا على بيتكم بيت العرب الاكبر ، وضربوا عليكم خراجاً تدفعونه كل عام وانتم صاغرون .. اتذكرون العز واعظم سيد فيكم لا يجسر ان يبني في مكة بيتاً يأوي اليه عندما يجن الظلام ؟.. انكم من نبلاء العرب ومن ساداتهـــا . ولكنكم تحبون بيع السكر والشمع .. وتعقدون اذناب الخيل في الميادين .. وترسلون رماحكم في الفضاء فتخترق الهواء ، وانتم ترون انهـا تخترق صدور الاعداء .. اجل يا اشراف الحجــــاز ، مرّوا بباب الكعبة وارفعوا رؤوسكم امام حاجبها اذا استطعتم ، بل اذهبوا الى آلهتكم وصلّوا لها دون أن تستأذنوه .. انظر يا صفوان .. انظر الى تلك الحياض التي تملأ ماء للحجاج بفناء الكعبة . أيجروء احدكم ان يرتوي منها في ساعات الحر بدون امره .؟ ان عزكم في رؤوس الجبال .. وعلى قمم الصخور الحمر والسود .. وفي الشعاب التي تقوم حولها الجدر الملساء .

ثم غير لهجته قائلا : أو لم تقل لي يا صفوان انك ستشتري في يثرب درعاً من دروع بني الاوس ؟

– : بلى .

– : ولكن قل لي اية حاجة لك الى الدروع ؟

فاجابه ضاحكاً : ألبسها يوم تغير على خزاعة ومن حولها من اليمنيين ..

قال: لقد هزىء زهرة قبلك كما تهزأ انت. حدثني اذاً بما تعلم عن بيع الصوف وعن سوقه .

– : بل اسألك عن قضاعة التي اوحت اليك هذه القوة، الا يبيعون هنالك السكر والشمع ؟

– بلى ، ولكنهم يبيعون شيئاً آخر عندما يعبس وجه الزمان .. انهم يبيعون ارواحهم يا صفوان ليحفظوا مجد آبائهم ويصونوا كرامتهم . اما نحن فقد استسلمنا الى اللذات وبذلنا دماءنا ومالنا في سبيل هؤلاء اليمنيين ، ليتربعوا في العرش الذي خلق لنا . ويستولوا على البيت الذي بناه جدنا اسماعيل ..

وكان يتكلم واطماعه ترتسم على جبينه والابتسامة ، ابتسامة الواثق بنفسه

لا تفارق شفتيه ..

ثم قال : ابناء عدنان ينشئون في العراق والشام ، دولاً يعترف بهـا الفرس والروم، وفي الحجاز ، يخسرون عزهم وينسون امجادهم، كأن السماء التي يعيشون تحتها غير السماء التي يستظل بها الآخرون ، وكأن الهواء الذي يكتنفهم لا يحمل فوق اجنحته نسمات الحياة ..

فأحس صفوان ان روحاً جديدة تخفق في صدره ، وان الالفاظ التي يرسلها قصي نار تحرق احشاءه ..

فمن هو هذا الفتى الذي قدم من الشام لينفخ في بوق الثورة ؟

ان بني كنانة اشراف الحجاز ولكنهم عبيد .. انهم حفدة اسمـاعيل وبيت اسماعيل في يد الاجنبي .. وانهم سلالة عدنان وهم خاضعون لابناء قحطان ..

وذلك هو العجز والضعف . والذل والهوان ..

ومثل صفوان بكبريائه وعزة نفسه ، لا يحتاج الى المزيد في البيـان فقال : ورب الكعبة لا اجد ما ادافع به عن قومي. انهم كما ذكرت يا قصي ولا يفكرون في غير البيع والشراء ..

– : وانت في اي شيء فكرت قبل الآن..؟انك تجمع الخيل ازواجاً وتجعل على ظهورها سروج الذهب.واذا حملت السيف فلكي يعلم الناس انك ابن الحارث ابن شجنة وانك من النبلاء الاغنياء ..

فأرخى الفتى عينيه الى الارض وهو يقول : أصبت ورب الكعبة..ولكني لا احب الظهور كما قلت . وهذه العمامة التي اجعلها على وجهي تشهد لي .

قال : سمعتهم يقولون في مكة انك تبذل المال للفقراء بسخاء .. فماذا فعلت لقومك ؟؟

– : اغيثهم بهذا المال في ايام الضيق .

– : ولكنك لم تمحُ ذلهم ولم تسترجع مجدهم ..

– : لو كنت قادراً لفعلت .

فرفع عينيه الى العلاء قائلاً : امـــا انا فسأفعل ولا احتاج بعد الحصول على

المال الا الى بني قومي يضعون ايديهم بيدي لأبلغ الغاية .

فوقف الفتى ومد يده وقال :

هذه يد صفوان بن الحارث اول من يمشي تحت لواء المجد ..

قال : اتعاهدني على الوفاء ؟

فاجابه قائلاً : لا نعد الا لنفي بما وعدنا .

— : ولكني كثير الاطماع يا صفوان ولا تخمد نار اطماعي الا اذا بلغت قمة العز .

— : ذلك ما ارغب فيه .

— : والطريق صعب يكمن لنا فيها الموت ..

قال : ما خلقت الا لأقتحم الاخطار .

— : واذا خطوت الخطوة الاولى فلا أرجع .

قال : سأضع قدمي حيث تضع قدمك .

— : وقد توقد النار في الحجاز ويمتد لهيبها الى قومك .

قال : قصي بن كلاب خير من عرفت من قومي وسأخوض معه هذه النار .

— : والآن فاقسم لي انك تطيعني كما يطيع الجندي قائده وانك لا تسألني عما افعل ..

فقال ولم يتردد : ورب الكعبة ..

فقاطعه قصي قائلاً : كفى فقد وثقت بك يا ابن العم كما اثق بنفسي .

ومد يده فتصافح الاثنان .. القائد واركان حربه . وهذا الاخير لا يعرف الطريق الذي يسلكه قائده ..

* * *

لم يكن قصي يعرف يثرب «المدينة» الا كما يعرفها القادم من الشام الى مكة، وهو لم يقدم مكة الا هذه المرة . وكان مروره بيثرب مع جماعات الحاج من قضاعة . اما صفوان فكان يعرفها كما يعرف عاصمة الحجاز وله بين فتيان الأوس والخزرج اخوان مودة وولاء ، فلما وصلا اليها ، رأيا السهل الشرقي الذي يضيق حتى يبلغ بقيع الفرقد غاصاً بالناس ، وتلك الساحات خارج السور وداخله

تعج فيهـــا النوق وتصهل الخيل ، فخيل اليهما ان يثرب في حرب . لولا تلك الفوضى في الصفوف واختلاط الناس على غير نظام .

ولم يلبث قصي حتى عرف ان اولئك الناس من اهـــل الشام بدليل تلك الثياب التي يلبسون . فقال لصفوان : لم يلجأ اهل الشام الى الحجاز الا لأمر .. اسأل هذا الرجل الواقف كجذع النخلة وراء الصفوف .

فأومأ الفتى الى الرجل فأقبل . فقال له : متى قدمت من الشام ؟

فسمع الرجل صوتاً عذباً ورأى وجهين يطفحـان بشراً وجمالاً ، فظن انهما من ابناء الملوك فقال : قدمت من يومين ، وهذا الثالث .

— : وهؤلاء الناس جميعهم من الشام ؟

— : نعم .

— : وماذا جرى عندكم ؟

— : ما يجري في كل بلد تعصف به الحرب .

فقال قصي : هل لك ان تتبعنا الى السوق فتحدثنا بما تعلم .

قال : افعل .

فترجلا،ومشى الثلاثة معاً يتقدمهم صفوان الى سوق يثرب..وكانت طوائف العرب تروح وتجيء في تلك السوق .

فقال صفوان : نبيـع صوفنا الآن ثم ننظر بعد ذلك في الامر الذي نشاء

قال : افعل ما يطيب لك .

ولم تكن غير لحظة حتى راح غلمان عريف السوق ينادون :

صوف مكة في الساحة .

وجعلوا يرددون نداءهم كما يفعل الدلال اليوم ، فأقبل القوم . واخـــذ قصي يساوم بصوفه وهم يترددون حتى اصلح الدلال الاكبر بين قصي وبين الشاري وتم البيـع .

وكان زهرة بن كلاب قد علـّم اخاه شيئاً من فنون الاخذ والعطاء .. فلمـا قبض الثمن دفعه كله الى صفوان وهو يقول : ما تعودت ان احمل مالاً فاجعله في

سرج فرسك .. فتناول صفوان المال ودفعه بدوره الى احد غلمانه ، ثم مشى امام رفيقيه الى حي بني الاوس ليشتري درعاً كما قال .

فرأوا رجلاً يدعى الجلّاح جالساً بباب منزله الذي يشبه الحصن وهو احد رؤساء الأوس وقد جاوز السبعين ، وحوله فريق من فتيان قومه . يصف لهم بعض حروب العرب ويذكر الميادين التي خاضها في سبيل الشرف .

فقال صفوان : هذا الجلّاح زعيم الاوس يا قصي وعنده الدروع ترسل اليه من اليمن .

– : والآخرون ؟

– : هم فتيان الحي .

قال : اتذهب اليه ؟

– : اجل وسأختار الدرع التي اشاء .

فقال قصي وهو يبتسم : لقد دفعتني الاقدار الى الرجل الذي يبيع العرب دروعها ، وذكر عندئذ قول سودة .

فقال صفوان : واي شأن لك مع الجلاح ؟؟

– : أرى دروعه التي وصفت ثم اشتري منها اذا طاب لي الشراء .

قال : اتتهيأ للحرب ؟

– : اعد لها العدة فقد تستعر نارها في يوم لا نجد فيه واحداً من قومنا يلبس درعاً .

وكانا قد وصلا والشامي وراءهما ، فقال الجلّاح يخاطب صفوان : لقد رأيناك اخيراً يا ابن الحارث .

فاجابه قائلاً : لا نقدم المدينة حتى نبادر الى المثول بين يديك .

قال : وأرى معك فتى من قومك .

– : وكيف عرفت ذلك ؟

قال : اعرف فتيان كنانة من صباحة الوجوه ، فمن هو ؟

– : قصي بن كلاب .

فدهش قائلاً : لا اعرف لكلاب بن مرة ولداً غير زهرة ..

قال : نشأ قصي في الشام في حضن امه . فلما اطلعته على نسبه ترك قضاعة وقدم مكة في الشهر الحرام لاحقاً بقومه .

قال : مرحباً بالنبيلين من كنانة، ومن هذا ؟ واشار الى الرجل الآخر الطويل القامة الذي يتبعهما .

قال : هذا احد اضياف يثرب وقد دعوناه الآن لنسأله عما حدث في الشام .

فلما رأى الشامي ان الفتيين ليسا من ابنـــاء الملوك وانهما من اشراف مكة لمعت عيناه ببارق غريب وجعل يتفرس فيهما وقلبه يخفق في صدره .

فقال الجلاح : اجلسوا اقل لكم ماذا حدث في الشام .. لقد طاف بهـا الوباء ايها الشامي أليس كذلك ؟

— : اجل وطاف وراءه الموت ..

فقال قصي : واي وباء هذا ؟

قال : النعمان بن امرىء القيس ملك العراق ..

فقال ضاحكاً : متى كانت الملوك وباء ؟

فاجابه الجلاح قائلا : عندمــا يمشون عـــلى رأس جيشهم ويكونون رسل الفناء والدمار ..

وجلسوا وقصي يسأل الرجل ان يقص عليه اخبار الحرب .

فقال : وماذا أقص عليك من هذه الاخبار . عاصفة طائشة ، هوجـــاء ، مجنونة ، تهدم القصور والابراج وتدك الحصون والاسوار ، ويصرع تيارها كل من يتصدى له من الناس . تلك هي حرب ملك العراق في الشام ، ذبح وهدم . وسبي وغنم . واكثر المصائب في اهل ذلك القطر ، حتى فر القادرون على الفرار لاجئين الى بلاد الله . هذا الى فلسطين وهذا الى شواطىء البحر . والآخر الى الحجاز ريثما يصفو وجه السماء وتهدأ العاصفة .

ثم قال : ملك عربي يحارب ملكاً عربياً آخر . لخم وغسان يتنازعان النفوذ والسلطان . هؤلاء يدفعهم قيصر الروم . والآخرون يمدهم بفيلته وجنوده ملك

الفرس . وليقتل العربي اخاه ليسلم العرشان اللذان يسودان نصف العالم . انها والله حرب لا تشرّف اصحابها ، ولا يعظم لهم بعدها شأن .

وقصي كما رأيت رجل طماح الى المجد تدفعه ارادته الحديدية وكبرياؤه الى العرش بخطى جبارة واسعة . رجل حرب يؤثر الموت على الذل ، فلا يطيق ان يسمع فلسفة ذلك الرجل الجبان ، الفار من الميدان . فقال له :

أتريد ان تصبر الملوك على ضيم ؟ وتسكت على غل ؟ فتزول هيبتهم وتضمحل قوتهم ، ثم تهوي العروش من تحتهم الى درك الذل ؟ وكيف يستطيع هؤلاء ان يحفظوا تيجانهم دون ان يغزوا بلداً او يجردوا سيفاً ؟ ان النعمان في حربه ، جبار عربي ، يحب ان يمد رواق ملكه فوق ربوع الشام اذا استطاع ، وفي هذا وحده . أجل في هذا وحده ، دليل على انه خير من تقدمه من الملوك على عرش العراق .

فسكت الرجل . اما الجلّاح فقال :

ان الحرب لا بد منها وان تكن رسول الموت . يجيئنا العربي من تهامة او من نجد او من العراق حاملاً سيفه ولابساً عدة حربه ، فيسوق نوقنا واموالنا ويسبي نساءنا واطفالنا . ونحن ساكتون ! انها والله شريعة لا تعرفها العرب . اسمع يا ابن كلاب . كنت منذ عشرة اعوام في ضيعة لي في سفح أُحُد . فبينا انا اطارد ظبياً على فرسي ذات الجناحين عرض لي فارس هو محارب بن الليث الكندي وكان قد قتل منا ثلاثة رجال وسلبهم ما يحملون وكان سيفه بيده وهو يومىء اليّ به ، فوقفت فرسي وقلت : ماذا تطلب ؟ فقال : واحداً من شيئين : اما رأسك واما هذه الفرس . وانا اعلم ان محارباً من فرسان العرب . فترجلت وترجل ثم أهويت له بالسيف فوثب الى ما وراء فرسه فاصابت الضربة عنق الفرس فتدلى حتى اصبح كالمخلاة . وفرّ محارب . أفكان عليّ ان اتخلى لهذا الكندي عن فرسي فتتحدث بي العرب ؟ ورب الكعبة لو عرض لي النعمان كما عرض لي محارب لضربته بالسيف ولم أبالِ .

قال : لقد احببت النعمان وانا لا أعرفه وأحببت وباءه .

قال : يظهر انك من رجال السيف يا بني ؟!

– : احترم الحرب في سبيل الشرف وان لم اكن من هؤلاء الرجـال . من يعرف هذا الملك الذي نتحدث عنه ؟

– : عرفته يوم استخلفه يزدجرد الفارسي بعد أبيه كما اعرف اباه امرءالقيس المحرق الاول ، وكما اعرف امه شقيقة ابنة ابي ربيعة بن شيبـان . . هو اعور يا قصي ولكن عينه الاخرى عين نمر ترى ما لا تراه العيون .. رأيته في ساحـة الحيرة يبسم للناس الهاتفين له ابتسامة الهازىء بجميع مظاهر الحيـاة ، ورأيت حراسه ابناء فارس ، لا يجسرون على النظر الى وجهه . كأنه النمر نفسه يبعث الهيبة الى النفوس . انه ورب الكعبة اعظم من رأيت من الملوك .

– : ولماذا قيل لأبيه محرق الاول ؟

– : لأنه اول من عاقب بالنار من ملوك الحيرة ، وقد ذكر لي بعض المقربين اليه ، ان في قصره دروعاً أراد بعض ولده ان يبيعها فلما بلغ الخبر النعمان قال لقهرمانه : خير لنا ان نبيع اولادنا من ان نبيع دروعنا .

وعندئذٍ قال صفوان : ألا تريد يا قصي ان ترى دروع الجلاح ؟

فاجابه هادئاً : ونشتري بعضها لفتيان الحي .

فقال الجلاح : وعندي منها مـا نسج من الزرد الابيض . اتعرفون عدوان اليمني مولى جبير بن عبادة ، احد فتيان مكة ؟

فقال قصي : لا اذكر اني اعرف فتىً يدعى جبيراً .

اما صفوان فقال : لقد عرفت جبيراً هذا بعد واقعة اشتهر فيهـا ، اين هو اليوم ؟

– : أتسألني عن ذلك وهو جار الكعبة ؟

– : سمعت انه ترك مكة الى نجد .

– : قد يكون ذلك فانا لم أسأل مولاه عنه .

فمرت سحابة سوداء امام عيني صفوان . قد يكون ابن عبادة في يثرب وهو فيها فلماذا لا يبحث عنه . ولكنه اذا سأل الناس لفت اليه نظرهم وفضح نفسه .

وقد يبلغ الخبر جبيراً وهو في مخبئه فيتخفى في بطن الارض .

ولو نظر صفوان في تلك الساعة الى الرجـــل الشامي الواقف وراءه لرأى الدم ، دم الحقد في عينيه المختلجتين .

وعاد الجلاح الى القول وهو لا يبالي .

أجل . بعث عذوان اليمني درعاً جديدة نسجت من الزرد الابيض يحملها الى سيده . بعثه اياها بفصيلين « الفصيل ولد الناقة اذا فصل عن امه » .

ومشى امامهم ليعرض الادرع .

فأزاح الشامي العباءة عن صــدره ، ولمس الدرع التي يلبسها ثم مشى معهم كأنه لم يسمع شيئاً .

وفي منزل الجلاح ، في ذلك الحصن عـــدّ قصي الدروع التي اختارها له صفوان على ان يعودوا فيأخذوها يوم يتركون يثرب . وخرجوا وصفوان يقول في نفسه :

لو قيل لي ان ابن عبادة يقيم ببئر من آبار هذا البلد لحفرتها جميعها حتى اقبض عليه ، وكان يفكر في تلك الدروع التي اشتراها قصي بالمال الذي ربحه .

اما قصي فلم يكن يفكر في تلك الساعة الا في ذلك الملك العربي الفاتـــح الذي يغزو الاقطار ، ونفسه تحدثه بانه سيجرد سيفه لاخضاع اعدائه يوم يصبح صاحب تاج ، كما يفعل النعمان بن امرىء القيس ملك العراق .

* * *

مطـامع قصي

قال المؤرخون ، بينهم ياقوت الحموي ـ ان قصياً كان في ايام المنذر بن النعمان ملك الحيرة وبهرام جور ملك الفرس .

وقال ابن الأثير : بهرام جور كان في ايام النعمان بن امرىء القيس والد المنذر .

اما ابو جعفر الطبري ففي كتابه ما يثبت ان الملك الفارسي المشار اليـــه عاصر الملكين العربيين ، الوالد وولده المذكورين .

وهو القول الاصح الذي تقوم عليه الشواهد ؛ فان يزدجرد استخلف النعمان ثم مات يزدجرد وملك بهرام جور ، ثم مات النعمان وملك المنذر ابنه وبهرام حي .

ولكي تعلم من هو بهرام جور ومن هو النعمان بن امرىء القيس وهما الملكان اللذان كان قصي في ايامها . نورد لك بعض ما ذكروه عن الاثنين اذ لا يجوز ان تقرأ اسميهما في فصول الرواية دون ان تعرف شيئاً عنهما .

ولا ننسى انك قرأت في رواية النعمان الثالث التي صدرت قبل رواية زينب كلمة مختصرة عن النعمان الاول ابن امرىء القيس ، ولكنك لم تقرأ تلك الكلمة عن بهرام الفارسي ، وليس عليك من بأس على كل حال ، اذا ذكر لك اليوم ما ذكر لك امس ، عن ملك له صلة بالموضوع الذي تهتم به .

النعمان الاول هو صــــاحب الخورنق ، والخورنق احد قصور العرب وقد ذكره الشعراء وكتب الادب ، كما يذكرون اليوم قصور اللوفر وفرسايل والفاتيكان ، والبيت الابيض .

وكان النعمان اعور كما مر ، وهو من اشد ملوك العرب نكايةً باعدائــه ، كما

يقول الطبري ، وابعدهم مغاراً واعظمهم شأناً ، وقد غزا الشام اكثر من مرة وامطر اهلها مصائب وذلاً .

اما الخورنق فيذكرون لبنائه سبباً قد لا يكون صحيحاً قالوا :

« ان يزدجرد الاثيم ابن بهرام كرمان شاه بن سابور ذي الاكتاف ، كان لا يبقى له ولد ، فسأل عن منزل بريء صحيح من الادواء والاسقام ، فدلوه على ظهر الحيرة عاصمة ملوك العراق، فدفع ابنه بهرام جور الى النعمان الاعور وامره ببناء الخورنق مسكناً له . وانزله اياه وامره باخراجه الى بوادي العرب .

« وكان الذي بنى الخورنق رجلاً يقال له سنّمار ، فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه واتقان عمله فقال :

« لو علمت انكم توفونني اجري ، وتصنعون بي ما انا اهله بنيته بناء يدور مع الشمس حيث ما دارت ، فقال النعمان : وانك لتقدر على ان تبني ما هو افضل منه ثم لم تبنه ? فأمر به فطرح من رأس الخورنق »

وفي هذا الحادث يقول ابو الطحان القيني :

جزاء سنّمار جزاها وربها وباللات والعزّى جزاء المكفر

وقال سليط بن سعد :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبرٍ وحسن فعلٍ كما يجزى سنّمار

وقال غيرهما اشعاراً كثيرة فيه :

واما بناء الخورنق ، فلم يكن سببه يزدجرد او بهرام جور كما رأيت ، وانما دعاه الى بنائه التبسط في العيش، والتشبه بملوك اليمن وملوك الفرس ، والذهب الكثير الذي ملأ به بيت ماله ، وقد رأى وهو الملك الجبار ، الذي تدين له العرب ، ان يتخذ له قصراً يشرف منه على الحيرة ، ويطل على النجف وما يليه من البساتين والنخل، والجنان والانهار من ناحية المغرب ، وعلى الفرات وما على ضفتيه من ناحية الشرق كما فعل الملوك قبله في بناء قصورهم واظهار عزة الملك .

واجتمع للنعمان الاول من العبيد والخول والاموال ما لم يملك مثله احد من ملوك الحيرة لا قبله ولا بعده ..

وكان النعمان هذا صهراً لزهير بن قيس بن جذيمة العبسي « الذي تعرفه من قصة عنتر » .

فأرسل الى زهير يستزيره بعض اولاده ، فأرسل ابنه شاساً ، فأكرمه النعمان واعطاه مالاً وطيباً ، فلما رجع شاس يريد قومه، قتله في الطريق رباح بن الاشل الغنوي ، واخذ ما كان معه وهو لا يعرفه ..

وزهير يومئذٍ سيد قبائل قيس عيلان ، فبلغه ان ابنه اقبل من الحيرة وكان آخر العهد به بماء من مياه غني ، فبذل زهير جهده في البحث، حتى عرف القاتل فجعل يغير على بني غني ويقتل منهم وكانوا حلفاء بني عامر بن صعصعة وهم بطن من هوازن ، فنشبت الحرب بين عبس وهوازن .

وفي اثناء ذلك خرج زهير في اهل بيته بالشهر الحرام الى عكاظ كعادته في كل عام ، وكان هنالك خالد بن جعفر سيد هوازن فقال له خالد « لقد طال شرنا منك يا زهير .

فقال : اما والله ، ما دامت لي قوة ادرك بها ثأراً فلا انصرام له ».

وكانت هوازن تعطي زهيراً كل سنة في عكاظ خراج ارضها ، لانها فرع من قيس عيلان ، وزهير يسومها الذل وفي انفسها منه غيظ وحقد ، ثم عاد زهير وخالد الى قوميها ، وسبق خالد زهيراً فجمع قومه وندبهم الى القتال فاجابوه ، وتأهبوا للحرب ، وخرجوا يريدون زهيراً .

اما زهير فنزل باطراف بلاد هوازن ، فقال له ابنه قيس « صاحب حرب داحس والغبراء » :

انج بنا من هذه الارض فانت قريب من عدوك »

فقال له يا عاجز ، ما الذي تخوفني به من هوازن وتتقي شرها ، فانا اعلم الناس بها ، فقال ابنه ، دع عنك اللجاج واطعني وسر بنا فاني خائف عاديته ، فلم يطعه .. وكان خالد يتجسس اخبارهم، فلما علم بمكان زهير ركب اليه واقتتلا فقتل زهير ، وخالد يعلم انه سيد غطفان وعبس وذبيان ، فخاف ان تطلبه ، فسار الى النعمان بالحيرة فاستجاره فأجاره وضرب له قبة ..

اما ابناء زهير فجمعوا لهوازن ، فقـــال الحارث بن ظالم المريّ : اكفوني حرب هوازن فاكفيكم خالد بن جعفر .

وسار الحارث الى النعمان فدخل عليه وعنده خالد وهما يأكلان تمراً ، فأقبل النعمان على الحارث يسأله عن قومه ، فحسده خالد فقال للملك :

أبيت اللعن هذا رجل لي عنده يد عظيمة ، قتلت زهيراً وهو سيد غطفان فصار هو سيدها .

فقال الحارث: سأجزيك على يدك عندي ، وجعل يتناول التمر ليأكله فيقع من بين اصابعه من الغضب ..

وكان عروة اخو خالد حاضراً ، فقال لأخيه :

ما اردت بكلامه وقد عرفته فتاكاً ؟

فقال : وما تخوفني منه ، فوالله لو رآني نائماً مـــا ايقظني ، ثم خرج خالد واخوه الى القبة فاغلقا بابها ونامخالد وعروة عند رأسه تحرسه، فلما اظلم الليل ، انطلق الحارث الا خالد ، فقطع شرج القبة ودخلها وقال لعروة :

لئن تكلمت قتلتك .. ثم ايقظ خالداً فلما استيقظ قال : اتعرفني يا خالد ؟

قال : انت الحارث ؟

قال : خذ جزاء يدك عندي ، وضربه بسيفه المعلوب فقتله ثم خرج وركب راحلته وسار .

وخرج عروة من القبة يستغيث حتى اتى باب النعمان فدخـــل عليه واخبره فبث الرجال في طلب الحارث ..

قال الحارث يحدث بعضهم : فلمـــا سرت قليلاً خفت ان اكون لم اقتله فعدت متنكراً واختلطت بالناس ودخلت عليه فضربته بالسيف حتى تيقنت انه مقتول وعدت فلحقت بقومي .

فأصبح الحارث بن ظالم بين طالبين : النعمان يطلبه ليقتله بجاره ؛ وهوازن تطلبه لتقتله بسيدها ، فاستجار بتميم فأجاروه ، فلما علم النعمان بذلـــك جهز جيشاً حمل به على تميم ، واعانهم اهل خالد ببني عامر . واتى قيس بن زهير في

بني عبس وذبيان ، فانهزمت عامر وجيش النعمان ، بعد معركة كبيرة في وادي رحرحان لم يشتفِ بها قيس .

ذلك هو شرف العرب ووفاؤهم ، ونبالة اخلاقهم . يجيء خالد بن جعفر قاتل زهير ، نسيب الملك ، فيحميه هذا الملك ويجيره، ثم هو ما لبث حتى جرّد الجيش يطلب الحارث بن ظالم الذي قتله لا يعبأ بصلة الرحم في سبيل وفائه ..

ومرت الايام والملك في قمة مجده وزهو ملكه .. فبينا هو على متن النجف في يوم من ايام الربيع وقد اعجبه ما رأى من الخضرة والانوار والنور ، قال لوزيره وصاحبه : هل رأيت مثل هذا المنظر قط .

قال : لا لو كان يدوم .

قال : فما الذي يدوم ؟

– ما عند الله في الآخرة .

قال : فبما ينال ذاك ؟

– بترك الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده .

فترك ملكه من ليلته ، ولبس المسوح ، وخرج مستخفياً هارباً لا يعلم به واصبح الناس لا يعلمون بحاله .. وقد وقفوا ببابه في اليوم الثاني ولم يؤذن لهم عليه كما كان يفعل فلما ابطأ الاذن سألوا عنه فلم يجدوه .

وعرف بعد ذلك بالنعمان السائح .

بهرام جور

وعاد الطبري فقال عن بهرام‌جور نقلاً عن علماء الفرس ان اباه يزدجرد دعا بالمنذر بن النعمان واستحضنه بهرام ، وشرفه وملكه على العرب ، وحباه بالمراتب ، وأمر له بصلة وكسوة ، وأمره أن يسير ببهرام الى بلاد العرب .

فسار به المنذر الى الحيرة ، واختار لرضاعه ثلاث نسوة ذوات اجسام صحيحة ، وأذهان ذكية من بنات الاشراف ، منهن اثنتان من نساء العرب ، والاخرى من بنات العجم ، وأمر لهن بما اصلحهن من الكسوة والمطعم والمشرب

وسائر ما احتجن اليه .

فتداولت النساء رضاعه ثلاث سنين ، وفطم في الرابعه ، حتى اذا اتت له خمس سنين ، احضر له المنذر المؤدبين ذوي العلم ، المدربين بالتعليم ، ليعلموه الكتابة والفقه، والرماة ليعلموه الرمي . ثم جمع له الحكماء من الفرس والروم ، فألزمهم اياه ، ووقت لاصحاب كل مذهب وقتاً يأتونه فيه ، وقدر لهم قدراً يفيدونه ما عندهم ، فتفرغ بهرام للاستماع من اهل الحكمة ، ووعى كل ما استمع حتى فاق معلميه ، ومن حضر من اهل الأدب وهو في الثانية عشرة .

ويقولون ان بهرام جور ، ركب ذات يوم فرساً اشقر وهبه له المنذر ، الى الصيد ، فبصر بأسد قد شدّ على عير ، فتناول ظهره بفيه ليفترسه ، فرماه بهرام رمية في ظهره فنفذت النشابة من بطنه وظهر العير وسرّته، حتى افضت الى الارض ، فساخت فيها الى قريب من ثلثها، وكان ذلك بمشهد ناس من العرب وحرس بهرام ..!

ثم ان بهرام اعلم المنذر انه يشخص الى أبيه وكان ابوه يزدجرد لسوء خلقه ، لا يحفل بولدٍ له ، فاتخذ بهرام للخدمة ، فلقي من ذلك عناء .. ثم انصرف الى بلاد العرب ، واقبل على التنعم ، فهلك يزدجرد وبهرام غائب . فتعاقد الناس من العظماء واهل بيوتات الفرس ، ان لا يملكوا احداً من ذرية يزدجرد لسوء سيرته ، وقالوا ان يزدجرد لم يخلف ولداً يحتمل الملك غير بهرام ، ولم يلِ بهرام ولاية قط يتلى بها خبره ويعرف بها حاله .

وقالوا ايضاً: لم يتأدب بأدب العجم وانما ادبه ادب العرب وخلقه كخلقهم.. واجتمعت كلمتهم وكلمة العامة على صرف الملك عن بهرام الى رجل من ذرية اردشير بن بابك يقال له كسرى ، وملكوه .

وانتهى الخبر الى بهرام وهو ببادية العرب ، فدعا بالمنذر وابنه وغيرهما من اشراف القوم وقال لهم :

اني لا احسبكم تجحدون نعمة ابي واحسانه، وقد أتى الناعي ينعى يزدجرد، ويخبر ان الفرس ملكوا رجلاً من ولد اردشير .

فدعاه المنذر الى الصبر ، ثم جهز جيشاً من العرب وسار مع بهرام على رأسه ، حتى اتى القوم ، فدعا عظماءهم ، وسألهم ان يرضوا ببهرام ، فأجابوه وتربع بهرام في العرش .

غير انه لم يلبث حتى عاد الى لهوه ، فطمع به الملوك وحاربوه ، فترك لهوه ولجأ الى السيف فغلبهم ، وقتل بعضهم وكل ذلك بفضل المنذر الملك العربي .

* * *

نام قصي وهو يفكر في النعمان الفاتح كما مرّ ، اما صفوان فلم ينم ، وقد اعجبه هدوء ذلك الفتى القادم من الشام ، وآنس في صحبته اياه ، ذلك اليوم ، خلقاً كريماً ، ورصانة يحترمها الناظر ، معما يتبعها من مظاهر النبالة والادب ، وقد رأى ان الرجل لا يطيق ان يفارقه وان في صدره سراً تبوح عيناه بالرغبة في افشائه ، فقال له وهما جالسان في فناء البيت الذي ينزلان فيه :

لقد حان لي ان اسألك سؤالاً .

قال : سل ما تشاء يا صفوان ..

قال حفظت اسمي وانا لا اعرف اسمك .

– اما اسمي فيزيد .

– ذلك لا يكفي فمن هو ابوك ومن انت ؟

قال : لنترك اسم ابي فلا سبيل الى ذكره . واما قومي فموطنهم البحرين وانت لا تعرفها على ما اظن ؟

– ومتى قدمت من تلك الديار ؟

– منذ زمن لا اذكر اوله .

فقام في ذهن صفوان ان هذه الالغاز انما هي لغاية له ، فازداد ميلاً الى الاطلاع على ذلك السر ، فقال : اراك نسيت نفسك يا يزيد ؟

– اجل ، وسأنسى كل ما حولي بعد حين .

– لو لم يكن هنالك ما يدعوك الى ترك البحرين ، البلد النائي البعيد ،

والقدوم الى الشام لما فعلت .

قـــال : اتستغرب قدوم العربي من اقصى الشرق الى اقصاه ، وانت احد الحجازيين ، الذين لا تراهم في هذا القطر حتى تراهم في القطر الآخر ؟

– ان العربي لا يهجر بلده الا اذا اكره على الهجر .

– اصبت وانا عربي اكرهتني الأقـدار على ترك بلدي ولا ادري الى اي بلدٍ غيره تقذف بي .

فخيل اليه ان الرجل يفتش عن اسباب العيش فقال له : وهل تركت اهلك في الشام ؟

فابتسم قائلاً : أيفر الرجل من بلد ويترك اهله فيه ؟ كان لي من الأهل أب وأخ تخطفتهما يد الموت .

– في الشام ؟

– اما أخي فنعم . واما ابي ففي ديار قومه .

واسود جبينه وارتجفت شفتاه .

قال : لقد كتب للاثنين ان يموتا بطعن الخناجر ، قتل اخي فارسي في جيش النعمان ، طعناً من الوراء ، ولم يكونا في ساحة الحرب ، وقتل ابي رجل لا اعلم من اي بلد هو .

– اذن فقد ضيعت املك بالثأر .

قال : لا يضيع شيء وانا حي ..

– وكيف ذلك وانت لا تعرف اسم القاتل ؟

– اعود الى البحرين فـابحث عن ذلك الاسم ثم اطوف في بلاد العرب حتى اعثر عليه واجثو على قدميه طالباً منه ان يعطيني دماً بدم ..

– ولماذا لم تفعل قبل قدومك !

– لأن القاتل ضرب ضربته وانا في ربوع الشام .

– ودفن ابوك وانت لم تره ؟

– اجل فقد نقلوا الي خبر القتل بعد سنة .

قال : اترك الثأر يا يزيد فلا سبيل اليه .

– أتنصح لي وانت الحجازي الشريف بأن اكون من انذال العرب انك ابن كنانة كما يقول الجلاح وبنو كنانة اشراف من في الحجاز .. ثم قال : متى تعود الى مكة يا صفوان ؟

– يوم يعود قصي فالأمر له وحده ..

– ومن يكون هذا ؟

– هو ابن كلاب احد ساداتنا وسيخلف اباه في السيادة كما أرى وقد اقسمت اني اطيعه .

قال : رأيت نور السيادة يلمع في عينيه ..

– وانا اقترح عليك ان تنصرف معي الى مكة فتمكث فيها ونكون نحن الاثنين عوناً له في جميع اموره فتردد في الجواب ..

فقال صفوان : ما بالك يا يزيد ؟

فرفع رأسه وهو يتمتم قائلاً : الثأر قبل كل شيء .

قال : ستقضي العمر كله دون ان تعرف القاتل لأنك تجهل اسمه كما قلت ، اني مثلك يا يزيد، افتش عن رجل في الحجاز وانا اعرفه ، واعرف أصله وفصله، ومع ذلك فلم اجد له اثراً .

– ومن قتل من قومك ؟

– هو اضعف من ان يمد يده الى واحد من قومه ولكنه غدار وانا أخشى شره.

– اي انك تخافه وتريد ان تقضي عليه قبل ان يغدر بك .

– بل قبل ان يغدر بغيري فانه عدو احدهم .

– عدو قصي ؟

– لا فقصي لا يعرفه بل يكاد لا يعرف في مكة غير عشيرته وسادن الكعبة حليل بن حبشية ، ولكنه عدو احد الامراء ..

– ومن هو هذا الامير ؟

فضحك قائلاً : ذلك سري فلا ابوح به .

قال : لكل منا سره يا صفوان .

– أجل وكلانا يكتم الآخر هذا السر ، قل يا يزيد أتذهب معي الى مكة ؟

قال : أتظن اني أترك الحجاز قبل ان أزور البيت ؟ نعم اذهب وسأمكث بها بضعة ايام او بضعة اشهر .

– وقد تطيب لك الاقامة فتمكث بها اعوام نكون فيها أخوين ..

فتنهد الفتى كأن سره يكاد يخنقه .

فقال صفوان : اذا كانت لك في الحجاز حاجة فاذكرها. انك ورب الكعبة لم تقدم الحجاز الا لأجل هذه الحاجة .

– وما يدلك على هذا ؟

قال : لا أذكر مكة حتى يكفهر جبينك وتبرق عيناك ..

قال : اما الجبين فيكفهر عندمـا أرى ان هـذا الطواف في البلاد سينسيني ثأري ، واما بريق عيني فلأني سأزور البيت .

– وليس هنالك شيء آخر ؟

فاطرق قليلاً ثم رفع رأسه قائلاً :

وهل تريد ان ابوح لك بجميع اسراري وانت تكتمني كل مـا في صدرك ؟ اجل ، قد يكون هنالك شيء آخر ولكن لا اذكره لك .

– وذلك الشيء في مكة ؟

– نعم ولا ..

قال : انك تهزأ بي على ما أرى .

– بل هذا هو الواقع .

قال : انك شديد المراس يا يزيد لا تلين ألا تريد ان نتفق ..

– على ماذا ؟

– على ان اكون مثل اخيك الذي قتلته الحرب .

فتلألأ الدمع في عينيه ولم يجب ، ثم استطرد صفوان قائلاً : وعلى ان تبوح لي بكل ما عندك فأبوح لك بما عندي ..

فمسح دموعه وهو يقول : وتعاهدني على الوفاء ؟
قال : لقد قلت كلمتي الآن وستعرف بعد حين من هو صفوان بن الحارث الذي يمد اليك يده .
فقال ولم يتردد : اذن فاعلم اني لم اترك الشام هارباً من جيش العراق كما قلت ..
قال : احسنت فقد خيل الي من قبل انك الفتى الجبان الذي يفرّ عندما يرى السيف ، ولماذا قدمت يثرب ؟
– لأني خفت أن اموت في الشام كما قتل اخي فينزل ثأري معي الى القبر.
– اذن كنت صادقاً فيما رويته لي عن قتل ابيك في البحرين .
قال : ضرب ابي بخنجر القاتل ولكنه لم يمت في ذلك الحين بل دفعته الاقدار الى بلد آخر مات فيه .
فوضع صفوان يده على جبينه وهو يفكر في حكاية سمعها من قبل.. ثم قال: اي ان أباك طاف في البلاد بعد شفائه يبحث عن قاتله .
– هو ذاك .
– ولم يغدر به القاتل الا ليسلبه ماله .
– اجل .
– وكان ذلك القاتل حجازياً .
فتمتم يقول : نعم كان حجازياً .
قال : ومن مكة .
فدهش يزيد ولم يستطع اخفاء دهشته .
وصفوان يقول: نعم من مكة وقد جاءها ابوك ليضربه مثل ضربتهولكنه!
فصاح قائلاً : كفى فانت من الانبياء .
– بل انا مثل جميع الناس .. اسمع يا يزيد .. كان ابوك قد اوصى قومه في البحرين بان يطلبوا بدمه اذا دهمه الموت .
فجعل يحدق اليه ويقول : لم أر أغرب من هذا ورب الكعبة ، انك تصف

الحادث كأنه الآن امـــام عينيك ولو لم اسمع الجلاح يدعوك صفوان لقام في ذهني انك القاتل نفسه .

– مع ان الجلاح ذكر لك اسمـــــه وهو لا يدري ، كما اذكره لك الآن وانا ادري ، انه عبادة ابو جبير ، وابوك ربيعة بن سلول .

فجثا يزيد عـــلى ركبتيه امام صفوان وهو يبكي كما يبكي الطفل اخذوه من حضن امه . فقال له : ما الذي يبكيك ؟.

قال : حزني على ذلك الوالد الذي دفن بمكة ولم أره وفرحي بالعثور عـلى الغادر اللص الذي كادت الحرب تقذف بي الى القبر قبل ان أعرفه . ثم قال : انه في مكة يا صفوان أليس كذلك ؟

– نعم ولكنه رفات بال تحت التراب .

فقال وصوته يضطرب : أمات عبادة ؟

– اجل ولكن الثأر لا يموت وابنه جبير حي .

فخفض صوته قائلا : وتربة ربيعة لا تقع عيني على جبير بن عبـــادة حتى اضرب عنقه بهذا السيف ولو كان في الكعبة .

قال : واين سيفك ؟

فرفع عباءته فبان السيف والخنجر والدرع .

فقال : اما الآن فقد ثبت لي انك من ابطال العرب .. ولكن أتغدر به كما غدر عبادة بأبيك ؟

– لا ورب الكعبة لا اضربه الا والسيف في يده . قم نذهب الى مكة في هذا الليل ..

قال : لقد نسيت اشياء كثيرة يا ابن ربيعة .

قال : ماذا ؟

فقال : ألم اذكر لك ان امر العودة بيد قصي .

– بلى ولكن اخشى ان يخونني الصبر .

قال كأنك واثق بان جبيراً ينتظرك في سوق مكة حاملا سيفه بيده ؟ ان اللعين ليس له أثر في عاصمة الحجاز .

فامتقع لونه قائلا : واين هو اذن ؟

– لو كنت اعرف مقره لسبقتك اليه ..

– وأي شأن لك معه ؟

– اطلبه كما تطلبه انت وهو الرجل الذي ذكرته لك ..

قال : لقد اتفقنا في كل شيء يا صفوان حتى في الثأر فمن هو الامير الذي تخشاه عليه ؟

قال : لقد جاء دوري الآن فاسمع ، واخذ يقص عليه حكاية ليلى وزياد الى ان قال : وبعد ان أمره الامير بمغادرة مكة فتحت الارض فاها وابتلعته حتى كدنا ننساه لو لم يظهر فجأة مولاه اليمني امام البيت كما ذكرت ..

– والآن ؟

– اما الآن فجبير بن عبادة بين طالبين كما ترى وسيظفرنا الله به ، ألم يخبرنا الجلاح ان مولاه اشترى له درعاً ؟ .

– أجل ، ولكن ما معنى هذا ؟

– معناه ان الفتى لم يغادر الحجاز كما ظننت واننـــا ان لم نجده في يثرب ، نجده في الطائف او بين احياء العرب التي تجاوز المدن في هذه الديار .

قال : أفلا تبحث عنه في هذه المدينة ؟

– بلى وسنبدأ البحث عند الصباح ، فقل لي الآن يا يزيد ، مـــاذا تحمل من المـــال ؟

قال : اما مال ابي فيحمله جبير في الجراب الذي سرقه أبوه ، وأمـــا المـــال الذي جمعته مع أخي في الشام فلم يبق منه غير القليل الذي لا يكفيني .. وماذا تريد بهذا السؤال ؟

– أريد أن أقول لك من الآن ان مالي كله بين يديك .

قال : كافأك الله يا أخي فأنت أكرم من رأيت .

قال : ويكون العهد بيننا الى الابد فلا تسأل أحداً في مكة قضاء حاجة الك الا صفوان ..

فكفكف الدمع المتساقط على خديه وهو يقول : لقد اصبح أغنى هل البحرين فقيراً ينزل العمر كله ضيفاً ثقيلا على الاشراف.اني لا أرضى بهذا العار .

– بل ترضى بكل شيء حتى تبلغ الغاية وتبر في يمينك .

– وبعد ذلك .

– تصبح بعد ذلك حراً ان شئت تركت مكة وان شئت بقيت . وغداً عندما يستفيق قصي تعرض عليه سيفك كما فعلت انا حتى اذا رجعنا الى مكة كنا كالاخوة لا يفرق بينهم الا الموت .

فحنى يزيد رأسه وقد رضي بهذا واستسلم الى الاقدار ..

واسترسل الاثنان الى التفكير .

ثم جعل صفوان يقول: أرى ان وجه الحجاز سيتغير بعد حين يا يزيد وهذا الفتى النائم في هذا المنزل هو الذي يغيره .

– وكيف ذلك ؟

– لا أعلم الآن ولكني أرى ان العاصفة ستثور لان السحب السود تغطي الفضاء ...

قال : أرى انك تحب قصياً كما تحب الآلهة !

– وستحبه انت بعد قليل كما تحب نفسك . ولكن احذر ان تذكر له شيئاً مما قلته لك الآن .

قال : أيكون لك هذا الاخلاص وتكتمه سرك ؟

– انه لا يعرف امراء مكة وفتيانها ولا أريد ان اطلعه على ما لا يعنيه الآن

– ولكنه سيعرف كل شيء .

– أجل ولكني سأكتمه سري ريثما يخطو الخطوة الأولى في سبيل غايته .

– أي انك لا تبوح له الآن بما في صدرك من عاطفة الحب .

– ولا اذكر له ليلى قبل ان يحدثني بأمر زواجه . واما انت فسأقص عليه

كل ما عرفته عنك وما كان من أمر عبادة مع أبيك فلعل له في ذلك رأياً .
قال : والآن فما هي غايته التي عرفت ؟

– لا تسألني عن هذه الغاية فهي لغز لم احلّ الطلاسم التي تكتنفه ، ان شيئاً واحداً استطيع ان اقوله لك ، هو ان له نفساً طماحة وارادة جبارة لا تنتهيان عند حدّ ، ومن يدري يا يزيد ، اجل من يدري ، فقد ترفعه نفسه الى ذروة المجد ، او تقذف به الى حضيض الهوان .

قال : ومن اجل ذلك رأيته ينتصر للنعمان بن امرىء القيس . انه اذن رجل حرب .

– هذا ما ظهر لي بعد ان عرفته ، وقد لا يطيق ان يبقى أمر مكة كما هو ، أتضع يدك بيده وتمشي مثلي وراء طموحه واطماعه !!

قال : افعل ولك ان تأمر لأطيع .

قال : فاذا رفعته الاقدار ارتفعنا معه وكان لنا شأن في الحجاز ، واذا خانه الحظ وحطّه القدر فلسنا خيراً منه .

وهكذا اتفق الاثنان في كل شيء ، في اباء النفس ، والعاطفة والاخلاق ، ويكفي ان يكون هنالك ذلك البغض ليجمع القلبين ؛ ويوحد الرأيين .

* * *

استفاق قصي وهو يبسم للاحلام والمنى . كأنه قضى ذلك الليل على العرش الذي يفكر فيه ، وأهل الحجاز يلتفون حوله . وكان صفوان يتهيأ مع يزيد للطواف في يثرب ، وقد بدأ يزيد يحسّ بالاحترام ، والاعجاب يملآن نفسه ، وكأن قصياً اصبح في نظره صاحب تاج .

فلما نهض قصي ، دخل عليه صفوان وهو يقول : كنا في يثرب اخوين فأمسينا ثلاثة . فنظر اليه قائلاً : اما الثالث فهذا ؟ وأشار الى يزيد .

– نعم وهو يزيد بن ربيعة من البحرين .

قال : وكان امس من الشام !

– كما انه كان فاراً من جيش النعمان .

– واليوم ؟

– اما اليوم فلم يكن شامياً كما رأيت وليس يزيد من الناس الذين يفرون من الحرب .

– اذن لم يكن صادقاً فيما رواه يا صفوان ؟

– لا ، ولم يخطر بالبال ان له حكاية تدعوه الى الكتمان .

– وهل تقصّ علينا حكايته ؟

– اجل ، ولكن بعد ان تهز يده التي يمدّها اليك .

فصافحه قصي وهو يبتسم ، كما صافح صفوان من قبل . وتعاهدا على الولاء والوفاء .

فقال صفوان : كان ربيعة بن سلول من اغنى تجار البحرين وله صهر من ابناء الحجاز يرافقه في رحلاته ويعطيه ربيعة من ماله . وكان يزيد واخوه في الشام لا يفكران في الرجوع الى البحرين الا بعد ان يكثر مالهما كما فعل ابوهما وهو في زهرة العمر . والجو صاف والزمان يبسم لها . ولكن رسولاً من البحرين ، نقل اليهما ان ذلك الصهر الحجازي أغمد خنجره في صدر ربيعة وهو نائم وسرق جراب الذهب الذي يحمله واحتجب عن العيون .

ومرت الايام يا قصي ، فاذا ربيعة ينجو من الموت ويطوف في بلاد العرب باحثاً عن قاتله ، غير ان هذا الموت كان كامناً له ، فلم تطأ قدماه أرض مكة حتى فتح له ذراعيه وضمّه اليه في قصر امير مكة حليل بن حبشية . ولكنه باح بسره لحاجب البيت قبل ان يغمض عينيه .

– والقاتل ؟

– كان القاتل قد مات وله في مكة ولد يتمرغ في المال المسروق ويفاخر قومه بذلك المال .

فقاطعه قائلا : كفى فقد عرفت الباقي .

قال : ماذا ؟

قال : جاء يزيد من الشام بعـد قتل اخيه يطلب بدم ربيعة .. فمن هو هذا الوارث النبيل ؟

– انك لا تعرفه يا قصي ولو ذكرت لك اسمه ، هو جبير بن عبادة .

– وقومه ؟

– بنو صوفة .

فوضع يده على جبينه قائلاً : وزياد بن كعب سيد قوم أليس كذلك ؟

– نعم وهو خير الامراء .

– ولكنه يعرف ذلك ويسكت عنه ..

فسكت صفوان لئلا يفضح نفسه ..

ثم قال قصي : وماذا تريد الآن يا يزيد ؟

فأجابه هادئاً : اريد ان أسقي هذا السيف من دم جبير .

فاطرق قصي ملياً .. ان ذلـك الثأر لم يكن من رأيه الآن .. ولو لم يكن عاهد الفتى على الوفاء لما كان له في ذلك رأي .. يُقتل جبير ، فتثور صوفة ، فيدعوه وفاؤه الى الدفاع عن يزيد ، وهو في زمن لا يهمه منه ، الا ان يسود فيه السكون والهدوء .

ثم رفع رأسه قائلاً لصفوان : الا تعلم ان مقتل جبير يسعر النـار في مكة ؟

فضحك قائلاً : ومن يسعّرها يا قصي ؟

– قومه وانصاره ..

قال : ليس له في قومه انصار ..

– اذن هو خليع .

– لم يخلعوه بعد ولكنهم لا يحبونه ..

قال : أيبغضه قومه والناس في كل زمان ومكان عبيد الاغنياء مثله ؟؟

قال : الناس يبغضون الغَني الذي يعبد ذهبه ولا يبذل منه درهماً واحداً في سبيل قومه ..

– اخشى ان يفسد عليّ ثأر يزيد أمري .

– ليس هناك ما يفسد امراً كما تظن ..

– أتضمن يا صفوان ؟

– نعم وسترى ان أهل مكة بعد مقتل جبير لا يرتفع لهم صوت .

– بقي شيء آخر لا تفكر فيه ولا تحسب له حساباً .

– ما هو ؟

– ألا يجوز ان يقتل يزيد ويسلم عدوّه ؟

فقال يزيد : بلى ولكني اوصي من الآن بان دمي هدر ولا اريد ان يطلب به احد ..

قال : يا صفوان صف لي صاحبنا ابن عبادة .

فاجابه قائلاً : اذكر لك اوصاف الذئب التي هي اوصافه .

– اراك تبغض الرجل كأن دم ربيعة بن سلول ، دم ابيك الحارث بن شجنة ..!

– أجل وليس في ذلك ما يدعو الى العجب ، فيزيد ، بقوة هذا العهد بيني وبينه ، اصبح أخاً لصفوان ..

– كما انه اضحى اخاً لقصي .. واين هو جبير اليوم .

– هذا ما لا يعرفه الا الله .

– الا يقيم بمكة ؟

– قد يكون فيها ولكنه يتخفى كما يتخفى اللص ولا يخرج من منزله الا اذا جنّ الظلام ..

ولم يقل له كلمة عما يعلم .. ثم قام مع يزيد يهمّان بالخروج .

فقال : الى اين ؟

– الى جنان يثرب واسواقها وآبارها نبحث عن الوارث النبيل .. ثم قال : أتعرف الى اي قوم ينتمي يزيد ؟

قال : وهل له قوم آخرون ينتمي اليهم ؟

– نعم ! هو من قضاعة وقد ترك الشام ليقيم بمكة مع رفيقه قصي بن كلاب ..

فضحك وهو يقول : كما تشاء يا صفوان. فيزيد قضاعي ، وقد نشأ في الشام رفيقاً لي .. وارتفعت اصواتهم بالضحك .

ثم عمد صفوان الى عمامته فغطى بها وجهه وخرج مع يزيد وهو يقول له : لا تعجب لما تراه فهذه العمامة هي حجابي الدائم .. واختلطا بالناس ..

* * *

ليس لجبير بن عبادة ظل في يثرب .. فقد طاف صفوان في جميع احيائها فلم ير له وجهاً ، ولم يكن هنالك اثر من آثار عدوان ، فترك المدينة واتجه الى الجنان .. ولكنه ابصر وجوها لا يعرفها .. فعمد الى الخيام والاكواخ خارج السور يتبين الوجوه الاخرى فلم يبلغ غايته ولم يكن يريد ان يسأل احداً عن جبير اذ ليس في السؤال شيء من الدهاء .

فقال ليزيد : يكفي ان يكون عدوان اليمني من رجال ابن عبادة ليكون نابغة في تخفيه ..

– ولكن عدوان يخرج الى المدن كما رأيت .

– واذا فعل ؟

– تستطيع بهذا السيف ان تنتزع سره من صدره .

قال : لو حملت جسم عدوان على رؤوس الاسنة لما خان سيده ولما باح بشيء

– اذن نعمد الى تدبير آخر .

قال : هو ان نتبع آثاره عندما نراه فنعرف اين يختبىء مولاه .

– نعم .

– ذلك ما افكر فيه يا يزيد ولكنه يخدعنا في جميع مظاهره .. انه داهية يفعل ما لا تفعله الجنّ ..

قال : لم يبق الا ان نستعين ببعض الناس نجعلهم عيوناً عليه حتى يسقط في الشرك ..

– سننظر في هذا بعد رجوعنا الى مكة لان لعبد الله مولى زياد بن كعب الذي ذكرته لك يداً في الأمر ورأياً .

– وقد يكون الرجل في يثرب فلا تقع عليه عين عبدالله .. أليس لـك في هذه المدينة من يسمع لك ؟

– اعرف بعض الفتيان من الأوس والخزرج ..

قال : ذا انصرفت الى مكة فاجعلهم عيوناً كما قلت .

– أنجعلهم يا يزيد عيوناً على من لا يعرفون ؟

قال : اما الجلاح فيعرف الاثنين .

فابتسم قائلاً : واذا كان هذا ؟

– يستطيع ان يقوم بما لا يقوم به فتيان قومه ..

– ذلك هو الخطأ كله ، أنجيء الجـلاح وهو سيد الأوس الاكبر فنقول له سنجعلك عيناً لنا على الناس ؟

– وماذا نفعل اذن ؟

– نرجع الى مكة كما قلت ثم نرى بعد ذلك .. وعـادا الى حيث ينتظرهما قصي . وصفوان يقول : اذا ضيعنا املنا اليوم فلا نضيعه غداً .

فقال قصي : ان الذي صبر بضعة اعوام يستطيع ان يصبر بضعة ايام .

* * *

– ٢ –

في تلك البقعة الحمراء التي تشرف على مكة جلست الفتاتان ، ليلى وحبّى ، بعد غيبة طالت ايامها ، وذلك الغرام الذي تتلظى ناره في صدريهما ، تبوح بـه العيون ، ويبدو بأجلى المظاهر وأروعها ، على ذينك الوجهين الزاهيين .

وعلى صخر آخر يبعد عشرين ذراعاً جلست الجواري الاربع وهنّ يبتسمن كالأميرتين للآمـال الضاحكة .. وبالقرب من الجمع ، امرأة سوداء على وجهها حجاب ، ترعى ناقـة لها ، في موضع ينبت غير الشوك .! وكانت ترفع ذلك الحجاب من حين الى حين لتتبين وجوه العذارى بوضوح وجلاء ..

فقالت ليلى : من تكون هذه المرأة ؟ ني لم ارها في هذا الموضع من قبل .

فاجابتها حبّى قائلة : جئت هذا المكان مع جواريّ ثلاث مرات ، وكنت كل مرة اراها ترعى هذه الناقة .. ان في مكة طائفة كبيرة من الجنس الاسود .

قالت : أترعى ناقتها بين الصخور حيث لا تقع العين على نبات أخضر ؟

– وهل تريدين ان تـذهب المرأة مع رعاة النوق كل يوم ؟ ان وجودها بين هذه الصخور ، خير لها من الذهاب مع الفتيـــان .. ثم قالت : ألم تري وجهاً احسن من وجه هذه السوداء نتحدث عنه ؟

فابتسمت قائلة : سأحدثك عن احسن الوجوه في الحجاز ، مــاذا تقولين لو سألتك عن قصي بن كلاب ؟..

فاحمرّ وجه حبّى واطلّ الحب من عينيها الذابلتين: ثم خفضت صوتها وهي تقول : تسألينني عن رجل لم اره غير مرة واحدة ؟

– اجل ومرة واحـــدة تكفني لمثل هذا السؤال ، ألم يزر سادن الكعبة في قصره ؟

– بلى وكان معه اخوه زهرة .

– وماذا جرى ؟

– دار الحديث بين الجميع على الحجاز والشام ..

– وانت تسمعين ؟

– نعم وكنت في مجلس القوم .

– في مكة خبر تتناقله الافواه وقد ملأ المسامع والاذهان .

– اذكريه يا ليلى .

– يقولون ان قصياً خطب حبّى

وهل صدقت ما يقولون ؟

– لم استغرب الخبر الا من ناحية واحدة هي ان سادن الكعبـــة لا يزوج رجلاً لا يعرفه ..

– ويجب ان تستغربيه من ناحية اخرى هي ان هذا الرجل لا يخطب الفتاة التي لا يعرف عنها شيئاً .

– اذن لم يكن ذلك القول صحيحاً ..
– لا ولم تذكر الخطبة في ذلك اليوم .
– واين هو قصي الآن ؟
– في يثرب وقد ذكر لأبي امر سفره اليها فأوصاه بأن يختار رفيقاً له من نبلاء قومه ..
– ومن كان ذلك الرفيق ؟
– قيل لأبي انه احد اشراف كنانة ..
– واسمه ؟..
– واسمه صفوان بن الحارث ..
فارتجف صوت ليلى وهي تقول :وانت تجهلين الفتى الذي تذكرين ..
– نعم ، اما أبي فلما نقلوا اليه الخبر قال : هذا خير فتيان اهل الشعاب .
– اي انه يعرفه من قبل .
– أجل ،
– كما عرفه ابي وعرفته انا ..
– انت يا ليلى ؟!
– نعم قد رأيته وحدثته قبل سفره الى يثرب مع قصي بن كلاب .
قالت : اني لا افهم ما تقولين .
– ولكنك ستفهمين كل شيء في هــذه الساعة ألم يعرض احد فتيان مكة صيفه على امير صوفة في ذلك اليوم الذي تعلمين ؟
– بلى .
– ألم يبذل أبي الجهد كله ليعرف صاحب ذلك السيف ؟
– اذكر ذلك واذكر ان عبدالله ضيع آماله بالبحث عنه .
– ولكن يجب ان تعلمي الآن اننا وجدنا الذي ضيعناه ..
– وعرف ابوك صاحبه ؟
– نعم وعندما اراد ان يعطيه بعض الجزاء استخف بالأمير ورد عطيته .

بكل ما في الاباء من عظمة وروعة .

قالت : ومن يكون هذا الفتى ؟

– رفيق قصي الى يثرب ..

فدهشت قائلة : صفوان بن الحارث ؟

– اجل يا حبّى ولقد اصاب ابوك في قوله انه خير الفتيان .. وجعلت تقص عليها كل ما جرى لا تخفي أمراً .

فلما خبرتها كل شيء قالت حبى :

لقد تم لنا الامر نحن الاثنين كما نشتهي فقولي لي أتحبين صفوان اليوم كما كنت تحبينه قبل ان تعرفيه ؟

فأجابتها قائلة : اسألك مثل هذا السؤال عن قصي ..

قالت : اما انا فأكاد اذوب حباً .

– وانا أخشى ان يصرعني هذا الغرام ..

وضحكت الاثنتان.. غير ان ذلك الضحك لم يمتد ، لأن تلك المرأة السوداء كانت قد اصبحت منهما على قيد خطوتين .. وقد سدلت حجابها ومشت ، بقامتها القصيرة ، وقدميها الثقيلتين ، تطلب الشوك لناقتها الجرباء بالقرب من الاميرتين .

فقام في ذهن ليلى انها سمعت كل ما قيل. واضطربت اضطراباً لم تعلم له سبباً.

فقالت لها : الا تلتمسين لك مكاناً آخر ايتها السوداء ؟

فرفعت المرأة رأسها وحدقت اليها من تحت الحجاب ، بعينين تتقدان ناراً .. ولم تجب .

ولما همت ليلى بأن تدعو جواريها انثنت تلك المرأة كأنها لم تسمع شيئاً .

ثم قادت ناقتها وانصرفت ..

فقالت ليلى : ان هذا الوجه وجه شؤم وانا خائفة .

قالت : أتخافين وجهاً لم تريه ؟ انها من عجائز مكة اللواتي يتنصتن لكل حديث يجري بين اثنين ..

– ولكني أخشى ان تكون عيناً لأحدهم ..

قالت : متى كان اهل مكة يجعلون العيون على النساء ؟؟

فاجابتها قائلة : عندما يكون بينهم رجال انذال مثل ابن عبادة ..

وكان قلب ليلى يحدثها بأن لهذه المرأة شأناً من الشؤون .

* * *

تقوم في اسفل مكة ، على جانب الوادي الغربي مضارب وخيام كثيرة ، تشد اطنابها الى الاشجار الكبيرة التي ترسل ظلها البعيد .

وأهل تلك الخيام خليط من العرب ، هذا يقيم بمكة شهراً وهذا يقيم شهرين والآخر لا يتركها قبل انقضاء العام . لحاجات لهم تضيق وتمتد .. ومعهم النساء والاطفال ، والخيل والنوق واشياء كثير يبيعونها امام الكعبة ، حتى انك لتقول ، ان ذلك الجانب الغربي ، بما فيه من مظاهر الحياة قرية صغيرة من قرى الحجاز تؤثر الانفراد والسكون على كل شيء .

ثم يجيء شهر من شهور السنة ، لا تجد فيه مضرباً واحداً من المضارب التي ذكرت ، ولا تقع العين الا على اثار البلد الصغير ، الذي انتقل بمن فيه الى موضع آخر ، وليس هنالك ، بين ذلك الخليط من الناس تمازج الا بالعادات .. وقد لا تجد خلقين ، متحدين ، متجانسين .. وليس الامر غريباً كما ترى ، فمن كل قطر رجل لا يعرف الآخر ، ولم يكن معه قط صلة تعارف وولاء ، ومع ذلك فقد تراهم مجتمعين ولكن لا رابط لهم ، كالغرباء النازلين ضيوفاً على احدهم ، يقص بعضهم على البعض الآخر ، حوادث الزمان والحكايات .

وقد يرحـــل الواحد منهم الى بلده ، دون ان يقول لجيرانه كلمة عن ذلك الرحيل ، ودون ان يذكر سبباً من اسبابه .

وهم ، في ذلك المحيط الغريب الشاذ ، لا يستغربون شيئاً مما يرون ولا يبالون الا بتلك الحاجات يقضونها ثم يتركون مكة ..

والناظر الى مضارب هؤلاء ، يرى خيمة منفردة قائمة على شفير الوادي يلجأ اليها شيخ بيضت الايام رأسه ، وزوجة كهلة لم يرها احد سافرة الوجه ، كأن

ذلك الحجاب الذي تغطي به وجهها ثابت على رأسها لا تنزعه الا يد الموت ..

وكان فتى ربعة قصير العنق ، يدخل تلك الخيمة ويخرج منها ، من ساعات الليل ، او في وضح النهار ، من حين الى حين .

على ان مـــا يدعو الى العجب ، ان ذلك الفتى تـستر وجهه عمامة خضراء كتلك العمامة التي رأيتها على وجه صفوان .. واغرب من هذا كله ان المرأة المحجبة يختفي أثرهـا عندما يكون الفتى في الخيمة ، كأن وجود الاثنين تحت سقف بيت واحد ، لا سبيل اليه .. أو كأن الاثنين شخص واحد ، يلبس ثوب المرأة وثوب الرجل عندما يشاء ..!

ولم يكن في الخيمة مظهر واحد من مظاهر السعة والرخاء ، فأصحابها فقراء كما يبدو لك وهم لا يملكون غير ناقة واحدة بلغت آخر العمر ..

امـا الشيخ فقوي البنية خفيف الحركة ، مـا استطاعت السنون ان تسلبه الهمة التي كانت له وهو في عنفوان صباه .. وكان يقول لمن حوله : ان المرأة زوجتي ، والفتى ولدي من زوجة أخرى ، وهمـا لا يتفقان .. واذا سألوه عن بلده قال لقد نشأت في البادية فلا اعرف بلداً لي .

والناس يصدقونه ولا يعبأون بما يرون ولا يسألونه عن تلك الزوجة السوداء.

اجل .. كانت زوجته سوداء .. ولعلها المرأة التي رأيتهـا في البقعة الحمراء ترسل نظراتها الحادة من تحت الحجـاب الى الاميرتين حبى وليلى .. نعم ، انها تلك المرأة نفسهـا ، لا اكثر ولا اقل ... ولتلك النظرات الغريبة حكاية نوردها لك ...

* * *

عد قليلاً الى الماضي ..

واذكر ان جبيراً غادر ميدان مكة مع مولاه عدوان وهما يتعثران بالفشل الذي رأياه .. وقد اقسم جبير في تلك الساعة ، اي بعد نجاته من سيف زياد بن كعب ، ان يسفك دم الامـير الذي عفا عنه ، ويقتل كل من يتصدى لغرامه .. والويل لصفوان بن الحارث الذي عرض سيفه على الامير .. انه سيموت من يده.

بعد ان يمهد له سبل الوصول الى ليلى والوقوع في شرك الحب ، كما وقع هو.. فلما وصل الى منزله ، قال لعدوان :

لا تذكر كلمه مما جرى بل خبرني بماذا فكرت .

قال : وهل يسع الصدر الآن لغير الانتقام ؟

قال : لا أسألك عن الانتقام بل عن الموقف الذي نحن فيه .. ألم تسمع زياداً يأمرنا بترك مكة الى الابد ؟

فاجابه وهو هادىء : له ان يأمرنا وعلينا ان نطيع ..

فانتهره قليلاً : اذا بقي فليفعل ما يطيب له .

ـ اي انك عولت على قتله يا مولاي ؟

ـ نعم وسأقطع يدي هذه ان لم يقع الخنجر في القلب ..!

ـ ولكنك لا تقتله الليلة على ما ارى ..

ـ لا ، فقد كتب له ان يعيش بضعة ايام .

فجعل اللعين يهز برأسه وهو يبتسم .

فقال اتضحك وانا اكاد اموت من الغيظ ؟

ـ وهل تريد ان استسلم الى غرور الصبا واحلام الشباب ؟ انك اذن تحفر قبرك بيدك وانت لا تعلم ..

ـ وكيف ذلك ؟

قال : اتسمع لي ؟

ـ اذا اردت الرحمة فلا ..

قال:اني اشد ظمأً منك الى الانتقام، ولكني انظر الى الامر من ناحية اخرى.

ـ وكيف ذلك ؟

ـ : نترك مكة في هذا الليل كما امر ابن كعب .

بل لا اخطو خطوة قبل ان اقضي عليه .

ـ اذن فاذا اردت ان ترى احداً قبل موتك فافعل ..

قال : اراك تهددني كأنك امرء صوفة نفسه .

- : نعم لان الامير سيحمل سيفه غداً ويتبعه رجاله للقضاء عليك .

فهم بالجواب فأسكته قائلا :

انظر فيما اقوله لك الان .. نغادر المنزل في هذا الليل فلا يطلع الصبح حتى يختفي كل اثر لنا فيطمئن زياد ويقوم في ذهنه اننا هجرنا الحجاز الى الابد .

- واين نقيم ؟

- في الوادي .. اي اننا نترك مكة ونبقى فيها ..

- وكيف نستطيع البقاء في بلد يعرفنا اهله ؟

- نتخفى عن العيون واذا اردنا الطواف في البلد ففي ظلام الليل .

- وينتهي الامر ؟؟

- لا فهذا الامر لا ينتهي حتى تنتهي حياة الامير وانصاره .

قال : حدثني بجلاء ..

- لا احدثك الآن بشيء لاني لا اعرف ماذا افعل ولم افكر في الامر من كل نواحيه، ثم نذهب والعبيد يضربون لنا خيمة تجاور خيام العرب في الموضع الذي ذكرت وفي ذلك الجانب من الوادي ننظر في الامر .

وهكذا فعل الاثنان ، وارسلت المواشي الى خيبر ، ثم اقاما بخيمتهما لا يخرجان منها الا اذا جن الليل

حتى عرف عدوان ان صفوان بن الحارث ، ذو عمامة خضراء يحجب بها وجهه ، فابتاع لمولاه عمامة مثلها يجعلها حجاباً عندما يخرج من مضربه وهو يرى ان تلك العمامة ستكون القاضية على صفوان كما سيجي ..!

ثم باح لمولاه بسره وبما يفكر فيه من وسائل الانتقام ، فارتاح جبير الى ذلك السر ، وكان في خيمته كالعبد يطيع سيده طاعة عمياء ..

ولكي تتم غاية اليمني ، عمد الى تدبير جديد لا يخلو من الخطر، هو انه اظهر نفسه لصفوان بن الحارث في المطاف ، كما مرّ واخذ يصف له جمال ليلى ابنة زياد ، ويغريه بذلك الحسن الخلاب ، داعياً اياه بدهائه الذي قرأت الى الخطبة ثم الى الزواج ..

وكان غرضه من ذلك ، ان يوثق عرى الولاء بين الاثنين تنفيذاً لذلك الفكر الهائل الذي خطر بباله .. لكنه خاف عندما ابصر عبدالله بن الصفوف ، وهو لا يخاف احداً سواه، فاستخفى بضعة ايام بعد تلك الليلة، ثم ظهر مع جبير بمظهر جديد غريب، مظهر يدل على عاطفة البغض التي تجول في صدره وصدر مولاه ، هو ان جبيراً اصبح من النساء . واظنك عرفت الآن انه ، هو نفسه تلك المرأة السوداء .. صاحبة الناقة الجرباء .

فاذا نزعت العمامة عن رأس جبير .. لم يبق في خيمة الشيخ الا المرأة .. ثم أشاع عدوان الابيض الرأس ، ان ولده الفتى غادر الحجاز الى اليمن .

واخذت ، تلك الزنجية القصيرة العنق ، تجول وتطوف في مكة في النهار والليل ، وتقود ناقتها الى المرعى ساعة تشاء ، وتدفعها ايضاً ، ساعة تشاء الى البقعة الحمراء ..

ولو كان لعبدالله عينان تخترقــان الحجب ، لرآها كل ليلة تدور حول قصر زياد ، مع عجوز بيضاء الوجه هي عدوان .. والاثنتان رأتا صفوان بن الحارث يدخل القصر ، ثم انتظرتاه حتى خرج منه في المرتين ..

وجبير يرى عمامة صفوان فيسأل اليمني: ما هو غرضك بالعمامة التي اشتريت؟ فيقول له : ان فتى ربعة ، على وجهه عمامة خضراء ، طعن امير صوفة طعنة لفظ بعدهـــا روحه . ثم يبحث النـــاس عن ذلك الضارب فـلا يجدون غير صفوان أفهمت الآن ؟؟

لكن جبيراً يحب الصراحة فيقول : وذلك الضارب هو أنا .

– نعم ، فجبير بن عبادة، سيكون بفضل هذه العمامة، صفوان بن الحارث، لا زيادة ولا نقصان .

وتبرق عند ذلك عينا النذل ، ببارق الحقد ، ويرقص قلبـــه فرحاً لذكر الدم البريء . !

ولم يبق الا ان يعين الاثنان موعد القتل . ولكن هذا الموعد لا يعين الا يوم يصبح صفوان وليلى عاشقين . وقد فاتها ، ان ذلك العشق يملأ القلبين ...

- ٣ -

ليس غريباً ان يزور زياد بن كعب امير صوفة ، سادن الكعبة ابن حبشية في قصره ، ان الامراء يتزاورون ويتشاورون . غير ان الغرابة في ذلك الحديث الذي افضى به اليه .

وكانت حبى في المجلس ، والغلمان يروحون ويجيئون وزياد يقول ولا يبالي : لا استطيع يا مولاي الأمير الا ان أسألك عن خبر تتناقله الأفواه ويملأ مكة .

فقال حليل : وما هو هذا الخبر ؟

– سمعتهم يذكرون ابن كلاب القادم من الشام ويقولون انه زار حاجب البيت ! .

فقال مستغرباً : وبمثل هذا يتحدث الناس ؟ ان قصرنا يغص كل يوم بوفود العرب من كل قطر .

– نعم ولكنهم قالوا ان قصياً يخفي وراء زيارته غرضاً من الاغراض .

فابتسم قائلاً : لعلهم يظنون انه جاء ليسرق ما في الكعبة ويبيعه في اسواق الشام .. !

– بل يظنون انه خطب اليك حبى .

فاراد حليل ان يعلم ما في نفسه ، فقال :

لقد اصاب الناس في ظنونهم فهو لم يقدم مكة الا لهذه الغاية ، كما رأينا .

– وهل طلب حبى يا مولاي ؟

– اجل ، ولجّ في طلبه كأنه لا يطيق الاقامة بيننا الا اذا زفت حبى اليه .

– وكأن حبى سلعة يشتريها من يشاء ؟ وماذا كان جواب الأمير ؟

– طلبنا اليه ان يصبر ريثما يعود من يثرب .

فنظر زياد الى الفتاة وكانت مطرقة ، فقال : أتصبح الأميرة زوجة لابن كلاب بعد رجوعه ؟

– نعم وقد وعدناه بهذا "

– ومن هو قصي حتى يمسي صهراً لأمير امراء الحجاز ؟

قال : أتسألني يا زياد عن نسب الفتى ؟ انـه ابن كلاب ، وكلاب بن كنانة وكنانة بن مضر ، ومضر بن عدنان ، وعدنان بن اسماعيل ، فاذا طاب لك ان تسألني عن شيء آخر فافعل .

فاجابه هازئاً : انحني امام هذا النسب العـالي الذي لا انكره ، ولكني عرفت ان الرجل ...

– عرفت ان الرجل لا يملك مالاً .

– بل لا يملك شيئاً .

– أصبت ، غير اني رضيت به صهراً ورضيت حبى به زوجاً ولم يبق الا ان نضمه الينا فيصبح منا ..

– ويعيش عيش الامراء بفضل مالك .

– نعم وليس في ذلك شيء من العار .

– بل هو العار كله ، الم يكن في بيوت الامراء من تجعله صهراً لك ؟

– وهل في بيوت الامراء مثل قصي ؟ انـك لو كنت سادن الكعبة وعرفته لفعلت كما فعلت .. ثم قال : اذكر ايها الأمير ما اتيت لأجله .

– اتيت لأسألك هذا السؤال ثم انصرف .

– ولكني اراك غير راضٍ ؟

– اجل وانا اخشى ان ينتهي بك الأمر الى الندم .

– لماذا ؟

– لأن خزاعة لا ترضى ، ولأن الزواج لم يكن غرض قصي كما يظهر .

– اذن تظن ان له غرضاً آخر .

– نعم وقد اراد ان يجعل حبى وسيلة للوصول اليه .

– الا تذكره لنا يا زياد ؟

– اذكره ولا اتردّد في ذلك ، انه يطمع بحجابة البيت .. ونظر الى جانبيه ليرى اذا كان المحترش في قاعة الجلوس .

فنهضت الفتاة تريد الانصراف ، فقال حليل :

اجلسي يا حبى فمن الرأي ان تسمعي كل شيء .

ثم وجه حديثه الى زياد قائلاً :

أيحلم ابن كلاب الكناني بسدانة الكعبة اذا زوجناه ؟؟ وكيف يسلبنا اياها ونحن احياء ؟

قال : تلتف كنانة حوله وتستغيث حبى بأبيها فيتخلى له عنها ، وبين ليلة وضحاها يصبح سيد الحجاز .

– ولكنك نسيت بني خزاعـــة وبني صوفة . والفريقان يغضب لغضبهما بنو بكر ..

قال : ومن يعلم ماذا تفعل الحرب ؟ انها لا تكون لنا حتى تمسي علينـــا ، فنخسر العز الذي عاش ثلاثة اجيال ..

– واذا لم نتخلّ له عن الحجابة كما ذكرت ؟

فسكت زياد ...

فقال : أتراه يطردنا من البيت ويضع يده على الامارة ؟؟.

قال : اذا لم يفعل ذلك وانت حي فعله بعد موتك .

– وانتم تكرهون ان تخرج السيادة من بيتنا أليس كذلك ؟

– نعم يا مولاي .

فغيّر لهجته قائلاً : لنعمد اذن الى الصراحة يا زياد .

قال : ليس شيء احب اليّ منها .

– اذن فمن قال لك ان قصياً خطب حبى ؟

قال : لا اذكر من قال لي ذلك ، ولكنه خبرٌ تردده الرجـــال والنساء كما قلت .

– وجئت تقترح علي اقتراحاً هو ان ارد ابن كلاب ولا ازوجه .

– نعم جئت من اجل هذا ولم اكن اعلم ان كل شيء قد انتهى وسيتم الزواج بعد رجوع قصي .

قال : سنتردد في الوفاء بالوعد يا زياد اذا سمعت لنا كما نسمع لك .

قال : ماذا ؟

قال : تختار لحبى من تشاء من فتيان الحجاز ونختار لليلى منهم من نشاء .. ابدأ بالاختيار ونحن راضون ..

– ولكني اقسمت اني لا ازف ليلى الا الى من تحب

فقهقه ضاحكاً ثم قال :

واذا كان حاجب البيت مقيداً بمثل هذا القسم فماذا تقول ؟؟

فعاد الى السكوت ، وحليل يضحك .. وكاد صوت حبى يرتفع بالضحك ، وقد اعجبها ذلك الدور يمثله ابوها مع امير من امرائه ...

ثم قال حليل : أيكون جميع الناس احراراً في شؤونهم الخاصة ، ولا يملك امير مكة حريته .

فتمتم قائلاً : والسدانة يا مولاي ؟

– اما السدانة فتحتفظ بها ما بقينا وعندما تأتي ساعتنا نوصي بها لولدنا المحترش فلا يطمع بها احد كما تظن، وهب ان قصياً ارادها لنفسه وقامت خزاعة تتصدي له ولم تستطع فخير لمكة ولأهل الحجاز ان يكون سيدهم فتى يرفع نفسه الى القمة ويخفض الآخرين بقوة سيفه ..!

انكم تخافون ان تنتقل الامارة بعد موتنا الى آل كلاب ، فاذا كنتم رجالاً فامنعوا الأيدي من أن تمتد اليها وصونوا نفوذكم كما صانه الاجداد ولا تحلفوا بالفتى الشامي يرغب في الانتماء الينا ويسألنا ان نزوجه ..!

قلت اني سأعمد الى الصراحة وانا فاعل ، فاعلم الآن اننا لم نعد قصياً بشيء مما ذكرنا لانه لم يطلب حبّى ، ولعله لا يفكر في مثل هذا الطلب الذي يملأ مكة كما تقول ، ولكن لا نتردد قط في الاعتراف ، باننا نرضى به صهراً لنا اذا سألنا ذلك .

فتنفس زياد ملء رئتيه ..

اما حليل فاستطرد قائلاً :

والآن نسألك سؤالاً ، فقل لنا يا زياد مـــا هي القوة التي تصون العروش وتحفظ التيجان على رؤوس الملوك ؟

قال : ليس هنالك قوة الا السيف ..

قال : ونحن اصحاب عروش صغيرة في الحجـاز ، فاذا جاءنا غداً ملك من ملوك كندة او من ملوك العراق يريد ان يجعـل مكة ميداناً لخيله فماذا تفعل ؟

– ندافع حتى تتكسر السيوف في الايدي .

– واذا كان ذلك العدو كنانياً من اهل الشعاب ؟

– ضربناه كما نضرب سواه ولا نبالي .

– اي انكم مجمعون على الدفاع ولو بارزكم جميع العرب ..

– نعم .

– اذن فليكن هذا الزواج الذي تخافه ، فابن كلاب لا يستطيـع انـ يبتلع مكة وانا لا اخشى ان تخرج الحجابة من خزاعة .

قال : يخيل الي ان هذا الزواج ان لم يقع اليوم وقع غداً .

– اجل فلو جاءنا قصي غداً يطلب ابنتنا لما ترددنا في القبول .. ذلك امر لا شأن لكم به يا زياد ، وليس عليكم ان كنتم تخافونه الا ان تتهيأوا للحرب ...

والآن ، لنتكلم عن قصي ، انـه احد افراد العرب في الدهاء كما ظهر لي ، وانا واثق بأنك ستضع يدك بيده ، يوم تعرفه لانه اقرب الناس الى القلوب .

قال : اما هذا فلا اجد اليه سبيلاً اذ لا يقوم في ذهني ان اصافح رجـــلاً سيكون عدواً لي ولقومي ..

– ومن دلك على هذا ايها الأمير ؟

– نفسي .! فانا منذ بضعة ايام لا افكر الا في هذا الأمر .

– ولكن سترى انك لم تكن على صواب .

قال : متى يعود من يثرب ؟

– لا اعلم فهو لم يعين لرجوعه اجلاً . أتريد ان تراه ؟

– نعم ، ثم احدثه ، ثم قرأ في عينيه ما في صدره من اسرار .

وسكت قليلاً ثم قال لحبى .

أترفضين فتيان قومك ايتها الاميرة لتصبحي زوجة لابن كلاب وتقيمي بالشعاب ؟؟

فأجابته وهي تبتسم : ليس لك ان تسألني عن شيء لا وجود له ايها الامير.

- واذا وجد ؟

- اذا وجد فأبي يتولى عني امر الكلام .

- وهل رأيت قصياً ؟

- كما أراك الآن وسمعت كل ما قيل في هذه القاعة .

- وليس لك رأي فيه ؟

قالت : ان الذي يعرفه ابي لا اعرفه انا كما ان ليلى لا تعرف ما يعرفه ابوها.

قال : ما اردت الا ان يكون لليلى رأي في قضية الزواج ..

فقالت : أتأذن لي في سؤال ؟

- نعم .

- ألا يجوز ان يجيئك غداً نبيل عربي فيطلب ليلى ؟

- نعم .

- وقد يكون هذا العربي كنانياً ففي كنانة فتيان كثيرون كما تعلم .

- واذا كان هذا ؟

- ان سؤالي لم ينتهِ بعد افلا يجوز ايضاً ان ترغب ليلى فيه فتزفها اليه ؟

- بلى .

- ولكن العشيرة لا ترضى وها عذرها فيه، تتدم في ذلك شريعة اميرها زياد بن كعب .

قال : أية شريعة ؟

- شريعة عدم الرضى ، انك تخاف ان تمسي ابنة حاجب البيت زوجة لكناني فتنتقل الحجابة اليه - وبنو صوفة قومك يخافون ان تمسي ليلى زوجة

لرجل ليس منهم فتنتقل الامارة اليه . وهذه مثـل تلك يا سيدي الامير فماذا تقول ؟

قال : ليست الامارة كالسدانة .

قالت : اصبت ولكن الحق الذي يملي عليك ما تقوله الآن ، هو ذلك الحق الذي يدعو قومك الى الرفض الذي افترضنا وجوده .

فرأى زياد ان حجة حبى لا ترد ، فقال :

حسبي اني نصحت للأمير بما رأيته صواباً .

فقال حليل : ونحن نشكر لك هذه النصيحة ونعدك بان الحجابة ستبقى لنا ما بقينا وهو وعد نقدر على الوفاء به .

فنهض قائلاً : وهذا ما نرغب فيه ولتزفـّ حبّى الى من تشاء ..

– ولكن تحب ان ترى قصياً كما تقول ..

– : نعم وارجو ان يكون اللقاء في قصرك ..

قال : سندعوك اليه يوم يكون فيه قصي ونرى بعد ذلك ما يكون .

فخرج زياد وهو يقول في نفسه :

من يصدق ان زياداً امير صوفة يكره رجلاً لم ير له وجهاً ؟ ومن هو قصي بن كلاب حتى تستيقظ له في الصدر عاطفة البغض ؟

وكأن عبدالله ، الذي يمشي وراءه عرف مـــا يجول في صدر مولاه في تلك الساعة ، فقال له :

لقد سمعت بعض الحديث يا مولاي ..

قال : لم يكن هذا الحديث سرياً كما رأيت .

– واعرف الخاطر الذي يخطر لك الآن .

– ما هو ؟

– انك تفكر في ذلك الرجل الذي تخـافه ، وتضطرب لذكره ، وصدرك يغلي فيه الحقد عليه وانت لا تعلم لكل ذلك سبباً ..

قال : هو ذاك .

– ولكن الرجل يستحق اعجابك لا بغضك ..
قال : كدت انسى هذا البغض عندما رأيت دلائل الحب على وجه حبّي .
– وانت خبير بقراءة سطور الغرام يا مولاي ..
قال : واعجب لهذا الحب كيف يملك ، ويستوي في لحظة واحدة في عرشه.
قال : ألم ترَ صفوان بن الحارث ؟ انك اذن قرأت الغرام على جبينه ..
فهامسه قائلاً : كما قرأته علـى جبين ليلى .. اتظن يا عبدالله ان عيني لا تبصران ما تبصره انت ؟
قال : اذا كان هـذا فقد تم الرضى والاتفاق بين العاشقين كما اردت ... كما اردت انا يا مولاي ..
قال : انك كثير التفكير في هذا الزواج يا لعين ..
– اجل فقد رأيت صفوان اهلاً لليلى وانتهى الأمر .
فضحك قائلاً : اما الآن فضع يدك على قبضة سيفك كأنك في الميدان .
– لماذا ؟
– لئلا يثب جبير بن عبادة من بطن الارض ويجعل صدري غمداً لخنجره ..
فذعر عبدالله وقال : انك تهزأ بأمر انا واثق به ..
وتلفت كما يتلفت المذعور الى الجانبين ويده لا تفارق قبضة السيف .
وزياد لا يكف عن الضحك ..

* * *

كانت سودة ابنة زهرة « كاهنة قريش » تجمع الى الحكمة الذكاء والدهاء كما قرأت ، ولتلك الفتاة الكسحاء كلمة نافذة في القوم ، كما كانت الحال مع جميع الكهان ، في ذلك الزمان .. وهي مرجع آل النضر في بعض شؤونهم الخاصة ، تلك الشؤون التي تعني الكهانة في جميع نواحيها ، تكتنفها في كل ذلك منهم ، مظاهر الاحترام .

اجل ، وقد عرفت سودة ان عمها قصياً ذو نفس طماحة الى العلياء ، وقلب مشغوف بالمجد ، وعزيمة ثابتة صادقة لا تستسلم الى الخور والضعف فجعلت تقرأ

حظه المتلألىء على الصفحات الخفية ، التي تظهر امام عينيها النـــاريتين .. ثم استشارت ملائكة الجنة في امره ، فبدا لها انه أعظم حجازي في ذلك الجيل .. فحدثت قومها بتلك العظمة وهيأت لها القلوب . وعندما عاد قصي من يثرب ، مع صفوان ويزيد كان في نظر قومـــه نصف إله .. حتى انهم جميعهم ظهروا بمظاهر العيد ، ورأى أهـــل مكة تلك المظاهر فذاع ذكر قصي وبعد صيته ، واشتدت الرغبة في رؤية الفتى الذي سحر قومه .

وطالع قصي طالع سعد كما مر ، فقد رجع من يثرب يحمل ثمن صوفه وستين درعاً من ادراع الجلاح ، وتقدمته الشهرة الخلابة الى عاصمة الحجاز ، وذلك هو الدور الاول من أدوار حياته اللامعة .

على ان ذلك لا يكفيه ، ان المال قليل ، والدروع لا تبرد غليل قومه ، وتلك الشهرة التي لا تعقبها السيادة المطلقة لا تستهويه ، وكان يقول لصفوان : لا يكثر المال بين يدي الا في ربوع الشام .

ثم أظهر لقومه ليلة وصوله ، رغبته في رحلة أخرى الى البلاد التي نشأ فيها وهو يخفي غرضاً من اغراضه وراء ستار التجارة والمال .

فقال زهرة : لقد سمعنا هذه النغمة من قبل يا قصي ! أفتعود الى مثل هـذا ولا تبـالي ؟

قال : نعم اذهب ولا ابالي ..

– ولكن قومك لا يرضون وهذا يكفي ..

– ان قومي يخافون عليّ الاخطار وانا لا أخاف شيئاً .. ومع ذلك فليس لي الا ان اختار ما يختارونه لي .

فأجابه احدهم قائلاً : لقد اخترنا لك الاقـامة بمكة الى الابد لا تنصرف الى بلد آخر ..

فابتسم وهو يقول : ما أردت ان تختاروا لي العجز والضعف ، بل الا التي تبعد عني الخطر الذي ترون ، ان السفر لا بـد منه فانظروا فيه واضربوا له موعداً ..

فقال زهرة : ان سودة وحدها هي التي تفعل ذلك ..

قال : اصبت وسأراها قبل الانصراف الى النوم .

وطال حديث الناس عن يثرب ، حتى ذكرت الدروع ، فقال :

اين هي يا يزيد ؟

– في الفناء حيث اناخوا النوق .

قال : ليجتمع فتيان قومنا في هذا الفناء الآن .

قال زهرة : لماذا ؟

واحضروا القداح واضربوا فيتناول درعاً كل صاحب حظ .

فقال صفوان : لتحفظ في بيت زهرة الى زمن آخر ...

– بل توزع الآن كما ذكرت فلا تترددوا في ذلك .

وهي عاطفة كبيرة يظهرها قصي لقومه، بل هو الجواد يخلب به الباهم بل فل هو الدهاء يضع به اسس البنـــاء . لقد بدأ بفتح القلوب ، بقوة ذلك السلاح النافذ الذي هو الكرم .. قبل ان يبدأ بفتح الاقطار بقوة السيف ، وكيف يدفع بني كنانة الى الحرب ، كما يدفع القائد جنوده الى ساحات الوغى ، ان لم ..ن أعظم منهم جميعاً في كل شيء ؟. يفتنهم ببذله وكبر نفسه ، ويبهر عيونهم بمظاهر العناية والعطف ، ثم يقذف بهم الى اشداق الموت ولا يسألونه .

هكذا تفعل النوابغ من الرجـــال ، وهكذا يرتفع الفقير القوي الى القمة ويجلس العصامي الخامل الذكر ، على العرش .

* * *

ستون فتى من كنانة ، حملوا الى بيوتهم في ذلك الليـــل ، ستين درعاً من ادرع الجلاح ، وهم يهتفون لابن كلاب الذي لا يملك درعاً واحدة يقي بها نفسه. !

وكان الشيوخ المجربون يرددون ذلك الهتاف فيملأ هتافهم الجبال والشعاب .

وفي تلك العطية الصغيرة ، كما ترى ، خطا قصي خطوته الأولى الى النفوذ الذي لا ينازعه اياه كبير في القوم ، حتى انصرف الناس الى مضـــاجعهم عند

نصف الليل ، فنهض مع يزيد وصفوان قائلاً :

ان سودة لم تنم فلندخل .

وقد اراد ان يلمس بيـــده مرة اخرى ، قوة الكهانة ، التي تشبه في نظر العرب قوة السحر ، وفي صدره امران يريد ان يسألها عنهما ، كما سترى ، دون ان يبوح بهما لرفيقيه .

وكانت سودة تنتظر عمها ، فلمـــا دخل الثلاثة رفعت نظرها الى يزيد قائلة لقصي :

أرى رجلاً غريباً عن الحي .

فقال : اتعرفين فتيان قومك واحداً واحداً ايتها الكاهنة ؟

– نعم واعرف نساءهم وشيوخهم واطفـــالهم لا اغفل إلا عن المواليد في شهورهم الأولى ، فمن هو هذا الفتى ؟

– احد ابناء اليمن المقيمين بيثرب ..

– واسمه ؟

– يزيد بن ثور ...

قالت : دعني اخاطبه ، متى قدمت يثرب يا ابن ثور ؟

– منذ عامين .

– ولماذا اثرت الحجاز المجدب على البلد الخصيب الذي يمطر اهله النعم ؟

قال : لا تطيب لي الاقامة بالجبال ..

فجعلت تتفرس فيه . ثم حولت نظرها الى عمها والى صفوان تبتسم للاثنين .. ثم اطرقت :

فقال قصي : ماذا جرى يا سودة ؟

فقطبت حاجبيها وهي تقول : يحاول هذا الغريب ان يخـــدع الكاهنة .. فليخرج .. اني لا اريد ان اراه .

قال : لقد اخطأت فالرجل من اصدق الناس ..

– بل هو اكذبهم فقد تبينت كذبه من الجواب الأول الذي سمعت ! أأنت

من اليمن ام من الشام ايها الرجل ؟

فتردد يزيد في الجواب ..

ونظر كل من الثلاثة الى الآخر ..!

– قل يا يزيد .

فاجابها قصي ضاحكاً : من الشام وانا الذي اردت ان يخفي امره ..

قالت : اتخدعونني في شيء يعرفه جميع الناس ؟..

– وكيف ذلك ؟

كان عليك يا عم ان تعلم ان ابنة اخيك تعرف الناس من لهجتهم ولهجة الفتى لهجة اهل الشام . قولوا نعم او لا .

قال : نعم ، وذلك يعرفه الكهان وغير الكهان .

– وتريد ان تسألني عن الغرض الذي قدم مكة لأجله ، أليس كذلك ؟

– نعم .

فبرقت عينا يزيد ببارق الحقد ، في تلك الساعة ، وهي تنظر اليه .

فقالت : ولكني لا اعرف شيئاً .

قال : سودة ..

فأرخت نظرها الى الارض ولم تجب .

قال : وكيف لا تعرفين وانت كاهنة القوم ؟

فتنهدت قائلة : اما لا اعرف شيئاً فلأن عمي الذي يسألني لا يثق بي كما يثق بنفسه ، ولاني لم اكن كاهنــة القوم الا لان هؤلاء القوم جميعهم يصدقون الكلام الذي اقول .

ونحن كذلك من هؤلاء القوم وقد اردنا المزاح .

– لم تكن قط مازحاً يا عم .

– اجل وارجو ان تنسي ما مضى ..

– وماذا تريدون الآن ؟

قال : ان ليزيد غرضاً يا سودة ..

قالت : لا يقدم احدهم بلداً غير بلده الا لغرض .. وبعد ذلك ؟
– ويحب ان يعلم اذا كان ينقضي هذا الغرض كما يشاء .
وبرقت عينا يزيد ايضاً وهي تراه ...
فقالت : اي ان له امنية في مكة ولا يدري أيفوز بها ام يعود بالفشل ..
هو ذاك ..
فقال يزيد : بل لا اعلم يا مولاي اذا كانت امنيتي في مكة .
وقال صفوان : لقد اصاب .
قالت : اتوافقهم يا عم في هذا القول .
– نعم وازيد عليه ان الفتى اذا ضيع غرضه ضيع امله ..
– : لقد عرفت الآن فهو يطوف في البلاد باحثاً ..
وسكتت فجأة وهي تحدق الى يزيد ثم قالت له: اخلع هذه العباءة التي تلبس
فلم يتردد في ذلك .
فرأت سيف الفتى وخنجره وبانت الدرع التي تحجب الصدر .
فقالت : ثائر ورب الكعبة ..
فاستولى الاستغراب على الثلاثة واصفر وجه يزيد حتى اصبح كوجوه الاموا
ثم سمع صوته يتردد في صدره.. وظهرت على شفتيه بعد قليل تلك الكلما
الثلاث التي قالتها الكاهنة :
ثائر ورب الكعبة ..
ثم عادت سودة الى القول وعيناها بعينيه : ان في صدرك ناراً ايها الفتى .
– نعم .
– ولا تطفأ هذه النار حتى تسفح دم عدوك .
فارتجفت شفتاه وهو يقول :
ولكني اخشى أن ارى هذا العدو .فقولي لي ايتها الكاهنة ايقيم عدوي بمك
قالت : خير لك ان تسأل هبل عن هذا أليس لكم انتم اهل الشام اصنام
في الكعبة ..

- اني من البحرين يا مولاتي ولأهلها اصنام كما تقولين .

« كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم تزوره في ايام المواسم وتذبح له حتى ضاقت الكعبة بالاصنام وعددها اكثر من ثلاثمائة » .

- فاسأل اصنام قومك .

- بل اسأل الكاهنة قبل ان اسأل هذه الاصنام .

قالت : عدوك في الحجاز .

فقال قصي : الحجاز واسع الاطراف يا سودة فاذكري البلد .

فاستوحت ملائكتها ثم قالت: لا استطيع ان اذكر اسم البلد الذي يقيم به .

- بل تستطيعين .

فوضعت يدها على جبينها وقد اتعبها التحديق وجعلت تقول : لا استطيع لاني لا أعلم ..

- وكيف عرفت ان هذا العدو بالحجاز .

- لانه من أهله ..

- بل هو من مكة ..

- ليكن من الشعاب فانا لا أراه كي اصفه لكم وعرف البلد الذي لجأ اليه ..

- وهل تحول طلاسم الساحر بينك وبينه ؟

- لا ادري ما هو ذلك الحائل الذي يمنعني من ان اراه ..

فقال صفوان : لعله تخفى فضاعت أثاره ..

قالت : مهما يكن امره فلا سبيل اليه الآن .

فقام في ذهن قصي انها لا تريد ان تبوح بما تعلم فقال :

أتبوحين لي يا سودة بما تعلمين واعاهدك على الكتمان ؟

فرفعت رأسها قائلة : يحدثني هذا الفتى بلهجة اهل الشام ثم يقول بعد قليل انه من البحرين ، افلا ترى ان يستشير غيري من كهان العرب ؟

- ولكنه لم يكذبك القول يا بنية ، لقد ترك وطنه منذ اعوام وقتل ابوه وهو في الشام مع اخيه الآخر .

– واذا كان قاتل أبيه قد مات ، فماذا يفعل ؟

– يعمد الى ذرية القاتل فيثأر بقتيله ، ولاجـل هـذه الغاية قدم مكة فهو يعرف ان عدوه غيبه القبر ولهذا ولد من اشقى خلق الله .

قال صفوان: وهو من الاغنياء بفضل المال الذي سرقه من ابي يزيد. اتريدين الآن ان تذكري لنا شيئاً عنه ؟

– وهل كان ابوه يدعى ثوراً !

– كان يدعى ربيعة بن سلول ..

– اذن فاعلموا ان هذا الشقي الوارث لم يغادر مكة

فاهتز جسم صفوان وخيل اليه ان زياداً تحت رحمة ابن عبادة .

وقد صدقت ظنونه في تلك الساعة ، فهو كان واثقـاً ببقاء جبير في مسقط رأسه ، لكن بعض الشواهد ، كما قرأت كانت تكذبه .. وقد هان عليه الآن، الامر الذي استصعبه من قبل ، فمتى كان جبير في عاصمة الحجاز ، فمعنى ذلك انه لا يستطيـع التخفي الى الأبد ، ولا بد من ان يرى وجهه ثم يعرف مقره .. وقد فاته ان عدوان اليمني اكثر دهاء منه ومن اصحابه وأوسع حيلة

ثم قال : وماذا يلبس ايتها الكاهنة ؟

فابتسمت قائلة : بقي عليك ان تسألني عن عـــدد شعر رأسه ! انه باق في مكة وهذا يكفي .

فقال قصي : اجل هذا يكفي فلا تعد الى مثل هذا السؤال يا صفوان والآن بقي شيء آخر يا سودة .

– أيعنيك انت يا عم ؟

– نعم .

– وتحب ان تذكره الليلة ام غداً .

– بل الآن فصفوان ويزيد اخوان لي ولا اريد ان اكتمها امراً منذ الآن

قالت : ليذكر سيد كنانة ما يشاء .

قال : اتركي هذا فانا لم اصبح سيداً كما تقولين .

– واين هي الدروع التي حملتها من يثرب ؟
- ضرب عليها بالقداح فأمست ملكاً للقوم
– ومن يكون ذلك الرجل الذي يهب لفتيان قومـــه ستين درعاً في ليلة واحدة ؟ ؟ ان الذين يبذلون مالهم للناس سادة الناس .
قال : اما الذين يبذلون المال من العرب فكثيرون ..
– وجميعهم رؤساء القوم كما تعلم . قل يا عم .
– لقد فكرت في الذهاب الى الشام قبـــل سفري الى يثرب فخوفتموني بالاخطار ، أتذكرين ذلك ؟
– نعم .
- اما اليوم فسأذهب ولن أرجع عن عزمي .
– اذا كان هذا فأي شأن لي ؟
- استشيرك في الأمر .
- ان رأيي لم يتغير يا عم ، لك ان تذهب الى حيث تشاء مع طوائف العرب واما ان تفعل ذلك وحدك او مع رفيقين لك فهذا لا اسلم به .
قال : أأنتظر قدوم الحجاج من الشام ثم انتظر رجوعهم اليها ؟
– بل تنتظر رحلة الصيف التي يقوم بها قومك .
ومتى يفعلون ؟
. بعد شهرين وانت قادر على الصبر .
قال : ان الذي يحلم بالمجد لا يصبر .
- وذلك الذي يخونه الجـــلد يخونه الحظ .. اتريد يا ابن كلاب ان تموت في الصحراء ؟
- اموت ؟
- نعم وعندئذ تبلغ غاية مجدك .. وما تفعل في الشام اليوم ؟ ان العرب تذهب الى بصرى بعد شهرين فتغص اسواقها بالناس وبـما يحملون ويكثر بينهم

البيع والشراء فيخدمك الحظ فيهـا كما خدمك في يثرب وتتم لك الغاية فيه
الذهب بين يديك .

– : واذا لم يكن الذهب وحده تلك الغاية ؟

– مهما تكن غايتك فالصبر اولى وليس لي رأي آخر .. ثم قالت :
انا اعلم انك سترى امك في الشام وتقص عليها وعلى سادة قضاعة حلمك الرا..

فتراجع قصي الى الوراء وهو يقول :
احسنت يا سودة فهذا ما افكر فيه .

قالت : ولك في الشام اخوة لهم رأيهم في الامر ؟

– اجل ويستطيع هؤلاء الاخوة ان يكونوا عوناً لي فقولي لي الآن ايـ..
طالعي في الشام ايضاً طالع سعد ؟

فاجابته وهي هادئة : ان للسعد ملاكاً يخفق فوق رأسك جناحاه اينما كـ..
انك في يثرب تشتري الدروع وفي الشام تشتري الرجال ..

فنهض عن كرسيه وهو يقول : كفى يا ابنتي فانت تعرفين كل شيء ، ثم ا..
الى يزيد وصفوان قائلاً : لننصرف الآن ولننم ملء الجفون .

* * *

لقد قرأت فيما تقدم من الفصول ، ان فاطمة ام قصي ، ولدت لربيعة بن
ولداً يدعى رزاحاً ، وان لربيعة ثلاثة بنين من امرأة أخرى هم جلهمة ، و..
ومحمود ، وهؤلاء هم الذين عنتهم سودة في قولها .

وكان قصي يفكر في الذهاب الى الشام . ليستشيرهم فيما سيقدم عليه و..
للحرب اذا اكرهته التقادير .

ورزاح بن ربيعة واخوته ، اصحاب رأي في قضاعة واصحاب وفاء .
قضاعة جميعهم كما تعلم ، رجال حرب وخواضو ميادين ، فاذا آنس منهم ميل..
وضع ايديهم في يده ، ورغبة في براز اعدائه يوم يدعوهم الى ذلك البراز ، ..
ما اراد وصح حلمه الذهبي ، وهو لا يريـد ان يبدأ بأمر قبل ان يشاور ،

كان واثقاً بأن قومه وان كانوا ابطـــال العرب ، لا يستطيعون على قلة عددهم وكثرة خصومه ان يثبتوا في المجال، ويستعيدوا مجد جدهم عدنان بن اسماعيل..

ولم يكن يعلم ، من الناحية الاخرى ، من يكون معه من اهـل مكة ومن يكون عليه ، هنالك بنو بكر بن عبد مناة ، حلفـاء اليمنيين ، وبنو خزاعة وبنو صوفة، اصحاب النفوذ والسلطان، ومن يتبع الفريقين من احلاف وجيران.

وقد يشترك البدو في القتال؛هذا ينتصر للبكريين والآخر للخزاعيين فتشتعل النار في مكة ثم تمتد الى بوادي تهامة ونجد. وتجيء الأوس والخزرج مع احزاب المدينة فتمتد الايدي وتستيقظ الاحقاد والاغراض .

ذلك ما كان يفكر فيه قصي ، قبل الاقدام على ذلك الحـدث العظيم الذي يغير وجه الحجاز ، ولا تهدأ ثورة نفسه،الا اذا جعل طوائف قضاعة انصاراً له.

ومن يستطيع ان يمنعه من الذهاب الى الشام والشام في نظره سيفه القـاطع وقوته التي لا تغلب ؟ لقد كان في سره يهزأ ببني قومه عندما يحـــاولون اقناعه بالبقاء في مكة ، ويستخف ما طاب له الاستخفاف ، بأولئك الذين يظنون انه يطمع بالمال وحده ، وانه يطوف في بلاد الله باحثاً عنه ، ولو عرف بعض اهل الشعاب ، ما في صدر قصي من عواطف واطماع لنظروا اليه كما ينظر الناس الى مجنون يحاول ان يطير في الفضاء ويصعد الى السماء .. ولهم في ذلك كل العذر ، لمن هو ابن كلاب الخامل الذكر ، الصغير السن الحامل من الشام العجز والفقر، حتى يجعل الحجاز مجالاً لأطماعه ثم يجعله ملكاً له ، له فيه القول الذي لا يرد ؟!

ان الجهل ونزق الصبـــا ليس غير ، هما اللذان يمليان عليه ذلك الجنون ، ويكبران ذلك الخيال ..

تبع في عظمة ملكه ، والنعمان بن أمرىء القيس في صولته وعزه ، وبهرام جور ملك الملوك في نفوذه وسلطـــانه اللذين ليس لهـا حد ، لا يستطيعون ان يمرضوا لمكة بسوء ، اجلالاً للبيت المقدس الذي هو بيت العرب ، وخوفاً من تلك القوى الروحية القاهرة الكامنة في الصدور ..

ولولا ذلك ، اجل لولا ذلك لمـــا تردد التبابعة في ضم الحجاز الى ملكهم الواسع ، ولمـــا كان البيت في نظر ملوك الفرس وملوك العرب جميعهم قدس الاقداس .

وصفوان نفسه ، المعجب بقصي ، والذي عاهده على الطـاعة والخضوع لم يكن يعلم من امره الا انه طماح الى العلاء ، واما كيف يبدأ طموحه فذلك ما لا يعلمه . ولا تقوم له صورة في ذهنه .

وزهرة أخوه ، امينه وحافظ سره ، يستولي الخوف والاضطراب على قلبه عند تصوره تلك الهوة الهائلة التي سيقذف بنفسه اليها يتبعه قومه .

لكنه كان يعلم ، بعض العلم لا كله ، ان ذلك الانقــلاب الغريب الذي سيفاجىء مكة ، سيجعل قصي حاجب البيت نفسه ، طريقاً له !!

وهذا اغرب ما في الحادثات من حكمة ودهاء .

* * *

– ٤ –

تناقلت الافواه في مكة ، خبر الدروع التي وهبها قصي في ذلك الليل لفتيان قومه . وتحدث الناس فقالوا :

ما لبث هذا الفتى ، الذي لم يكن شيئاً حتى ساد الشعاب .

ثم رددت النساء والغلمـان ، في القصور وفي الاكواخ ذلك الخبر الجديد ثم اختلقوا له المغازي وجعلوا له الذيول ، على عـادة الخاصة والعامة ، في الرواية والنشر .

حتى ملأ ذكر قصي ، جميع القلوب والاذهان .

فنقل عبدالله الخبر الى ليلى ، وعللها برؤيه صفوان ،

وكانت الفتاة تنتظر رجوع الحبيب ، فلما خبرها عبدالله برجوعه رقص قلبها من الفرح ، وباتت تعد ساعات الليل لتراه عند الصباح .

اما أبوها زياد ، فكان مضطرباً ، وهو لم يبح لأهل بيته بما دار بينه وبـــين

خليل من الحديث ، بل كتمهم امر زيارته فلم يحدثهم بشيء .

وعلى رغم البغض الذي يضمره لقصي احس بعاطفة جديدة تدفعه الى زيارة سادن الكعبة مرة أخرى ليرى قصياً ، ويلمس بيده ما نقل اليه عنه .

على ان عبدالله لا يطيق ان يكتم ليلى سراً ، فقد اعـاد عليها ما قاله زياد الخليل ولم يكتمها ايضاً ان اباها لم يكن على صواب فيما اقدم عليه .

ولا تنس ايها القارىء ، ان الكآبة ملأت قلب سادن الكعبة ، عندما خرج امير صوفة من قصره . حق انه لم يلبث حتى دعا حبى الى حجرته الخاصة وباح لها بكآبته ، فقالت له :

وأي شأن لزياد بن كعب بما تفعل ؟

قال : اما شأن الامراء فانهم يخافون ..

– ماذا ؟

قال : انهم يرون ان المحترش لا يستطيـع الاحتفاظ بحجابة البيت بعد أبيه ، كما تعلمين .

– ولكن هذه الحجابة لا تعني هؤلاء الامراء .

– اجل انمــــا هنالك اطماع لهم لا يعرفها غير سادن الكعبة نفسه ، وقد حدثتك بها من قبل .

قــالت : أعرف انهم يريدون سدانة الكعبة لانفسهم ولا يجسرون الظهور بمظهر العدو وانت حي .

– نعم وتخفق قلوبهم خوفاً وذعراً عندما يعلمون ان فتى من ابناء الشرف والعز في العرب يهم بأن يخطب حبى.. ليس لخوفهم من ان تخرج الامارة الاولى من يد خزاعة ، بل لأنهم جميعهم يريدون ان يكونوا حجاباً للبيت .

قالت : يجب ان يرضوا يا مولاي .

– وبماذا يرضون ، وانت ترين كيف يقيدونني في بيتي كأني أسير ؟!

– هنالك وسيلة للرضى لا يرفعون رؤوسهم بعدها .

– ما هي ؟

– ان تبقى حبى عذراء ما بقيت ...!

فسالت دموع الشيخ على خديه وقال : أبهذا تنصحين لي وانت امـل ابيك وقرة عينه ؟

– وكيف تسكت اطماعهم وهم كثيرون وقـد يظهرون لك العداء فتلطخ يديك بالدماء وتستهين بك العرب ؟

قال : اذا اقدمت على ما تقولين كنت عبداً .. اني ازوج ابنتي من اشاء ، ولهم علي العهد ان لا أوصي بسدانة الكعبة الا لأهل بيتي ، وغير ذلك لا افعل ولو رأيت سيوفهم تلمع في فناء البيت ..

لقد اعجبني قصي كما قلت لك من قبل ، ورضيت به صهراً اذا رضي هو ، فتى أمسيت بين يديه لم يبق هنالك مـا أخشاه ، انه اعظم من ان يستسلم الى اطماعهم ، وفي الشعاب قوم يمنعونه كما ترين ..

فهمت بالجواب فقال :

لا تراجعيني بالامر الذي ذكرت ، ولا تجعلي اباك ذليلاً في عيون قومه ، اني ماض في شأني الى النهاية وانا واثق بان ابن كلاب سيكون عند حسن ظني به ، وسيجيئني يوماً طالباً حبى زوجة له .

قالت : الم يقل لك زياد بن كعب انه يرغب في ان يراه ؟

– بلى .

– ولكن اخشى ان يحدث بين الاثنين ما يخطر بالبال .

فابتسم قائلاً : ليس هنالك ما يدعو الى مثل هـذا الظن فالواحد منهما لا يعرف الآخر ..

قالت : رأيت البغض يلمع في عيني زياد ..

– وانا قد رأيت ما تقولين غير ان هذا البغض لا ينفجر في صـدر الرجل ولا يثور ...

– وهل تريد ان يجتمع الاثنان في قصر .

– ان هذا الاجتماع احب شيء الي ، اريد ان أختبر اخلاق الرجلين وارى ما يحدث بينهما .

ثم نادى احد عبيده وقال له : عليّ بمولاك المحترش ، فلما مثل المحترش بين يديه أومأ اليه بالجلوس وقال : لقد اتعبتني الحجابة يا بني فما رأيك ؟

فجعل الأبله يحدق الى أبيه ولا يدري ماذا يقول .

اما حبى فقد عرفت ان اباها يحب ان يقرأ من جديد ، ما في نفس ولده من هزيمة وحكة ، فقالت : لقد ملّ ابي الحجابة وهو يسألك رأيك في ذلك .

فاجابها قائلاً : أيسألني الرأي في أمر لا اعرف عنه شيئاً ؟

فقال حليل: ليس ما يمنعك يا بني من ان تعرف كل شيء ، الا تعلم ان خمسين سنة مرت على ابيك وهو حاجب البيت ؟

– بلى .

– ولكن هذه الخمسين لم تترك في الصدر غير الملل والألم حتى اضطررت الى اختيار واحد من امرين . أتعرف ما هما ؟

– لا .

سأعتزل الحجابة لك يا بني او لرجل من خزاعة فاختر احدهما ..

فاطرق ملياً كأنه يفكر .. ثم قال : لك ان تختار خزاعياً فذلك أولى .

فأخفى حليل غضبه ومرارة تعسه ، وراء ابتسامة صفراء وهو يقول : أيكون الخزاعي أولى منك ؟؟

– نعم .

– لماذا ؟

– لانه يستطيع القيام بما تعهد اليه فيه ، اما انا فلست قادراً على ذلك .

قال : هذا غموض لا احب ان اسمعه .

– بل هي الصراحة مولاي ، أتظن اني اقدر على الجلوس كل يوم ، من الصباح الى المساء بباب البيت ، افتحه للناس واغلقه ؟؟

– وكيف يستطيع غيرك ان يقوم بما لا تستطيعه انت ؟

– ذلك لان غيري خلق للجلوس وانا لم اخلق له ..

– واذا اخترنا لك عصابة تشرب معها الخمر في الليل والنهار ؟؟

فاجابه وهو لا يخجل من جوابه : اذا فعلت هذا طابت لي الحجابة ووقفت بباب الكعبة الى الأبد .

فقال : احسنت يا بني انك خير الفتيان .

قال : أتريد شيئاً بعد يا مولاي ؟

– لا اريد الا ان تنصرف ...

فنهض الشقي فخرج وهو لا يعبأ بأبيه .

اما حبى فكانت تمسح دموعها وتنظر بحنو وعطف الى ذلك الشيخ البار الذي يعكر عليه اخوها صفو شيخوخته .

فالتفت اليها باسماً وقال : أتبكين يا حبّى ؟

– وكيف لا ابكي يامولاي وانا ارى اخي يمشي بخطى واسعة الى الذل والعار ؟

قال : هكذا شاء القدر فلا تعبأي بما ترين اذ لا حيلة لنا بالأمر ..

قالت : انظر الى المستقبل فأرى سحابةً سوداء ...

– اما انا فكل شيء ابيض في عيني ، ان السدانة ستبقى في يدي ما دمت قادراً على فتح الباب واغلاقه ، وعندما تجيء ساعتي ، اوصي بها لهذا الولد الذي لا يعرف نفسه ، وتشرفين انت على ما يصنع ، فتهدأ اطماع الامراء وتموت ثورتهم ...

– ولكني أضعف من ان ارده الى الهدى ، وفي مكة طائفة سوء يسمع لها ويشرب معها الخمر .

– اجل وعليك ان تحولي بينه وبين هذه .

– أنسيت اني فتاة لا حول لي ولا قوة ؟

– ونسيت انت انه سيكون لك زوج من اشراف الحجاز ؟

قالت : مسكين هذا الزوج فسيخسر كل شيء ..

قال : لا يخسر شيئاً اذا عرف كيف يداوي الجراح اسمعي يـــا حبى ، اني

اعلم من امر هذه الحياة ما لا تعلمين ، أتحبين قصياً ام لا ؟؟

فترددت في الجواب ، فقال : ضعي قلبك امام ابيك وبوحي بكل اسراره، ألم تري ان هذا الشامي الفقير اصلح لك من سواه ؟

قالت : يظهر لي انه خير من الفتيان الذين عرفتهم من قبل ، ولكنه فقير كما رأيت ..

– لا تذكري الفقر فالرجال يعرفون كيف يصرعونه وسترين بعد قليل ان الرجل يعود من يثرب والآمال تملأ صدره .

قالت : انك تحببه اليّ يا مولاى ..

– وهو يستحق هذا الحب ..

فرأت أن تسكت وتتظاهر بالرضى ، فقالت : لقد حدثتني بامره يا ابي قبل الآن ،

– نعم ولكن لم اسمع رأيك الصريح فيه .

قالت : أتريد ان اعترف لك بأني احبه ؟...

– لا اريد الا ان تصدقيني القول .

– اذن فاعلم اني احببته حباً يملك عليّ مشاعري وقواي .. وأغمضت عينيها وهي تردد ذلك القول ..

فاشرق جبين ابيها وضمها بين ذراعيه قائلاً . سأعرف كيف اصون سدانة الكعبة لنفسي وانا حي ، ولابنتي حبى وانا ميت ..

* * *

لم يذكر قصي لصفوان شيئاً عن تلك العاطفة التي يحفظها في صدره لابنة حليل ، كما ان صفوان لم يبح له بهواه .

كلاهما يكتم الآخر حبه .. كأن الاثنين لا يريدان ان يتحدثا بأمر الحب .. وكلاهما يذوب هوى وغراماً . هذا بليلى ، وهذا بحبى وبالمجد .

فلما انصرف كل منهما الى مضجعه ، ذكر صفوان يمينه ، وذكر قصي وعده

بزيارة حليل بعد رجوعه ، ثم رقدا على ان يسيرا ، في اليوم الثـــاني ، وراء عواطف القلبين .

ولما طلع الصباح . تهيأ الاثنان للنزول الى مكة ومعهما يزيد ، فقال قصي يظهر انك ستبدأ بالبحث مع يزيد عن قاتل ابيه .

فاجابه قائلاً : ان لم افعل ذلك اليوم ، امتنع عليّ فعله بعد حين ..

– وكيف ذلك ؟

– انك ستسـافر الى الشام كما تقول وقد تمكث بهـا شهوراً يختفي في اثنائها قاتل ربيعة ، فمن الرأي اذن ان نتعجل في البحث فقد نجده قبل ان نترك مكة وانت ماذا تصنع اليوم ؟

فقال دون ان يتردد : ازور سادن الكعبة .

وكان الخبر القائل ان قصياً سيخطب حبى ، قد بلغ صفوان، فقال: أتزوره لأنه كان صديق ابيك ؟...

– اجل ، وقد عرفته قبل سفرنا الى يثرب .

– وما معنى زيارتك اليوم ؟

– وعدته بالرجوع اليه ولا بد من الوفاء بالوعد .

– ومتى نجتمع يا قصي ؟

ان لم نجتمع في مكة اجتمعنا في الشعاب عند المساء .

ونزل الثلاثة .. فلما وصلوا ، مشى قصي يريد قصر حليـــل ، ودار الاثنان الآخران حول طائفة الاشجار الكبيرة القائمة وراء الكعبة، ثم تركا ذلك الموضع الى قصر زياد .

فقال يزيد :

اريد ان ازور البيت يا صفوان .

قال : لا يتسع لك مجال الزيارة الآن .

– وهل ترجع بعد قليل ؟

– سنرى اذا كنا نستطيع ذلك .

– ولكني لا ادري الى اين تذهب .

– ستعلم بعد ساعة كل شيء .

فمشى وراءه لا يقول كلمة حتى اصبحا امـــام قصر زياد ، فاستأذنا ودخلا ويزيد يرى مظاهر الشرف والرفاه في ذلك القصر ..

وكان عبدالله وليلى ينتظران صفوان . في ذلك الدهلـيز الذي رآهما فيه ليلة الوداع .. وقلب ليلى يحدثها بوصول الحبيب .. فلما رأته ، ارخت نظرها خوفاً من ان تبوح العينان ، امام رفيقه الغريب بالغرام ..

اما هو فصافحها ويده ترتجف في يدها . ثم صافح عبدالله وهو يقول : ماذا عرفت عن صاحبك يا عبدالله .؟

فنظر عبدالله الى يزيد ولم يجب ، فعرف صفوان ان الرجل لا يريد ان يقول كلمة امام من يعرفه ولا يثق به .. فقال : اين الأميران ؟

– مولاي ابو زياد في حجرته ومولاي زياد عنده ، اجلس لأدعو الاثنين .

– بل اذهب اليهما مع يزيد ، ومشيا خلف عبدالله .

فرحب الاميران بالزائرين ولم يسألا عن يزيد الذي لا يعرفان .

وصفوان لم يذكره لهما ، بل قال : جئت امس وقضي عـــليّ ان ابقى في الشعاب الى اليوم .

فقال زياد : وجاء قصي بن كلاب ؟

– نعم يا مولاي ومعنا هذا الفتى الذي لا يعرف مكة بل لم يرها قبل الآن.

فابتسم زياد قائلاً : انه من اهل الشام كما أرى وقـــد لحق بقصي ، أليس كذلك ؟

– لا ، فيزيد لم ير وجه قصي الا في يثرب . وفي يـــثرب رأى وجهي وتم التعارف بين الفريقين ..

– اذن جاءنا حاجاً ..

– ان الناس لا يحجون في هذا الشهر .

– اذن جاءنا لاجئاً .

ـ لا يطلبه احد الملوك ليلجأ الى مكة .

ـ وهل يكون سائلاً ؟

ـ انه اعظم من ذلك يا مولاي .

قال: لقد عرفت الآن فهو ثائر .. !

ـ نعم ثائر ولا يموت ثأره حتى يموت ذلك الذي يطلب دمه ..

ـ وحتى يموت هو ..

ـ لا يا مولاي ، انه اذا مات قام آخر يطلب بعده بالدم الذي هرق غدراً .

فاستوى زياد في مجلسه وقال : يخيّل اليّ اني عرفت شيئاً .

ـ ماذا ؟

فقال لأبيه : الا تعلم يا أبي ان لربيعة بن سلول ولدين يقيمان بالشام وقد مات ربيعة ولم يرياه ؟

فأجابه الشيخ قائلاً : اعرف هذا .

فقال : ورب الكعبة ان هذا الفتى احد الولدين ..

فكفكف يزيد دموعه وقال : اصبت ايها الامير فانا يزيد بن ربيعة !

فابتسم عبدالله ابتسامة الفوز .

وتمتم الشيخ الفاظاً لم يسمع منها الا بضع كلمات هي :لقد دنت ساعة القاتل .

ثم قال زياد : اتعرف من انا يا بني .

ـ نعم واعرف ان ابن عبادة يحاول ان يغدر بك كما غدر ابوه بأبي .

ـ هكذا يقولون ولكني لا اصدق .

اما انا فاصدق كل ما يقال عنه .

ـ واين اخوك ؟

ـ قتل في حرب النعمان بن امرىء القيس .

قال : النعمان غازي العرب .. اي ورب الكعبة انه غازي العرب.. وهل نقل اليك ان ربيعة لفظ روحه في حضن حليل بن حبشية حاجب البيت ؟

ـ لقد خبرني صفوان كل ما يعلم عن ذلك .

– ولكنه لم يقل لك ان ابن عبادة ليس له وجود في الحجاز ...

فقال صفوان : لقد جاء دوري الآن يا مولاي .

– هـــات .

– لقد حدثت ابن ربيعة بكل ما جرى بينك وبين جبير في ميدان مكة ، ثم نقلت اليه انه استخفى بعد ذلك لايبين له اثر .

– اذا كان هذا فاي غرض ليزيد من القدوم الينا ؟

– غرضه ان يرى جبيراً فيها فيدعوه الى وليمة يعدها له في الوادي وينتهي الأمر ...

– اظن ان أمله سيضيع فالرجل قد ترك الحجاز ،

– اواثق انت يا مولاي ؟

– بعض الوثوق لا كله .

– اما انا فقد ثبت لي انه باق في مكة .!

فضحك قائلًا : لا يستطيع ان يقول لك هذا غير الذي رآه ..

– بل يقوله لي يا مولاي من لم ير احداً .

قال : ألجأت الى سحرة اليمن ؟

– لجأت الى كاهنة في قومي تعرف ما يخلق الزمان .

فقال : انك تعني سودة ابنة زهرة .

– اجل فهي التي قالت لي ذلك .

– اذا صح هذا القول فانتم بني كنانة كالآلهة تعرفون كل شيء ثم قـــال : تستعينون بالسحرة والكهان ولكن لا تجدون احـــداً ... واين هي العمامة يا صفوان ؟

– في الدهليز ،

– اتغطي وجهك في الليل والنهار ؟

– نعم وقد اترك عمامتي عندما اقضي على جبير ..

– قال : اخشى اخيرا ان تستعين بالجن ..!

– سأستعين بابليس لابلغ الغاية .. وقال لعبدالله : ألم تر في الايام التي مضت ما يدعو الى الريب ؟

– لا . وكنت ارافق مولاي في الرواح والمجيء فلا ابصر ما يبعث الظنون.

قال : لقد كنا اثنين فامسينا ثلاثة ..

– بل نحن اثنان فيزيد لا يعرف الرجل ليساعدنا في البحث .. وعندئذ دخلت ليلى تقول لابيها

بالباب احد عبيد حليل يدعوك الى مولاه .

فقال : لا يفعل حليل هذا الا ليشاورنا في امر .. ليدخل الرسول .

ثم ذكر حديثه مع سادن الكعبة فقال : بل لينصرف يا ليلى فانا لاحق به ، وقال لصفوان بهدوء : وهل باع قصي صوفه ؟

– نعم يا مولاي ، وفي ساعة واحدة .

– وما هي حكاية الدروع التي ضرب عليها بالقداح في الليل الماضي ؟

فاستغرب صفوان هذا السؤال وقال : ابلغت حكاية الدروع مكة ؟

– بل ملأتها وقد قصها علينا الكثيرون .

قال : الامر بسيط يا مولاي ، باع صوفه واشترى دروعا ، ثم جاء قومه يعطيهم اياها كما نقلوا اليك .

قال : اهو عادل كما هو جواد ؟

- اذا كان في الشعاب واحد يعرف العدل ويتخذه له منهاجاً فذلك الواحد هو قصي ..

قال : يخرج قدح احدهم وعليه عشرة خطوط فيأخذ صاحبه عشر ادرع ثم يجيء آخر فيأخذ مثله او اقل منه ، وهكذا يتناول الدروع جميعها بضعة عشر رجلاً من كنانة هم اصحاب الحظ كما ترى ، اهذا هو العدل ؟

قال : لم يضربوا بقداحهم هذه المرة كما تضرب العرب ، يفوز السهم بعشرة فياخذ صاحبه درعا واحدة ليس غير حتى يفوز ستون سهما لستين فتى .

– وما هي غاية قصي من توزيع دروعه ؟

– غاية كل امير عربي من بذل المال .

– ولكن الدروع لا تعطى الا في ايام الحرب ...

قـال : الا تعلم ان العرب ، في الحجاز وفي غير الحجاز ، تؤثر الدروع والسيوف والخيل والنوق على الذهب ؟

– بلى ولكني اعجب لفتى يخرج الى يثرب في مال الناس ثم يهب لهم مـا اشتراه بذلك بالمال .

– المال مال اخيه يا مولاي وقد ذكرت لك ذلك من قبل ،

فاستطرد زياد ولم يبال : بل اعجب لفقير لا يملـك شيئاً يعطي كما تعطي الملوك ..!

– لا تعجب لشيء فنفس قصي نفس ملك ..

قال : اجل فنفسه نفس ملك .

قالها وهو هازىء .. ثم ذكر دعوة حليل ، فنهض قائلاً : خير لي ان تحدثني بأمر قصي من ان اذهب الآن الى قصر سادن الكعبة .

قال : سترى قصياً فيه ..

فتظاهر بالاستغراب قائلاً : صـدق الدين قالوا انه يرغب في الزواج .. ألم يذكر لك قصي رغبته هذه ؟

– لا ولا اظن انه يفكر في هذا الأمر الآن .

– وماذا يفعل في مثل هذه الساعة ؟

– ان حاجب البيت صديق ابيه وقد وعـده بزيارة اخرى يوم يعود من سفره ...

فقطب حاجبيه قائلاً : اذن اذهب فأرى ملك الشعاب وتبقى انت مع يزيد حتى ارجع .. وتناول سيفه وهمّ بالخروج .

فنهض صفوان وتبعه عبدالله ...

فقال زياد : اني بحاجة اليك يا صفوان فلا تنصرف .

– ولكني رئيس حراس الأمير وانا مكره على الذهاب معه ..

وقال عبدالله : وانا من هؤلاء الحراس ..
فابتسم قائلاً : اما الأمير فيأمر حراسه بالبقاء هنا حتى يعود .
ـ لك ان تأمر عبدالله يا مولاي .. اما انا فاطيعك بكل شيء الا بهذا .
قال : ما سمعت ان حارساً يعصي سيده ..
ـ الا صفوان بن الحارث فقد تعود العصيان ...
وقام يزيد فقال : وانا تعودته مثلك ..
فرأى زياد ان الثلاثة لا يرجعون ، فقال : أتظنون ان الذئب يكمن لي بين القصرين ؟؟
فقال صفوان : قد يكون كامناً في هذه القاعة .
ـ ولكني قلت لكم اني لا اخافه .
ـ اما نحن فنخاف وسنفعل ما يطيب لنا ..
قال : اسألكم ان تبقوا ..
ـ لا تسألنا شيئاً فاذا وعدناك بالبقاء كذبناك القول وسنلحق بك .
قال : اما وقد اردتم هذا فاتبعوني ، ثم قال :واما انت يا عبدالله فابق .
فلم ير عبد الله الا ان يطيع مولاه .
وخرج الثلاثة ، وصفوان يرسل النظرات الحادة من تحت عمامته لعله يرى الذئب !.
وليلى تلعن ابن عبادة الذي ينغص عليها العيش .

* * *

رأى زياد وجهاً احسن من وجه صفوان . وشاباً فتاناً فيه معاني الخلابة .
فانقبضت نفسه وهاجت في صدره تلك العاطفة الغريبة التي عرفت ، وقد وثق بأن ذلك الفتى الزاهي الجبين هو قصي . وان سادن الكعبة دعاه ليراه .
فسلم وتمّ التعارف باسلوب خاص عرف به حليل في مجالسه الخاصة ، ثم قال لقد كان كلاب بن مرة صديقاً لك يا زياد كما ان ولده زهرة من اصدقائك أليس كذلك .

فاجابه زياد قائلا : اجل ايها الأمير ولكن قصياً ليس صديقاً لي .

فقال قصي : تركت مكة وانا في حضن امي ولم اعد اليها الا منذ زمن قصير كما تعلم .

ثم تركتها مرة اخرى الى يثرب كما قيل لي .

– نعم وعدت امس وكانت زيارة مولاي حاجب البيت اول واجب اقوم به بعد رجوعي ، وكان يتكلم وهو يرى في عيني زياد بريقاً غريبــاً له مغزاه .. وعلى ذلك الوجه الاسمر دلائل البغض . وهو الفتى الذكي النابغة الذي يــكاد يعرف ما في القلوب ؛ فحار في امره وبغت لما يراه . ان هذا الأمير النبيل الذي عرفه الآن يضمر له على ما ظهر ، ما يضمره العــــدو لعدوه . فرأى ان يلمس بيده ذلك البغض دون ان يشعر زياد بغرضه .

اجل وكان يستطيع ان يتبين ما يشاء في الحديث الذي يسمعه من زياد لان للبغض نغمة خاصة تنزل الى اعماق النفوس .

وكان زياد يقول : انكم معاشر كنانة اهل تجارة وعشاق اسفار . وهـــل اعجبتك يثرب ؟

قال انها البلد الطيب الذي يسوده الهدوء . ولا يعبأ أهله الا بالمال تمطرهم اياه ايدي العرب من جميع الاقطار .

– وجماعات اليهود ؟

– لم اختلط باليهود لان صوفي نفد في ساعة وما لبثت حتى رجعت الى مكة .

قال : ان التمر في يثرب احسن ما يحمل الى هنا والطلب عليه كثير ، أفلم تحمل منه أجوده لتبيعه امام البيت ؟

– لا ، اني لم اكن اعلم ذلك ولم ينصحني احد به ، ولكن سأفعل هــذا في مرة اخرى .

– كان عليك ان تشتريه بالمال الذي ربحت .

– لقد اشتريت به صنفاً آخر .

فتجاهل زياد أمر الأدرع وقال : ما هو ؟

– الدروع ..

فنظر الى حليل مستغرباً ثم قال :

– ولكنك لا تجد في مكة من يبتاع واحدة منها .

– لماذا ؟

– لان من لا يملك في مكة شيئاً يملك من الدروع اثنتين

فضحك حليل .

اما قصي فقال : لم يقم في ذهني قط ان ابيعها ..

– وكيف تفعل اذن ؟

– اهبها لفتيان قومي يا مولاي .. وهكذا فعلت .

فهزّ زياد رأسه وقدحت عيناه شرراً .

قال : ما بالك أيها الأمير ؟

قال : انظر اليك بحذر وخوف كالعدو ينظر الى عدوه في ساحة الحرب .

فأجابه هادئاً : يخيل الي اني ارى مـا تقول ولا أعلم السبب في ذلك فـهل تذكره لي ؟

قال : امـا السبب فتعرفه انت كما أعرفه انا ، أتهب الدروع لقومك ثم تسألني عنه .

– وهل يكفر بالاصنام من يفعل ذلك ؟

– لا ولكنه يدل الناس على نفسه ويبعث الريب الى الصدور .

– ومع ذلك فانا يا مولاي الأمير لا افهم ما تقول.

قال : سأحدثك بجلاء فتفهم كل شيء ، قل لي يا قصي أليس الغرض مـن الدروع ان تسلح قومك ؟

فقال في نفسه : انه أبعد الناس نظراً . ثم قال :

اعلم أيها الأمير إني قدمت مكة وأنا لا أملك شيئاً

– أعرف ذلك .

– ثم خرجت في مال أخي زهرة الى يثرب فخدمني الحظ.

– وأعرف هذا أيضاً
– وقد كرهت ان اعود الى الشعاب وانا لا احمل لقومي ما اهبه لهم فجئتهم بالدروع ..
– نعم ، وغداً تحمل اليهم من اليمن طائفة من السيوف ثم تقول إنها بعض هباتك ..
قال : ليس عندي من المال ما أعطيهم اياه .
قال : والفقراء لايعطون الناس ..
– رأيتهم يكرمون وفادتي ، وأنا الغريب عنهم ، ففعلت ... وكتم غيظه وصدره يكاد ينفجر ...
فقال زياد : حسبناك رسول أحد الملوك الفاتحين الطامعين بالحجـاز .
فارتجفت شفتاه ولم يجب .
واستطرد الأمير قائلاً : وخيل إلينا أنه أعطاك بعض ماله لتهيء له أسباب الحرب وتشتري له الرجال ... وتلك صفقة رابحة يا قصي ، فإن ذلك الملك ، عندما يتم له الفتح ، يوليك امر مكة ويجعلك عاملاً له تقوم بأمر البيت وتجبي له الخراج ...
فقال : والأميران ينظران الى اضطرابه : وبعد ذلك ؟..
– يستقيم لك الأمر بعد ذلك فتصبح يا ابن كلاب سيد الحجاز ونمسي لك نحن الأمراء عبيداً !!
وحليل ساكت لا يقول كلمة ، ولكنة يبتسم ..
فلم يخرج قصي عن حده ، ولم يفارقه الهدوء ، بل قال :
أنسيت أني حجازي أيها الأمير ؟
– لم أنس ذلك وإن كنت نشأت في الشام ..
– ونسيت أني من أشراف مكة ..
– اذكر دائماً أنك من كنانة ..
فلمعت عيناه وهو يقول : اذا كنت تذكر هذا هان عليك أن تعلم أني لا

أخون الحجاز ..

قال و ذلك قول لاينطبق على فتى مثلك يرى الحياة كلها أحلاماً ومنى .

قال : ليست القضية قضية عمر بل قضية شرف :

فدوت في القاعة ضحكة زياد . ضحكة استخفاف اهتز لهـــا جسم قصي واسود جبينه .. ان تلك المظاهر مظاهر عداء لا شك فيه وصدر الفتى لايتسع لأكثر من هذا .. وكاد يحدث الانفجار لو لم يكن هنالك بقية من الحلم ، فقال :

اراك تستخف بي يا مولاى كأنك تريد ان تهدم هذا التعارف الذي جرى بيننا الان

قال : وهل تتردد في قبول الولاية اذا عرضها عليك ملك ؟

قال : لو عرضت عليّ الجنة لما رضيت ، ان الفتى النبيل يبني مجده بيده اذا كانت نفسه تطمح الى المجد ، وابن كنانة لا يتآمر مع الغريب على قومه ولو كان من وراء ذلك عرش » ومن هو هذا الملك العربي الطامع ان لم يكن النعمان بن امرىء القيس ؟ أهو الذي تعني ؟

– انت ادرى بالجواب ..

قال : لقد اخطأت في ظنك ايها الأمير فليس هنالك ملوك فاتحون ولم اكن قط رسول احد ..

– اذن فالدروع هي لغرض اخر ..

فوضع يده على صدره كأنه يضغط ذلك الشعور الغريب الذي احس به ثم قال :

اجل ايها الأمير وانا اصف لك هذا الغرض .

– ونحن نصغي اليك ..

قال : اما غرضي فهو ان املأ الشعاب سيوفاً ودروعاً واجعل قومي أمنع اهل الحجاز ..

– ثم تفعل ماذا ؟

– ثم اغير على الكعبة فأبارز اميرها حليل بن حبشية وانحيه عن الامارة ،

ويتصدى لي غيره من الأمراء ، مثلك يا زياد ، فاصرعهم بالسيف واحداً بعد واحد ، وتخضع لي خزاعة وصوفة وبكر ويصبح امر الحجاز بأيدي قومي آل كنانة وينقضي كل شيء .

والتفت الى حليل والابتسامة على شفتيه .

فقال زياد : رحمة يا ابن كلاب ولا تجر على الأمير الذي يخاطبك الآن

فاجابه وهو يتكلف المزاح مثله : لا اراك تستحق الرحمة فقد جاهرتني بالعداوة منذ الساعة .

قال : اذن يجب ان نتهيأ لقتالك . . .

– افعل ما يطيب لك فانا لا احارب اليوم احداً . . !

قال : انصح لك بالسفر الى اليمن لتحمل سيوفها . .

– اذهب هذه المرة الى الشام ففيها يصنعون الاسنة من الفولاذ .

– ومن يكون معك من قومك ؟

– اذا تركنا المزاح قلت لك اني لا اعلم فقد يقوم قومي جميعهم برحلة الى بصرى فأسير معهم .

فرأى زياد ان يكف عن ذلك التحدي الذي لم يبق له ما يبرره ، وعمد الى اسلوب آخر فقال :

افلم يكن صفوان بن الحارث رفيقاً لك الى يثرب .

– بلى ، وصفوان خير النبلاء .

فجعل ينظر الى جانبيه لعله يرى حبى ، فلم يرها

فقال : سمعت ان هذا الفتى يطلب فتاة تكون زوجة له

– ما سمعت هذا قط يا مولاي .

– بل ذهب الى يثرب ليرى تلك الفتاة التي لا تصلح له . .

– وهذا ايضاً لا علم لي به .

– وقيل لي انك انت نفسك تبحث عما يبحث عنه صفوان

فاجابه الداهية بمثل لهجته قائلاً :

اما هذا فصحيح ولكني لم اجد تلك الزوجة بعد ..

قال : ومن اصعب الامور على من كان مثلك ان يجدها بين نساء قومه وكان عليك ان تطلبها في قصور الملوك ..

– لقد طلبتها في الحجاز فلم تشأ احدى نسائه ان تزف الى فقير صعلوك يدعى قصي بن كلاب . ثم قال : والآن ارجو منك ايها الأمير ان تكتفي بما ذكرت فقد أنف مولاي سادن الكعبة مما سمع ..

فأومأ حليل الى زياد بالسكوت وقال : اجل ، لقد انتهينا من هذا الآن وعلى قصي ان يحدثنا بما رآه عند الأوس والخزرج ، قل يا قصي من رأيت من رؤساء يثرب ؟

– لم ار يا مولاى غير رئيس واحد وهو الجلاح الأوسي

فحنى رأسه قائلا : نعم انه رئيس قومه وبطلهم وحامي ذمارهم وله في يثرب حصن تعرفه العرب

قال : يبدو لك ذلك يا مولاي من كثرة الناس الذين يقومون حول قصره وفي بيوت ضيافته ..

– وهو صاحب الدروع في يثرب وقد كان ابوه مثله .

– وعنده منها ما يكفي اهل مكة ..

قال : اسألك سؤالا هو غير السوأل الذي وجهه اليك زياد .. ما الذي اردته من شراء الدروع ؟

قال : لو وزعت المال الذي اشتريتها به على قومي لما اصاب الواحد منهم ما يكفيه يومه ، فعمدت الى الدروع فجعلتها هديتي الأولى لقاء ما احاطوني به من عناية واحسان،افلم اكن مصيباً فيما فعلت يا مولاي ؟

– ليس للناس رأي فيما تفعل مع قومك وزياد يحب المزاح كما رأيت ،أجاد انت في قولك انك ذاهب الى الشام ؟

– نعم يا مولاي ،

– اذن ليس لك سبيل الى السفر الآن !

– بعد شهرين يوم تقوم كنانة برحلة الصيف .
– وماذا اعددت لها بعد رجوعك ؟
– اعد ماذا ؟
– ماذا اعددت لكنانة من تحف الشام .
– لا اعلم ماذا احمل منها فقد يخونني الحظ .
– ارى ان المال الذي تنتظره سيذهب كله لبني قومك وستبقى بدون مال.
– ذلك خير من ان يجتمع لدي مال العالم ولا يكون لقومي نصيب به .
قال : اخشى ان تكون الهبة في المرة الثانية رماحاً كما قلت.
– ويغضب امير صوفة ويعد عدة الحرب ...

فقال زياد لحليل : اني لم اكن هازلاً يا مولاي الأمير فيما ذكرت ، فابن كلاب لا يسلح اهل الشعاب الا لأمر وقد عرفت اليوم ان قومه يطيعونه حتى انهم يعدونه سيداً لهم وهم يعلمون انه الضعيف الذي ليس في يده شيء.

فأجابه قصي قائلاً : وهذا معناه ان المال وحده لايسود صاحبه ، ثم قال : أراك تعود الى البحث عن أمر لا وجود له أيها الأمير . أتظن أن الحرب رحلة إلى يثرب ام رأيت أني ملك له قوته وعظمته وقد زحفت من الشام الى مكة أريد أن أجعلها أنقاضاً ؟؟ قل لي يا أمير صوفة ما الذي دعاك الى القول اني رجل حرب ؟ الحصون التي تبنيها كنانة فوق مكة ام الجنود التي تملأ الجبل والسهول ؟؟.. انك لم تر شيئاً من هذا بل سمعت ان ستين درعاً اعطاها قصي لفتيان قومه اعترافاً بعنايتهم به وعطفهم عليه فخيل اليك ان وراء كل درع مئة رجل يحملون السيوف وتدوي اصوات ثورتهم في الفضاء .

قال : لو رأينا شيئاً من هذا لما خطر ببالنا ان نسألك عنه ، ولكن رأينا نفساً تريد ان تصعد الى القمة وذلك الصعود لايتم لها الا اذا لجأت الى السيف ..
– وماذا اعددت لهذه النفس الطامحة أيها الأمير ؟
– السلاح المشحوذ والرجال الذين يطيب لهم الموت في ساحات الوغى .
– ولم يبق عليك الا الصبر حتى ترى طلائع الجيش ..

– اجل ، وسيكون دمك ثمناً لطموح نفسك .

فلم يعلم قصي كيف يفسر مظاهر هذا العداء .. ان أمير صوفة صريح جداً حتى انه جاهر بالعداوة ولم يبال ، وقد ثبت لابن كلاب انه ادهى امراء مكة واكثرهم حكمة وابعدهم نظراً . ولكن ، كان عليه وهو الداهية ، ان يظهر اللين بدلاً من الشدة . ويخفي بغضه الذي قامت عليه الشواهد ، وراء مظاهر الرضى والحب ..

كذلك لم يستطع قصي ان يفسر سكوت سادن الكعبة وهو يرى صدر زياد كالبركان يقذف النار .. فنهض وهو يقول :

ليأذن لي مولاي في الانصراف .

فقال حليل : بل تبقى يا قصي فلي حاجة اليك .

قال : أتطيق يا مولاي ان ترى في مجلسك رجلاً يريد ان يسلبك الحجابة ويسلب أمراء مكة ما يملكون ؟

قال : لم يقم في ذهناً قط انك تفكر في هذا .

– واذا فكرت فيه ، فهل يقوم في ذهن احد اني قادر عليه ؟

– قد تكون في نظر زياد قادراً على ذلك ...

قالها وجعل يضحك ...

فقال زياد : يهم المرء ان يعلم ان فلاناً عدو له وليس عليه ان ينظر في غير ذلك ...

فأجابه قصي قائلاً : اتريد ان تفعل ، بل انا اقسم لك اني لست عدواً .

– لا أريد ان تفعل ، بل انا اقسم لك برب الكعبة اني عدو لك .

وظهر البغض بمظهره الرائع على وجهه وفي عينيه .

فقال قصي ولم يتردد :

ليكن ما تشاء فقد بدأنا الآن ان نكون عدوين .

ولكن سادن الكعبة لم يرد ان يسكت بعد ، فقال لزياد : لقد فكرت الآن في أمر اسألك رأيك فيه ..

قال : سل أيها الأمير .

قال : أتؤثر ان نعيش العمر كله في واد تكتنفه الجبال كما يعيش الليث في القصبه ام تريد ان نمد رواق ملكنا فوق الأقطار التي يسودهـــا غيرنا من ملوك الفرس وملوك العرب ؟؟

قال : لا خير في رجل يؤثر الخمول على الظهور والضعف على القوة ..

قال : الا ترى انه لا حياة لنا في مكة اذا ارادها الحجاج ؟

– ارى ذلك .

– واذا اجدبت ارض العرب ولم يحج الناس ؟

– احست مكة بالضيق واخذت نصيبها من هذا الجدب .

– اذن علينا ان نخرج من هذا الوادي ..

– الى أين ؟

– الى الحياة الحرة لا يمن بها علينا احد .

– احلف برأس أبي أني ما فهمت شيئاً ..

قال : نخرج من مكة على رأس جيش فيه فرسان الحجاز وابطاله فنخضع كل بلد ترتفع فوقه اعلام الفرس واعلام تبع ثم نزحف الى العراق فنستولي على الحيرة ونطرد النعمان من عاصمة ملكه .

فابتسم قائلاً : اكاد لا اصدق ما أسمع .. احاجب البيت نفسه هو الذي يقص عليّ هذا الحلم ؟؟

– اجل حاجب البيت نفسه هو الذي يحدثك بمايجول في صدره . ان العرب جميعها تعترف بالكعبة وتظهر الخضوع لصاحبها ولكن صاحبها لا يملك منأرض العرب شبراً ولا يقوم له فى اقليم من اقاليم الجزيرة ذكر .

قال : ايخرج حليل بن حبشية من مكة غازياً .

– نعم واراك مستغرباً ، اني اعيد عليك ما قلته الآن ، اخضع مـــا يجاور الحجاز من الجزيرة ثم احطم عرش العراق كما قلت وقد أتوسع في الفتح فأدفع الخيل الى بلاد بهرام جور ثم لا اعلم بعد ذلك الى اين ينتهي بي جوادي الجامح .

– اذن يمسي أمير مكة ملك العالم الذي نعرفه !!.
– أحسنت ولا يمنعني من ذلك شيء .. فقل لي يا زياد ما هو عدد الجند الذي تقوده يوم نشهر السيف على من ذكرت ؟
فأجابه والابتسامة لاتفارق شفتيه :
الف رجل هم سادة الميادين .
– وبنو بكر بن عبد مناة ؟
– أكثر من الف ..
– ثم نجمع اطراف خزاعة ومن والاها من العرب فيصبح الجيش ستة الاف نغزو بهم الجن .. ثم قال : وانت يا قصي أتعرف عدد قومك ؟
قال : لم أكن قط سيد قومي لأعرف أبطالهم .
فقال زياد : اجعلهم الفين يا مولاي .
قال : نعم .. نعم .. ثمانية آلاف رجل عدد كاف لا يستهان به ، وقد تتبعنا قبائل كثيرة تخرج على ساداتها فنمشي شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً ويمشي أمامنا النصر ..
فقهقه ضاحكا وهو يقول : واي تاج يكون لي ؟
– اختر احدها .
قال : ألبس تاج العراق وتلبس أنت تاج الفرس ثم تبعث آخر فيجلس على عرش اليمن وينتهي الأمر .
قال : أتهزأ ؟
– ومن لا يهزأ عندما يسمع هذا القول الذي يشبه أقاصيص النساء ؟
– انه قول ستكرهك الأيام على الوثوق به .
– ولكني لا أثق بالأحلام ..
– بل تفعل عندما ترى التيجان تهوي الى الأرض تحت ضربات أهل الحجاز والملوك تحني رؤوسها أمام الفاتحين .
وكان قصي قد عرف الغاية من حديث حليل فلم يبدُ على وجهه ما يدل

هل الاستغراب .
ثم قال حليل : متى تنفخ بين رجالك في بوق الحرب يا زياد ؟
– وهل جنّ زياد بن كعب حتى يقذف برجاله الى الموت ؟
– انك تدفعهم الى المجد الذي ينتظرهم خارج الحجاز .
– ليتمتع مولاي حاجب البيت وحده بثمار هذا المجد ..
– الا تزحف مع الجيش ؟
– لا يا مولاي .
– ومن يصدق ان زياداً امير صوفة صاحب المفاخر والمحامد في مكة يستسلم الى الخوف ؟
– ومن يصدق ان سادن الكعبة يريد ان يستأثر بتـــاج الفرس وتاج العراق بثمانية آلاف رجل ؟؟
فقال : ذلك الذي يصدق ان قصي بن كلاب يريد ان يستولي على مكة بستين درعاً من دروع الجلاح .
فأطرق زياد ولم يجب .
قال : وما هو رأيك الآن ايها الامير ؟
– ليس لي رأي الا اني عندما ارى قصياً ارى رجلا لا ترتاح الى رؤيته نفسي.
فقال قصي : لقد تعاهدنا على العــداء وانقضى كل شيء .. ولكن لا تنس ان قصياً لا يطمح بحجابة البيت الا عندما يطمع زياد بن كعب بعرش النعمان ..
فأومأ حليل الى الاثنين بالسكوت ..
وكانت عيونهما ترسل السهام الحادة والواحــــد منهما لا يعرف لماذا يبغض الآخر .
وذلك سر تحيّر علماء النفس في تفسيره ، كما تعلم .
وعندما نهض زياد يهمّ بالخروج ، وقف حليل وقـــال لهما : اقسما انكما لا تبوحان لأحد بما جرى ؟

فا قسمابمن بنى الكعبة وخرج زياد .

* * *

ما رأيت اغرب ممـا رأيت الآن يا مولاي .. رجل لا يعرفني ولا اعرفه ، ولم ار له من قبـل وجهاً ، يرسل اليّ من الفاظه ومن عينيه ما لا يطيقه الأد، ويجاهرني بالعداوة كأني قتلت أباه !!. ورب الكعبة لا اعلم ماذا يضمره لي هـ، الرجل وليس هنالك من يعلم ماذا يحدث بيني وبينه. فهل الك يا مولاي ان تدـه، لي وتحدثني بما تعرف عنه ؟

فقال حليل في نفسه : سأقرأ الآن ما في نفس الفتى من آمال واسرار . قال : سأحدثك بكل ما أعلم فلا تعبأ بما رأيت وسمعت ، ان زياداً لا يخشى ا تقود الجيوش لتستولي على مكة كما قال لك ..

— ما الذي يخشاه اذن.؟

قال : في مكة اشاعة قائلة ان قصياً خطب حبى ابنة حليل ..

— انا ؟

— نعم انت ورددتها الافواه حتى خيل الى الناس انها اشاعة صادقة وار الخطبة قد تمت .

— ومتى كان ذلك يا مولاي ؟

— بعد ذهابك الى يثرب ، وقـد جاءني زياد يطلب اليّ ان اطلعه على . جرى بيني وبينك من أمر الخطبة .

قال : لي كلمة يا مولاي .

— قل ..

— اية صلة بين هذه الخطبة وبين ما اسألك عنه .

— سترى انها كانت الباعث لهـذا البغض الذي قرأته الساعة في عيني زيـا ابن كعب ...

— وكيف ذلك ؟

— ان الامراء لا يريدون ان تزف حبّى الى رجل ليس من قومهم أتعلم لماذا

- لماذا ؟

- لانهم يرون ان حجابة البيت تخرج من ايديهم .

- وهذا ايضاً يا مولاي من اغرب ما سمعت .

- ولكن هذا الاستغراب يزول عندما تعلم ان سدانة الكعبه ستفضي بعد حليل الى المحترش ، وان المحترش لا يستطيع ان يقوم بها الا اذا كانت يد حبى في يده ..

فتظاهر قصي بالتفكير .

اما حليل فاستطرد قائلاً : فاذا ارادوا ان تكون حبى لهم، فلأنهم يريدون الحجابة ليس غير .. وكيف يطيقون ان يروا قصياً وهو من كنانة ، جالساً في كرسي حليل بن حبشية وهو زعيم خزاعة .

قال : لقد فهمت الآن .

قال : بقي شيء آخر لم تفهمه هو انك لو لم تكن من كنـانة لما خطر ببالهم ان يسألوا سادن الكعبة عن مصير ابنته .

- يخيل اليّ انهم يخافون أهل الشعاب .

- نعم وهم يخشون ان يكونوا عونـاً لزوج حبى الذي هو منهم فيخسروا الحجـابة .

- ولكنهم اكثر عدداً من أهل الشعاب يا مولاي .

قال : ان لم يخسروها تعبوا في حفظها لهم لان قومك يا قصي اشداء تخشاهم العرب .

- اذن لو جاءك رجل من تهامة او من نجـد وطلب ان تكون حبى زوجة له لما عرضوا له .

- لا .

فوضع رأسه بين يديه كأن سهماً اصاب قلبه .. وقد جاء الآن دور الدهـاء الذي كان يمثله حاجب البيت .

فقال حليل : في اي شيء تفكر يا بني ؟

– افكر في امري يا مولاي .

- ولكن ارجو ان تذكر لي هذا الأمر ..

قال : لقد اذلني زياد بن كعب .

– واي ذل هذا ؟

– أليس هو الذي قصّ عليك ما ذكرته لي ؟

– بلى ، ولاجل ذلك رأيتني الآن ساكتاً .

قال : وقد استخف بك يا مولاي عندما سألك عن الخطبة ..

– انه خائف كما قلت .

- ولكن كان عليه ان يعلم ان سادن الكعبة اعظم من ان يرضى بقد. ابن كلاب زوجاً لابنته .

قال : ذلك هو الخطاء كله يا بني ، ان قصياً حفيد اسماعيل وحاجب البي. ليس اشرف نسباً منه !!

– والفقر ؟

– اما الفقر فلا افكر فيه ، يولد المرء فقيراً فيصبح ذا مال ، ويولد . . فيخسر ماله ، ولا يستطيع الزمان في الحالين ، ان ينال من شرفه ونبالة خلد.

قال : ارى مولاي الأمير يبعث الامل الى هذا الصدر ...

– بماذا ؟

– بهذا القول الذي اسمعه منه ، أترفض يا مولاي فتيان العرب وترضى . كلاب ، الذي نشأ بعيداً عن قومه وضيّع زهرة عمره في ربوع الشام ؟؟

قال : لقد اظهرت لك امري فظن ما تشاء .

قال : اخشى ان اثب وثبة الى العلاء فاسقط في الهوة واخسر أملي . الابد .

– بل تستوي في المكان الذي ترغب فيه.

قال : واراك تدفعني بيديك يامولاي الى الامام .

– ذلك لاني عرفت اي فتى انت ...

فلم يبق الا ان يقول قصي كلمته ، فأطرق ملياً ثم قال : اتعدني يا مولاي ان حبّى ستكون لي ؟

فاجابه برصانة الشيوخ وهدوئهم قائلاً : اعد ان حبّى لا تكون الا لك

فطبع على يده قبلة الشكر وهو يقول : وانا اقسم برب الكعبة اني سأكون لك ابرّ من ولدك .، ثم قال : ولكني يا مولاي لا اتزوج اليوم ، .

قال : لا اسألك عن اليوم الذي تتزوج فيه ، بل اسألك عن السبب الذي يدعوك الى تأخيره ..

قال : لا امدّ يديّ الى حبّى قبل ان املأهما مالاً .

قال : اعطيك من المال ما تشاء .

– لا ارضى يامولاي بان اخذ من أحد درهماً ،، تلك يمين حلفتها قبل قدومي من الشام . نعم . وسأطوف في الشرق والغرب حتى اصبح اهلاً لحبّى وحتى لا تقول العرب ان سادن الكعبة وهب ماله لقصي بن كلاب وزوجه ابنته ...

- ومن يقول للعرب اني وهبت لك هذا المال .

– جميع من في الحجاز يعرفون اني فقير لا أملك درهما ومن العار على اعظم امراء هذا القطر ان يزف ابنته الى الفتى العاجز الباسط يديه طالباً عطاياالناس

فدمعت عينا حليل ،

ثم قال قصي ، ولي كلمة اخرى يامولاي.

– ما هي ؟

– اوثر ان أسمع من فم حبى كلمة الرضى أتريد هذا ؟

فنهض دون ان يجيب ، واتجه الى الباب قائلاً لعبده : ادعـو مولاتك حبى الساعة .

وكانت الفتاة في حجرتها التي تجاور تلك القاعة وهي تسمع كل مايدور فيها من الاحاديث ، فدخلت والخجل يعقد لسانها ، واحمرار خدّيها يبوح بما في القلب من غرام مذيب ، فقال لها ابوها : أتعلمين لماذا دعوتك اليّ .

فكرهت ان تعترف بانها سمعت حديث الاثنين كما انها كرهت ان تكذب ، فقالت :
يخيّل اليّ يا مولاي اني أعلم ..
– اذن حدثينا بما تعلمين .
قالت : ليكن مولاي البادىء بهذا الحديث فهو به أولى .
وأرخت عينيها لا تنظر الى قصي .
فعرف الرجلان انها تؤثر السكوت . فقال حليل : لقد رأيت قصياً في هذه القاعة قبل ان يذهب الى يثرب أليس كذلك ؟
- نعم يا مولاي .
– وعرفت انه ابن كلاب اشرف أهل الشعاب نسباً .
– نعم يا مولاي .
– وانه لا يملك من أسباب الجاه غير هذا النسب .
فحنت رأسها ، فقال : ولكنك لا تعلمين انه يرغب فيَ الزواج .
– اما الآن فقد علمت ..
– اذا كان هذا فقولي لي أتريدين ان تصيري زوجة له .
فرفعت نظرها عندئذٍ وهي تقول :
ليس لي ان أريد يا مولاي بل عليّ ان أطيع .
قال : ألا تذكرين اولئك الفتيان الذين سألونا من قبل ما يسألنا اياه قصي الآن .
– أذكرهم جميعاً .
– ولماذا لم يرضَ ابوك بان يكون احدهم زوجاً لك ؟
– لان حبى لم ترضَ ..
– اذن أسألك ان تظهري الرفض او الرضى قبل ان تظهري الطاعة فسادن الكعبة لا يزفّ حبى الا الى من تحب ، أتريدين قصياً ؟ قولي نعم او لا .
فترددت في الجواب ، كما يتردّد في مثل هذا الموقف ، جميع العذارى ولو

اذابهنّ الحب . ثم قالت : اذا كان لا بدّ من الزواج فقد رضيت .

فابتسم قصي ابتسامة النصر وقال :

ولكن لا مال لي ..

قالت لقد رأيت مالاً كثيراً فلم أعبأ به .

– وليس لي منزل الجأ اليه غير منزل زهرة .

قالت : ليس أحب اليّ من الاقامة بمضرب من الصوف تصفر الريـــح في جانبيـــه .

– وتتركين العيش في القصور لتعيشي معي كما يعيش أهل البادية ؟

- أترك كل شيء لانضم الى رجل يرعى الحرمات .

فنهض فقبّل يد حليل وهو يقول : لقد شرفتني يا مولاي عندما اردت ان تجعلني ولداً لك .

قال : ليبارككما هبل ولتسبغ عليكما السماء النعم ، اجلس يا بني ولننظر في أمر الزواج .

قال : أتريد يا مولاي ان تجعل له موعداً ؟

– أجل وعلينا ان نكتم جميع الناس مـا دار بيننـا الآن حتى يجيء ذلك الموعد ؟

فابتسم قائلاً : اما الكتمان فلا بدّ منه ، خوفـاً من ان يشهر علينا الحرب زياد بن كعب ...

فضحك قائلا : ليشهر علينا الحرب جميع الامراء فنحن لا نبالي ولكن نحب ان ندعوهم فجاةً الى حفلة الزواج فتسكت اصواتهم ..

- وبنو كنانة يا مولاي ؟

ماذا تريد من هؤلاء ؟

- أأكتمهم امر زواجي وهم قومي ؟

– أجل كما نكتم نحن بني خزاعة هذا الأمر وهم قومنا ، ثم قال : متى يكون رواجـــك ؟

– لا اعلم الآن فقد امكث بضعة اشهر في ربوع الشام .

– ثم تعود منها على أمل الذهاب الى اليمن وقد تمكث فيها بضعة اعوام ،، ما ترى ... انك كثير الاسفار يا قصي .

– نعم ولو كان عندي من المال ما يكفيني لطابت لي الاقامة بمكة لا اغادر، الا الى القبر .

– اراك تعود الى ذكر المال كأنه ، في نظرك مفتاح الجنة .

– بل هو عرض لا قيمة له لولا الحـــاجة اليه ، أتريد يا مولاي ان يقو، العرب : لقد جعـــل سادن الكعبة ابنته حبى بين يدي رجل لا يملك درهماً انك اذن تذل حبى وانت لا تعلم .. ومع ذلك فسيكون زواجي بعد رجو، من الشام .

قال : كأنك واثق بان المال ينتظرك في بصرى ..

– اجل ويخيل اليّ اني سأستطيع ان اجعـــل مهر حبى كالمهور التي تدفع لبنات الملوك .

واذا خانك الحظ هذه المرة يا بني ؟

ارجع خائب الآمال صفر اليدين واطرح بهذا القلب الخفـــاق بين ،، الفتاة التي احببت فتفعل ما تشاء .. والآن فأرجو ان تقول لي : لقد زوجتك

فأومأ حليل الى حبى فنهضت ونهض الفتى ، ثم تصافحا وحليـــل يقول أقسم برب الكعبة ان حبى لا تزف الا اليك . ولكي يظهر لقصي وثوقـــه تناول مفاتيح الباب ، باب البيت وخرج قائلاً له : نحن ذاهبون الآن فقد على حبى ما يطيب لك من احاديث القلب ..

* * *

– ٥ –

مرت ساعة والخطيبان ساكتان . ولكنهما يتخاطبان بلغة العيون .. وقد بسط الحب فوقهما جناحيه ، وملكتهما روعة الهوى ..

وكان قصي في جميع مواقفه ، الا مواقف الطموح والسياسة ، حراً صريح القول كما رأيت ، لايخفي ما في صدره من عاطفة وشعور ولا يطيق ان يكتمه جليسه عاطفته وشعوره .

وهو مع حبى في تلك الساعة ، ولا ثالث بينهما ، وقد رأى الأقدار تمهد له سبيل الوصول الى غرضه ، والزمان يبتسم له . وقد وضع قدمه في الموضع الذي اراد صاعداً الى سماء مجده .. فابتسم لاحلامه وقال :

حبى .! اني اخشى ان يستولي عليكِ الندم بعد حين .

قالت : لماذا ؟

ـ لأنك استسلمت الى ارادة ابيك في امر الزواج .

فاجابته قائلة دون تردد :

بل استسلمت الى أمر آخر لا اندم بعده ..

ـ ما هو ؟

ـ هو الحب ..

قال : ومن يصدق انك تحبينني وانت لا تعرفين من انا ؟

قالت : ذلك الذي رأى بعينيه ، اني رفضت فتيان قومي لأكون لك، انك تريد ان اكون البادئة بالأعتراف بحبي وقد فعلت .

ـ ومتى اخترقت هذا القلب اشعة الحب ؟

ـ يوم ارسلتها عيناك وانت مع اخيك زهرة وراء وفود العرب في طريقها الى البيت ..

قال : أفيبنى الحب على شعاع طائش لا يعرف صاحبه ؟

ـ اجل واعذب حب ذلك الذي تفضحه العينان .

ـ اما انا فلم يخطر لي خاطر الحب يوم رأيتك على شرفة هذا القصر.

ـ واليوم ؟

ـ واما اليوم فقد اردت أن اصير صهراً لسادن الكعبة ليس غير..

ـ اذن صدق زياد بن كعب فيما ذكره منذ ايام

-- وماذا قال زياد ؟

– قال انك اذا سألت حاجب البيت ان يزوجك حبى فلأنك تطمع بان تكون حجابة البيت لك بعد موته .

قال : لقـــد خبرني ابوك بهذا ، ولكن قولي لي : أتريدين قصياً اذا كان الحجابة غاية له ؟

– اذا لم يكن في صدر قصي شيء من الحب فلا خير فيه .

– وكيف رضيتِ الآن .

– لم ارض الا لأني واثقة بان قلبك يشتعل غراماً ..

– ومن دلك على هذا ؟

-- انت ..

– مع ان هذا الصدر لايتسع للغرام .. اني يا حبى مشغوف بالامجاد

قالت : وانت تعلم ان الحصول على حبى مجد لك ، افلا تريد الآن انتعترف بهواك ؟

فقال : بل لا يلذ لي إلا ان اعترف بهذا الهوى،انكِ ياحبى امل قصي وبهجة نفسه .. ولا ازيد الآن شيئاً على هذا ..

واطرق قليلاً ثم قال : ولكني افكر في هؤلاء الامراء الذين يملون اغراضهم وأهواءهم على سادن الكعبة .

قالت : خير لك ان تفكر في أمر واحد هو ان هؤلاء الذين ذكرت لا يجسرون على ان يرفعوا اصواتهم عندما يغضب حليل .. لقد قلت الآن انك ستمكث في بلاد الشام بضعة اشهر ، أصحيح هذا ؟

– نعم

– ولكن ألا تعلم ان في مكة قلباً لايطيق ان تبتعد عنه ؟

قال : لا تحدثيني بهذا ايتها الحبيبة فانا لا اقدم على السفر لو لم اكن مكرهاً عليه ، اسمعي يا حبى ، أليس حليل بن حبشية هو اعظم امراء الحجاز ؟

– بلى

- اذن فاعلمي اني اريد ان اصارع الاقـدار وأبارز الزمان ليساويني به ..
لعم ليساويني به .·.
- في اي شيء ؟
- في المال ، والنفوذ .. والسلطان ، وفي كل شيء
فأدركت حبى مغزى ذلك القول فابتسمت قائلة : ثم تتزوج بعد ذلك ؟
فضحك بدوره وهو يقول : بل اتزوج بعد الرجوع مـن السفر كما وعدت ثم أخوض مجال الجهاد لأبلغ الغـاية واجعل زوجتي سيدة نساء العرب وملكتهن جميعا .
فرأت حبى ان اباها كان مصيباً فيما ذكره عـن قصي ، وان نفس الفتى الكبيرة لاتقف عند حد ، فقالت :
وهذه الزوجة التي ستجعلها سيدة النساء ستكون عوناً لك .
قالت هذا لتثبت له انها تكاد تلمس ما في صدره من اسرار ..
فعمد الى صراحته فقال : وتساعدينني في كل ما أفعل؟
- وهل تشك في ذلك يا قصي ؟ اني اعلم ما أقول ولا خير في زوجة لاتهيء لرجلها جميع اسباب المجد ..
- ولكني كثير الاطماع وستكتنفني الاخطار ..
قالت : هكذا يجب ان تكون فانا أكره الخاملين ..
قال : بقي شيء آخر لم يخطر لنا ببال .
الا تذكره ؟
بلى ، هو اني اخشى ان يحطمني القدر قبل الوصول الى القمة .
بل يرفعك هذا القدر ، بقوة جناحيه الحديديين ، ويجعلك على العرش ، اتخاف ايها الحبيب ؟
فابتسم قائلاً : أخاف ان تستهين بك العرب اذا خانني الزمان ..
قالت : ان الرجال الذين ينظرون الى العلاء لا يخافون .
فنهض قائلاً : والرجل الذي تضعين يدك بيده هو اسعد الناس .. وصافحها

ومشى الثلاثة بين الاشجار راجعين الى قصر زياد .

ولم يكونوا وحدهم ، بل كانت وراءهم تلك المرأة القصيرة العنق ذات اللون الاسود والثياب السود .. وهي تحمل قربة ماء وركبتاها ترتجفان ... وكانت تسمع كل ما يقوله الأمير ورفيقاه ..

فقال صفوان : ارأيت قصياً يا مولاي ؟

– اجل ، وهو كما وصفت يا بني .. جبين زاهٍ ولسان فصيح وملامح جذابة تسحر الناظر اليه ..

– وهل حدثته ؟

– نعم وكان يقصّ علينا ما رآه في يثرب . من عظمة الجلاّح سيد الأوس وحسن ضيافته ..

ولو لم يذكر زياد في تلك الساعة تلك اليمين التي حلفها لحليل ، لباح للإثنين بما يجول في صدره من عواطف البغض والعداء.

ولكنه اقسم ان يكتم الناس كل ما قيل في القصر وزياد خير من برّ في يمين ووفى بوعد ..

وقد اراد ان يغير الحديث فقال :

وانت يا يزيد أرأيت صاحبك ؟

قال : لو مرّ بي صاحبي وحدّق اليّ بعينين ترسلان لهيب النار لما عرفته ، اني كما تعلم يامولاي لم أر له وجهاً من قبل ولم يوصف لي

– اذن يدلك عليه صفوان .

– او عبد الله ..

فهاجت براكين الحقد في صدر المرأة .. وكادت قربة الماء تقع على الارض.. ولكنها لم تعلم من هو يزيد ومن هو صاحبه الذي يبحث عنه .. وكانت تتلفت ذعراً وخوفاً من عبد الله . ان عبد الله وحده ، يستطيع ان يعلم ان المرأة السوداء المحجبة هي جبير بن عبادة .. ثم سمعت زياداً يقول :

ألم يوصف لك الرجل يا يزيد ؟

وعيناه تلمعان ببريق الحب

فقالت له : أتعود غداً ؟

قال : لا أستطيع ان أعدك بهذا فأنا لا أعلم الآن ماذا افعل .

قالت : لي كلمة أقولها لك قبل ان تنصرف .

– ما هي ؟

– أستحلفك بتربة كلاب بن مرة ألا تفعل شيئاً قبل أن تستشيرني فيه أتعدني بذلك ؟

– ولكن هنالك أشياء كثيرة لا يستشير فيها المرء غير نفسه ..

قالت : انك تعلم ماذا اعني فلا تبخل عليّ بوعدك

– لقد وعدت .

– أتقسم لي ؟

– أقسم بهذا الجبين الوضاح والعينين الساحرتين أني سأفعل.

فأرسلت نظرها الى خارج القاعة ، الى الكعبة ، ومدت يدها الى الامام وهي تقول

وانا اسأل هبل وجميع آلهة البيت ان يجعلوك سيد العرب ..

وعندئذٍ ، رأى قصي دمع حبيبته يسقط على الخدين ، فقال لها : أتبكين ؟

فمسحت دموعها ولم تجب

قال : أيكون هذا الموقف موقف بكاء ؟

– بل موقف فرح وهذه دموع الغبطة والهناء .

فخرج وهو يلتفت الى الوراء ..

* * *

عندما خرج بن كعب من قصر كبير الأمراء كان صفوان ويزيد يتمشيان أمام الفناء .

فقال لهما : لم يقم في ذهني قط اني سأراكما الآن .

فاجابه صفوان قائلاً : اذا كنا حراساً فنحن لا ننصرف قبل ان يعود الأمير

– لا يا مولاي وانا اخشى ان يموت ثأري ان لم يساعدني صفوان وعبد الله في البحث عن القاتل .

فقال : صفه ياصفوان .

قال : سأفعل بعد حين يا مولاي .

– اما انا فأصفه الآن ، اسمع يابزيد ، ان صاحبك فتىً ربعة يكاد يكون رأسه قطعة من صدره ..

فضحك قائلا : أليس له عنق ؟

– ولعلك تستطيع ان تعرفه من مشيه ..

– كأنه لا يمشي كما يمشي جميع الناس !

قال: اذا مشى، مشى بكليته حتى ليخيل اليك ان يداً خفية ترفعه ثم تخفضه.

فوقف جبير يصلح قربته .. وقد عرف ان زياداً يعنيه في ذلك الوصف .

وجعل يعرض حوادث ماضيه ، وهو يضطرب اضطراباً شديداً كاد يفضحه لولا ذلك الحجاب .

قاتل وثائر . كلمتان هائلتان تبعثان الرعب .. ولكنه لم يكن قاتلاً وليس في الحجاز كله من يطلبه بدم ..

نعم،له عدو هو زياد ، غير ان ذلك العداء لم يسبقه قتل ، ولم تهرق من اجله الدماء . فمن هو ذلك الرجل الذي يمشي بكليته وليس له عنق ان لم يكن هو !

ثم خطر له خاطر هلع له فؤاده،ان ربيعة بن سلول الذي اغمد ابوه خنجره في صدره ، له في الشام ولدان اثنان قد يكون يزيد احدهما .. وقد قدم الحجاز يطالب بدم ابيه .. وخاف عندئذٍ ان يفقد رشده .

فوضع قربته في ظل شجرة وجلس بالقرب منها يفكر في امره .. ثم رأى ان يعود الى الوادي ليقص حكايته على عدوان مسترشداً برأيه في ذلك الأمر ، وكان عليه ان يمضي فيما بدأ به ، ويستمر ماشياً وراء الثلاثة حتى يصلوا الى قصر زياد ، فيسمع كل شيء ، لكن الذعر استولى عليه فلم يجسر على المضي ..

وقام فتناول قربته وهمّ بالرجوع ، فرأى عدوان .

فأومأ اليه بان يتبعه ثم تقدمه واليمني يمشي وراءه متثاقلا حتى جاوز الكعبة وانحدرا في طريق الوادي ، فاذا عدوان يهامسه قائلا :

أرأيت زياداً وصفوان !

فتمتم يقول وصوته يضطرب : رأيتهما .

– وذلك الفتى الغريب ؟

– رأيته ايضاً ولم أعلم من هو وقد عدت الآن لأسألك عنه .. أتعرفه ؟

- انه من اهل الشام وانا لا اعرف فيها أحداً .

– يكفي ان يكون من الشام لنخافه نحن الاثنين ..

– أجننت يا جبير ؟

– بيني وبين الجنون خطوة واحدة .

– لماذا ؟

– لأن هذا الشامي يحمل بيده خنجراً حاداً يلمع على شفرته الموت .

– وأي عربي لا يضع السلاح في حزامه ؟

قال : ليس كل عربي ثائراً .

– ومن قال لك ان هذا الغريب من الثائرين ؟

- اصبر فسأحدثك بكل ما سمعت ..

قال : ابدأ الآن .

- لا ، فللأشجار آذان .. وانا خائف ..

– ويكاد هذا الخوف يقضي عليك . كما أرى .

فتنهد جبير وأعطاه قربة الماء قائلا :

احمل هذه فقد كادت تفضحني ولا تقل كلمة حتى نصبح داخل الخيمة .

فاخذها عدوان ومشى مسرعاً وعيناه تنظران الى الأرض ، وجبير – المرأة الأخرى – يتبعه من بعيد حتى وصلا .

* * *

ماذا جرى لك يا مولاي ، انك تذكر الثأر والخنجر كأنك في حـــلم أفلا تقص عليّ الآن ما رأيت ؟

فأجابه جبير قائلا : اما الذي رأيته انا فقد رأيته انت ، ولكن أعيد عليك ما سمعت .

– اذن فقص علي ما سمعت ..

قال : عندما خرج زياد من قصر خليل كان صفوان والرجل الآخر ينتظرانه خارج الفناء .

– نعم .

– فسأله صفوان قائلا : أرأيت قصياً ، قال رأيته وحدثته فهو من احسن النـــاس ..

– نعم ..

– والآن اسألك يا عدوان عن قصي هذا أهو أخو زهرة بن كلاب الذي رافقه صفوان الى يثرب ؟

– نعم ثم ماذا ؟

– ثم سمعت زياداً يسأل ذلك الغريب ، واسمه يزيد ، اذا كان رأى صاحبه فقال : أخشى ان لا أراه لأني لا اعرفه ولم يوصف لي ..

– وبعد ذلك .

– ذكر الغريب ثأره وجعل ابن كعب يصف له صاحبه فاذا ذلك الصاحب جبير بن عبادة ..

– انت ؟!

– نعم انا .

– وهل ذكروا اسمك ؟

– لا ، ولكن لو قيل لك ، وانت اعرف الناس بي ، ان تصفني لما وصفتني بغير ما قاله زياد .

فاطرق عدوان ملياً ويده على جبينه ..

فقال جبير : اما الآن فقد جــاء دورك في الجنون .. لقد اردت ان اقص عليك حلمي ففعلت ، وهو حلم رائع كما ترى ، افلم تكن قط في ماضيك مفسراً للاحـلام ؟

قال: لم افهم الى الآن ما الذي يدعوك الى الخوف من حلمك ، انهم لم يذكروا القتيل وقاتله ولم يسمّوا أحداً ..

– وذلك الوصف الذي سمعت ؟

قال : أليس في الحجاز فتىً ربعة قصير العنق غير جبير بن عبادة ؟ انهـــا اوصاف نراها كل يوم ..

قال : مــا فسر يوسف بن يعقوب الذي اشتراه اجدادنا الاسماعيليون احلام فرعون احسن من تفسيرك .. انك نابغة في كل شيء ايها اليمني .

قال : اتسخر بي يا مولاي ؟

– وكيف لا افعل وانت القصير النظر الذي يذكر حاضره وينسى ماضيه ؟ الا تعلم اني قاتل وان يدي مضرجتان بالدم ؟

فنظر اليه مستغرباً ولم يجب .

قال : أنسيت تلك الضربة التي ضربها عبادة في البحرين ؟

فأفاق عدوان من ذهوله وهو يتمتم قائلا :

ربيعة بن سلول ؟

– نعم ربيعة بن سلول لا سواه ، ذلك الذي اغمـــد ابي خنجره بين اضلاعه في ظلام الليل .

– واي شأن لربيعة الآن ؟

– يخيل اليّ ان دم ربيعة هو صاحب الشأن الآن ايها الابله ..

– ومع ذلك لا افهم .

قال : مات ربيعة ولم يطالب احدهم بدمه اتعرف لماذا ؟

– لأن الموت حــال بين ربيعة وبين الثأر ولأن ولدي ربيعة المقيمين بالشام

نسيا دم ابيهما القتيل .

قـــال : لقد عادت اليك الذاكرة الآن ، واما ذلك النسيان الذي تذكر . فلست مصيباً فيه .

ودبت قشعريرة الخوف في عروقه وهو يقول: نفسى تحدثني بان ذلك الغريب الذي يدعونه يزيد هو احد الولدين وقد جـاء يحمل خنجره تحت ثيـابه والحقد يغلي في صدره .. فماذا تقول الآن ؟

فاصفر وجه اليمني وجعل ينظر الى الفضاء. ثم قال : اتراه يثأر بأبيه منك.

– نعم والعربي لا يموت ثأره كما تعلم . ان سلالة القتيـل تتبع سلالة القـاتل حتى تأخذ دماً بدم .

– ولكني لا اعلم اية صلة بين هذا الفتى وبين زياد بن كعب حتى يجيء من الشام فينضم اليه .

قال : اظن ان صفوان رآه في يثرب فتعارفا .

– والآن ؟

– امـــا الآن فأرجو ان يكون لك رأي ، أترى الموت يكمن لك في مكة وتظل ساكتاً ؟

قال : نسأل أولاً عن الرجل ثم ننظر في امره .

– واذا ثبت لك انه ابن ربيعة ؟

فحدّق اليه قائلا : نستعين بخنجر يشبه خنجر ابيك وينتهي كل شيء .

– ولكنه جار زياد ..

– بل جار صفوان بن الحارث ونحن لا نعبأ بالاثنين ..

– اعمد الى الجلاء يا عدوان .

قال : أليس الاثنان عدوين لنا ؟

– نعم .

– فليبقيا على عدائهما ونحن نبقى ثم نرى .

– ولكن الاعداء كثروا حولنا وانا قد مللت حياة الاستخفاء ..

- ومع ذلك فلا نجد الآن خيراً من الصبر .

قال : سأخلع هذا الثوب الذي ألبسه وكن انت وحدك من الصابرين .

قال : اذا فعلت افضى الامر الى الموت .

- وهل ينقضي العمر كله ووجهي وراء حجاب وانا اثني عطفي في المشي كما تفعل النساء ؟

- ألم تقل الآن ان اعداءك كثيرون ؟

- واذا قلت ؟

- اذا كثرت اعداء الرجل عمد الى الحذر والحكمة ليخرج ظافراً والا فقد تعمد قتل نفسه .

قال : ستقتلني بمثل هذه النصائح التي لا تثمر .

قال : انك تريد قتل زياد قبل كل شيء أليس كذلك ؟

- نعم ولا يهدأ هذا القلب الا اذا رأيته مصبوغاً بالدماء .

- ثم تعمد الى قتل صفوان قبل ان تنضم ليلى اليه .

- اجل وفي قتله تبريد الغليل .

- ثم يجيء بعد ذلك كله دور ضيفنا يزيد .

- اما هذا فلا نعمد الى قتله الا اذا كان يزيد بن ربيعة كما ذكرت والا فأي غرض لنا به ، ثم قال : ولماذا تذكرهم الآن ؟

- اعدّ ضحاياك يا مولاي . ثم أدعوك الى الوثوق بعبدك الذي يعرف كيف يصرع اعداءك .

- ولكن متى يكون ذلك ؟

- لا أعلم ففي الصبر بلوغ الغاية كما قلت والآن أنصح لك بالبقاء في هـذا المضرب بضعة ايام لا تخرج منه الى مكة ولو خربت الكعبة .

قال : تلك نصيحة مجنون لا اسمعها .

- بل نصيحة عاقل يعلم من امور دنياه ما لا تعلم ويرجو ان تسمع له .

- وانا ارجو ان تقول لي متى كان العاشق المفتون يتخفى داخل الخباء كما

تتخفى العذراء ..

– عندما تحدق الى هذا العاشق العيون ، ان القوم يسألون عنـك الار.. والسماء ، وسيرسلون عبدالله غداً ليطوف في مكة وحولهـا باحثاً عن جبير . عبادة . ثم أراك تذكر الغرام كأنك لم تنسَ ليلى . أتعود الى ذكرها يا مولا. وهي لا تريد ان تنظر اليك ؟

قال : في قلبي عاطفتان : عاطفة حب يملك عليّ قواي ، وعاطفة حقـد ، يزول حتى أرى ذلك الامير المتكبر تحت قدمي ، وقد ينتهي هذا الحقد بالفو. على الحب فأنسى غرامي وانصرف الى الانتقام ليس غير .

– اذن تعمد الى شيء آخر نضمن فيه عاطفتك الاخرى أتدري ما هو !

- لا .

– نلجأ الى الخنجر ، حتى اذا انتهى الأمر عمدنا الى اظهار الحب من جديـ..

فقهقه ضاحكاً وهو يقول :

أنقتل زياداً ثم نسأل ليلى ان تستسلم الى الهوى ؟

قال : لقد صرعك الغرام يا مولاي فنسيت كل شيء .

– نسيت ماذا ؟

قال : ان الذي يقتل امير صوفة ، هو صفوان بن الحارث لا سواه .. فاذ.. العمامة واكتف بما سمعت ..

فوضع يده على جبينه وقال : لقد ذكرت الآن .

– واذكر انك ستمكث هنا الى ان يصفو الجو .

– وانت تسأل عن يزيد كما وعدت .

– لم يبق من حاجة الى السؤال فالقوم يستعينون بالكتمان ، وانا واثق بـ.. الفتى لم يقدم مكة الا ليظهر لك الاخلاص والوفاء ..

قال : ومن يرعى هذه الناقة في البقعة الحمراء ؟

– انا ..

– وتسمع احاديث حبى وليلى ؟

– نعم وانقلها اليك لترى فيهـــا رأيك .. والآن فانا راجع فأعد طعامك بيدك ، اني قد لا اعود قبل غروب الشمس .

وسدل حجابه ولم يخرج الى الوادي حتى امسى عجوزاً حدباء ..

* * *

ظـــلّ الثلاثة يتحدثون حتى وصلوا الى المنزل ، فدخل زياد غرفة ابيه واغلق الباب .

اما صفوان ويزيد فجلسا في الرواق مع ليلى وعبدالله .

وكان امير صوفة يقول لأبيه : جئت لأنقل اليك ما سمعت في قصر حليل .

قال : لماذا دعاك اليه ؟

– لأرى ذلك الكناني القادم من يثرب .

– ابن كلاب ؟

– نعم يا مولاي .

قال : ايدعو سادن الكعبة امراء مكة الى مثل هذا ؟

– ذلك ما اردته يا مولاي وقد سألت حاجب البيت من قبل ان يدعوني لأرى قصياً ..

– وماذا رأيت ؟

– رأيت فكراً ثاقباً ، وجناناً ثابتـاً ، وقلباً جريئاً ، بل رأيت فتىً يسود مجلسه الوقار وترتسم على جبينه دلائل العز .

– وحديثه ؟

قال : اذا تحركت شفتاه خرجت من بينهما الخلابة .

– اذن عدت وانت تحبه .

– بل انا معجب به وليس في اعجابي شيء من الحب .

– ذلك غريب يا بني ..

– واغرب منه اني اكره الفتى ولا اطيق ان اراه .

قال : الا تقص عليّ ما سمعت ؟

– بلى ولاجل هذا دخلت عليك الآن ، ان الامر سينتهي لحاجب البيت ال
الاستسلام والخضوع لهذا الكناني ..

فابتسم قائلا : اهذا يمليه عليك بغضك ؟

– هذا ما املته عليّ مظاهر حليل ، لقد خيل اليّ يا مولاي ان امير الامر
عبد من عبيد قصي او جندي من جنوده الذين يعدهم للحرب من وراء الستار
يتكلم قصي فيصغي الامير اليه ، ويبتسم فيبتسم واذا بانت آثار الغضب عـلى
جبين الفتى قطب الآخر حاجبيه كأن للاثنين شعوراً واحداً ونفساً واحدة .

قال : سننظر في هذا بعد ان تحدثني بما جرى .

– ومـــاذا جرى ؟.. لقد كنت نبياً عندما قلت ان حبى ستمسي زوجه
لابن كلاب .

– وهل اظهر حليل رغبته في ذلك .

– لقد اظهر تلك الرغبة بالامس وهـو يتكلف المزاح ، وستعلم يامولاي ان
كنت ايضاً من الأنبياء حينما قلت لك ولعبد الله ان هــذا الزواج سيفضي ال
الاستيلاء على مفاتيح الكعبة ، وجلوس قصي في عرش امارة الحجاز .

قال : أتبني ما تقوله على الظنون بازدياد ؟

– بل ابنيه على ما رأيت من دلائل الرغبة . واني اعيد الآن ما قلته لك م
قبل ان مكة ستغرق في بحر من الدماء بعـــد ان يصبح الكناني صهراً لحاجب
البيت .

فابتسم الشيخ ابتسامة الهزء.

فقال : خذ قضية الأدرع مثلا يامولاي ، ألم يكن اولى بابن كلاب ان يعطي
قومه بعض الثياب يسترون بها اجسامهم بدلاً من ان يعطيهم سلاحاً يحاربون به
اعداءه ؟

– وهل سألته عن هذا ؟

– اجل ، وخفت ان يكون رسول احد الملوك الطامعين بالفتح فسألته عن
ذلك ايضاً ..

– وبماذا اجاب ؟

– اما عن هذا فقال : ان الحجازي لا يخون وطنه ، واما الأدرع فقد اراد ان يقنعني بان العربي يؤثر الدرع على ثوب الديباج والسيف على زنابيل من التمر.

– والصواب فيما قال .

– نعم لو كان ظاهر الأمر يدل على باطنه ، ولكنه اراد ان يجود بدروعه ليهيء قومه للحرب والناس غافلون عنه . اسمع ما قال وهو يهزأ بظنوني ، قال سأفاجيء مكة برجال الشعاب في ساعة لا يعلمها أحد فأنحي سادن الكعبة عن كرسيه وأستولي على الامارات الواحدة تلو الاخرى فيصبح الحجاز كله بمن فيه من عشائر ورجال ملكاً لي لا ينازعني اياه عربي !...

– وقد صدّق زياد بن كعب امير صوفة هذا القول ؟

– نعم يا ابي ، نعم هذا ما نراه بعد حين ، ان خزاعة ستعتزل حجابة البيت بقوة السيف . وبقوة السيف يستولي اهل الحجاز على المناصب ، ويمسي أمـــر الحجاز في ايديهم كأن خزاعة لم تكن ولم تخلف بني جرهم في السيادة ثلاثـــة اجيال ...

– اي انهم يطردوننا من مكة ونحن مستسلمون لا يرتفع لنا صوت ؟

قال : ان هنالك ما هو اقبح من الاستسلام ..

ماذا ؟

قال : ليس لنـــا كلمة ولا يجمعنا رأي .. انـّا متفرقون مختلفوا لاغراض في ايام الشدة ، متفقون في ايام الرخاء . وكأن الزمان بعد الاجيال الثلاثة ،يتحفز للوثوب ليقذف بنا الى بوادي العرب ، او ليعيد خزاعة ، مغلوبة ذليلة ، الى البلد الذي خرجت منه .

قال . اراك تتحدث بهذا كأنك ترى صفوف الجنود

– اقسم برب الكعبة اني اراها .. كما اني ارى سادن الكعبة نفسه لا يعبأ الا بتزويج ابنته والعثور على صهر يحفظ الحجابة لحبى بعد موته .

– اذن لم يبق الا ّ ان تشهر السيف على الفتى الذي تخشاه ، وتجاهر سادن

الكعبة بالعداوة اذا انتصر له ..
– لا أشهر الآن سيفاً ولكن اتهيأ للدفاع
قال : لقد جـــاء دوري الان يازياد .. هب ان قصياً امسى زوجاً لحبى
ورضيت خزاعة بهذا الزاوج فماذا تفعل ؟
– اسكت ولكن على غلّ .
– ولنفرض ان امير الكعبة اعتزل سدانته لابن كـــلاب وكانت خزاعه
راضية فأي شأن لك .
– ان خزاعة لا ترضى .
قال : افترض اذن ما تشاء . أتقول انها تخالف ابن حبشية في رأيه ؟
– نعم وتخرج ايضاً عن طاعته .
– وماذا يحدث بعد ذلك ؟
– يحدث واحد من امرين ، اما ان يحمل ابن كلاب زوجته واشياءه ويعود
الى الشام ، واما ان يثبت في المجال فتستعر النار .
قال : خير له ان ينهار الحجاز ويهوي الى جوف الارض من ان يفر مـــن
الميدان ، وبنو كنانة حوله ، كما يفر الجبان .
ثم قال : ولنفرض ايضاً ان قصياً خانه الحظ وداسته الاقدام اترى كبير
خزاعة يوليك امر البيت ؟
– لا
– ومن يختار لها اذا اصر على الاعتزال ؟
– رجلاً من قومه .
– ولكن ماذا يكون لك انت يا زياد بن كعب ؟
– تبقى لي الامارة وهذا يكفي .
– لقد خيل اليّ انك طامع بالحجابة وانك تبغض الكناني لتنحيه عنها .
– ذلك لم يخطر لي يا مولاي .
– اذن رأيت لك رأيا ارجو ان تصغي اليه

قال : لم يعص زياد كعباً قبل اليوم .

قال : رايت ان تظل على الحياد فتبقى لـك الامارة في الحالين وتحقن دماء قومك .

– ولكن قصياً لا يرضى .

– وكيف ذلك ؟

– اذا بلغ الرجل غايته واستوى جالساً في كرسي حليل ، عمد الى مناصب مكة فجعلها جميعها لأهله .

– بل يمد يـده ليصافح الامراء الذين لم يبارزوه . اتظن ان اهل الشعاب يسكتون عن ثأرهم وينسون عزهم خـاضعين للعدو الذي يذلهم في عقر دارهم؟ انك يا زياد تهدم ماضيكَ وحـاضرك بيدك ، وتبني بناء مستقبلك على ارض تغور في الاعماق عندما تعصف الريح .

قال : اتخوفني يا مولاي .

– بل انصح لك وانت الرجل الذي لا يخاف ، دع سادن الكعبة يفعل ما يشاء ، بل اقول لك غير ذلك ، اذا رأيته يمد يـده الى كناني فمدّ اليه يديك الاثنتين واسبقه الى خطب وده واعلم ان مكة وطنك وسيبقى نسلـك فيها الى الابد .

– ولكن اخشى ان امد هذه اليد فتقطع .

قـال: احسن الى الناس يحسنوا اليك وليس في العالم كله من يضع الشر في موضع المعروف الا الانذال . وبنو كنانة . ان بني كنانة يا بني اشراف العرب لماذا اظهرت لهم الحب اظهروا لك مثله ، لاترى منهم غير الاخلاص والوفاء .

قال : لقد قلت كلمتي يا مولاي وانتهي الامر .

وما هي هذه الكلمة ؟

– اقسمت لابن كلاب اني عدوه ..

فارتجفت شفتا ابي زياد وهو يقول :

في قصر حليل ؟

– اجل كان ذلك في قصر حليل منذ ساعة .

قال : سلمت انك تبغض الرجل ولا تعلم لماذا ولكن اية حكمة أوحت اليك بان تجاهر بهذا البغض ؟

قال : لو سألت نفسي مثل هذا السؤال لما سمعت جواباً .. قلت اني اظهر له العداء ثم تعاهدنا عليه وحليل حاضر وهذا كل ما في الأمر .

فتنهد الشيخ قائلاً :

اذا صحّ ان ابن كلاب سيتزوج ويطمع بعد ذلك بان يصير حاجباً للبيت فقد خلقت حرباً لا يغمد فيها السيف ..

– ومع ذلك فقد فعلت الآن ..

– نعم ولا حيلة لنـــا في رد مــا مضى الا اذا نسيت بغضك وعمــدت الى الاعتذار ..

– أنعتذر يامولاي لرجل لاشأن له ولا تعرفه ؟..

قال: اذا استطاع الرجل الذي لاشأن له ان يصبح بين ليــلة وضحاها صهراً لأعظم امراء الحجاز فهو الرجل الذي يخشى جانبه ..

قال : هب انه تبّع ابو كرب فانا لا أعتذر له .

– وانا لاأسألك ان تفعل بعد الآن . غير اني ادعوك الى السكوت والنظر في امر العشيرة ليس غــير ريثما يتم هذا الزواج الذي تفكر فيه ويصعد قصي الى العرش .. أتعدني بهذا ؟

فتردد قليلاً ثم قال :

اعد بأني لا أكون البادىء بقتاله .. ثم اصفر جبينه وارتجفت شفتاه وجعل يتراجع الى الوراء وهو يقول : ويل زياد بن كعب فقد حنث في يمينه ..

فذعر الشيخ وقال : وما هذه اليمين يازياد ؟

– لقد حلف اني سأكتم جميع الناس ما جرى بيني وبين قصي في قصر سادن الكعبة . وهكذا حلف ابن كلاب ...

واخفى وجهه بين يديه كأنه طفل يهمّ بالبكاء ..

فقال : يا بني . أنسيت انك العربي النبيل الذي يفي بما يعد ؟!!
فرفع رأسه قائلاً : لم انس ذلك بل اصبت بالذهول فلم اذكر يميني الا ّ الآن .
ـ اذن لم تكن مختاراً فيما بحت به ؟
ـ لا بل كنت ذاهلاً كما قلت .
فأراد ابو زياد ان يفرّج كربة ذلك الولد الشريف الذي صغر في عينيّ نفسه فقال له :

ان الشرف لم يمسّ يابني ، لقد ذكرت لأبيك ما وعدت بكتمانه وكنت ناسياً فكأنك لم تحنث في قسمك ولم تقـل شيئاً وابوك يعدك بانه لا يبوح بكلمة ممـا سمع ..
فنظر اليه وهو ساكت ..
فقال : ومع ذلك فالولد البار لا يكتم اباه أسراره ولا يخفي عنه اغراضه .
وهل لك ما تقوله بعد ؟
قال :لي كلمة واحدة .
ـ قل يا بنيّ .
ـ أسألك يامولاي ان تغفر لي .
فلمع الدمع في عيني الشيخ واستدناه اليه فضمه الى صدره وهو يقول :
أأغفر لك ذنباً لا وجود له ؟
ـ اما انا فاعترف اني مذنب وأرجو ان اسمع كلمة الغفران ..
فوضع يده على رأسه قائـــلاً : اباركك واغفر لك ، وكأنه أراد ان ينسيه ذلك الذنب فقال :
ماذا فعل يزيد بن ربيعة ؟
ـ لم يفعل شيئاً ، ان القوم يبحثون في مكة ، عن رجل ليس له فيها أثر ..
ـ ولكن سودة الكاهنة تقول غير ذلك .
ـ لتقل ما تشاء فلو كان ابن عبادة في مكة لما استطاع ان يحتجب عـــن العيون

قال : وصفوان واثق بانه فيها ؟

– نعم وذلك لأنه لم يره في يثرب ، فقام في ذهنه انه هنا وسيجده كما يقول وجعل يتفرس في أبيه كأن في صدره سراً آخر يريد ان يبوح به ويستشير فيه . وطال سكوته .. فقال ابوه : أخرج الآن فاجلس مع ضيفك ..

قال . ولكن سأحدثك بأمر احدهما قبل ان انصرف.

فأستوى ابو زياد في مجلسه ليسمع الحديث الجديد ...

* * *

أليس لك رأي في صفوان بن الحارث يا مولاي ؟

قال : لقد سمعت رأيي فيه من قبل فقد حدّثنا عبدالله بشأنه وذكرت ما اعرفه عن أبيه ..

– ولكن هنالك شيئاً آخر الآن ..

– وانا قد عرفت هذا الشيء الذي تعنيه أليس هو الزواج ؟

– بلى .

– وهل طلب الفتى يد ليلى ؟

– لم يذكر لي شيئاً من ذلك .

– وبماذا نتحدث اذن .

قال : ان لم يطلب ليلى اليوم فعل غداً ،وعلينا ان ننظر في الأمر قبل طلبه

قال : يظهر انك ستصبح من الكهان بعد قليل .

– وكيف ذلك ؟

– لأنك تقرأ حوادث الزمان قبل ان تقع .

قال : والحكيم يرى المقدمات فيبني عليها النتائج ..

– وماذا رأيت من صفوان ؟

– رأيت غراماً تتأجج ناره في الصدر وتبدو مظاهره في العينين .

– وهل سألت ليلى عن هذا ؟

– ولماذا أسألها وانا اكاد المس هواها بيديّ .

– اذن فكلاهما يحب الآخر ولا يستطيع ان يخفي لواعج الحبّ
– اجل سيفضي الأمر على ما أرى الى طلب الزواج .
– اذا كان هذا فأنا راضٍ بصفوان كما قلت سابقاً لعبد الله .. وانت يازياد ؟
قال : كلما تراه حسناً فهو حسن ..
– غير ان هذا وحده لايكفي . !
– وهل بقي شيء ؟
– بقي ان صفوان كناني وهو ابن عمّ قصي ..
– فليكن يهودياً فأنا لا أعبأ الا بالخلق الكريم .
– ولكن أردت غير هذا يابني . ألم تقل الآن انك لا تضع يدك بيد قصي بن كلاب ؟
– بلى
– وان البغض الذي تحسّه قد ينتهي بالحرب ؟
– بلى .
– فقل لي الآن أيترك صفوان بن الحارث قومه لينضمّ اليك ؟
قال : لم افهم شيئاً مما تقول يا مولاي .
قال : هب ان ليلى امست زوجة صفوان .
– نعم .
– وان قصياً صهر حاجب البيت . جرّد سيفه بعد عام على امراء مكة يسلبهم ما يملكون ..
– ثم ماذا ؟
– وقام صفوان الى جانب ابن عمه يدعو أعداءه ، وانت منهم الى القتال ماذا تصنع عندئذٍ ؟
– اجرّد بدوري السيف وامشي في الطليعة .
– وليلى ؟
– وأي شأن لليلى .

– أتحارب زوجها وقد تقتله ثم تقول اي شأن لها !
– وهل يمنعني هذا الزواج من الدفاع عن عشيرتي والوقوف في وجه عدوي
– اذا أردت ان تقذف بليلى الى هوة اليأس . فلا يمنعك من ذلك شيء ، ا
الرجل يزوج ابنته لكي تهنأ بهذا الزواج ، امـــا انت فكأنك تدفعها بيدك ا
عدوك ولا تبالي .
قال : اما صفوان فهو منقذ حياتي ولا يسعني الا الاعتراف بجميله ..
– اجل وسيكون هذا الاعتراف بالجميل حرباً !!
قال : يقضي عليّ الوفاء بأن اعطي صفوان ما يشاء . فاذا فعلت فقد قابل
معروفاً بمعروف . ولم يبق الا ان يحفظ كلانا الولاء لصاحبه حتى تقوم الساعة
– وأنا اخالفك في هذا ، فإمـــا ان تجعل الفتى ولداً لك وتمهد له اسباب
العيش ، واما ان تجزيه على احسانه ولينصرف .. الا اذا هان عليك ان تزوج
ليلى اليوم ثم يطلقها صفوان غداً فذلك شيء آخر .
– وماذا نفعل اذن ؟
– لقد رأيت لك رأياً .
– ما هو ؟
– اذا حدثك صفوان بامر الزواج فاستمهله ريثما تبلغ ليلى الثـــامنة عشرة
من العمر ..
– اي بعد سنتين وبضعة أشهر ؟
– نعم .
– وما هي الغاية من ذلك ؟
– الغاية منه ان قصياً في خلال السنتين المذكورتين يستقر على حـــال فاذا
تزوج حبى وطمحت نفسه الى السلطان بعد ذلك ظهرت بمظهر العربي الحر الذي
يدافع عن قومه قبل ان يصبح صفوان صهراً لك ..
– واذا لم يشأ الفتى ان يصبر ؟
– استعنا بليلى وعبدالله على حمله على الصبر ..

– ولكن ينبغي ان لا ترد للفتى طلباً مهما يكن هذا الطلب ..
قال : اختر لك واحداً من امرين ، اما ان تستمهله كما قلت واما ان تزوجه .
فرأى زياد ان ينهي حديثه بقوله :
عندما يطلب ، ليلى ، اسأله ان يوجه طلبه اليك ولك ان تجيب عندئذٍ بما تراه ، على رجاء ان يبقى واثقاً باننا نحن الاثنين لا ننسى المعروف .

وخرج زياد وجلس بين الفتيين ..

وكان عبدالله يقص على يزيد ماضي جبير وحاضره وصفوان يقص على ليلى ما يعانيه من هوى مبرح دون ان تنفرج شفتاه ..
اجل . كان يقص عليها كل ذلك بنظراته التي هي ابلغ من الكلام ..

* * *

مرّ شهران كما يمر خيال الطائر والحب تستعر ناره في القلوب، غير ان صفوان لم يبح لزياد بغرامه ولم يذكر له رغبته في الزواج .

ان نفسه الكبيرة كانت تمنعه من ذكر تلك الرغبة ، خوفاً من ان يقول زياد في سره .. لقد تعجل صفوان بن الحارث في طلب الجزاء.. وهو يرى ان يخطب ليلى ، بعد رجوعه من الشام.ولولا إباء ليلى وعزتها لجثت على قدمي ذلك الحبيب واستعجلته في قضاء هذا الامر ..

وكان قصي يزور حبى مرتين او ثلاثاً كل ثمانية ايام ، ولم يقل لصفوان كلمة من حبه كما علمت ، كما انه لم يذكر زياداً امامه بسوء ..

اما يزيد فكان يقضي معظم ايامه في جوار الكعبة ، ثم يطوف في مكة مع عبدالله يفتشان عن القاتل وهما لا يجدان له أثراً ، وكيف يعلم عبدالله بل كيف يخطر له ان جبير بن عبادة ومولاه عدوان اليمني امسيـــا عجوزين ترعيان في الجبال ناقة جرباء ..

حتى عرف اهل مكة ان كنانة سترحل رحلة الصيف وان القوم يتأهبون

ويتهيأون للرحيل ، فنزلت ليلى عندئذ عن عزها ، ولم تستطع الا ان تقرأ ما في صدر صفوان قبل ان تفصله عنها حادثات الزمان ..

* * *

متى ترحل مع القوم ايها الحبيب ؟

– بعد ستة ايام يا ليلى ثم تحول بيننا السهول والجبال فلا يرى احدنا الآخر الا في الحلم ..

فكفكفت دموعها وهي تقول : ثم لا تعلم متى تعود ..

– لا . فانا لم ارحل قبل هذه المرة مع القوم ، ولا ادري متى تنتهي مهمتهم في بصرى ..

– بل مهمة قصي بن كلاب الذي اصبحت رفيقاً له ..

– اجل فالامر كما تقولين وقد اقسمت ان أطيع قصياً في جميع ما يأمرني به .

ثم قال : من عادة قومنا انهم يعودون الى مكة في اواخر الصيف ليتهيأوا لرحلة الشتاء الى اليمن .

قالت : أتحبني كما تقول يا صفوان ؟

فاستغرب الفتى ذلك السؤال توجهه اليه ليلى وهي اعلم الناس بانه يكاد يذوب حباً .. وجعل ينظر اليها وهو ساكت .

فقالت : اريد ان اسمع جوابك .

– اتسألينني عن الحب وانت تلمسينه في كل نظرة ومظهر وفي كل حديث ؟.

– نعم ولي بذلك غرض .

فاجابها بهدوء قائلاً : احببتك حباً لا ينطبق صدر على أعظم منه .

– وكيف ينتهي هذا الحب ؟

– كما ينتهي كل حب بين قلبين متحدين ..

قالت : ما رأيت على ذلك دليلاً يا صفوان ، أتعترف بانك تحبني وانت لا تبوح لأبي بحبك ولا تخطبني اليه ؟

فابتسم قائلاً : سأفعل ايتها الحبيبة فانا لا افكر الا في هذا .

ـ اليوم ؟

فتردد قليلاً ثم قال : وما ذا أفعل اليوم وانا اترك مكة بعد بضعة ايام ؟

فعادت الى ذرف الدموع .

فقال : ليلى ، أتنقضي هذه الايام الباقية بالكآبة والبكاء ؟ اني سأفعل مـــا تشائين بعد رجوعي .

ولكني لا اصدق انك تستطيع ذلك .

ـ لمـــاذا ؟

ـ لأنه لا تنتهي رحلة الصيف حتى تبدأ رحلة الشتاء . وعندما يوميء اليك العصي بان تتبعه تترك ليلى وتنسى هواك لتلحق به ..

قال : اقسم برب الكعبة انه لا يفصلني عنك الا الموت .

ـ اذن فمـــا الذي يدعوك الى التردد في الخطبة وابي كما عرفت يبذل لك كل شيء ؟..

ـ يدعوني الى ذلك امر لم اذكره لك من قبل .

ـ والآن ؟

ـ اما الآن فقد اكرهتني الاقدار على ذكره . الا تعلمين ان أباك اراد ان يجزيني على ما فعلت .

ـ بلى ولكنك لم ترض .

ـ والى الآن وانا ارفض هذا الجزاء ، ثم فاجأني الحب فاستسلمت اليه ولا هناء لي الا به ، بل لا يكتمل هنائي الا عندمـــا تصبحين زوجتي وسيدة بيتي ، ومع ذلك ...

ـ : ومع ذلك فيدك لم تمتد الى يدي ولم تطلبني من ابي وانا بين ذلك الحب وهذا التردد سأضيع الأمل .

قال : لقد عرضت سيفي على ابيك وانا لا اعرف ليلى ولم أر لهـــا وجهـاً أليس كذلك ؟

ـ نعم .

– فاخشى ان يقول الآن في نفسه اني لم انتصر له الا لغـــاية هي الحصو[ل]
عــلى ابنته ..
– اذا كان هذا فالزواج لا يتم لأنه سيقول بعد رجوعك ما يقوله اليوم .
– اما اليوم فاذا ظن ظنونه فله عذره ، ولكن عندما يمرّ العام الاول [على]
هذا الحب تسكت الظنون .
– اي ان سوء الظن يزول بمرور الايام ..
قـــال : اريد ان أقول ان العام كاف لان يولد فيه الغرام ثم ينمو ثم ينتهي
بطلب الزواج ..
وكانا جالسين في الرواق الاخير،وابو زياد في حجرته، وزياد جالس لحاجا[ت]
العشيرة في القاعة الكبرى عند مدخل القصر.وعبدالله يروح في القصر ويجي[ء]
وعيناه تنظران الى العاشقين .. ولعله اراد ان يمد اصبعه في الامر ، فاقبل و[هو]
يبتسم قائلاً : لقد سمعت نغمة جديدة في صوت ليلى .
فاغتصبت ليلى ابتسامة قصيرة واجابته قائلة : هي نغمة الحب ايها اللعين !
– نعم ، وخيل الي ان فيها ما يشبه البكاء ..
وليلى وصفوان لا يكتمان عبدالله سراً من أسرار القلبين .. فقالت : بكـ[يت]
عندما ذكرت الفراق .
قال : واغرب ما في الامر ان صفوان يضحك .
فتمتمت الفاظاً لم يسمعها الاثنان .
اما هو فاستطرد قائلاً ولم يبالِ ، وانا اعلم اسباب هــذا الضحك اتريدين ا[ن]
تسمعي ؟
فقال صفوان : نسمع ..
قال : اني اخاطب ليلى يا مولاي ..
فقالت : هات .
قال : انك تفكرين في هذا الحبيب الذي برح بك هواه ثم تبكين، وهو يف[كر]
في امر آخر لا يحمله على البكاء ..

قالت : اذا اردت ان تقول فأوضح .

– : انه يفكر في افراسه ...

– ويطيب له ان يترك مكة ليبتعد عمن احب ؟

– نعم فالحب في صدره خمدت ناره ..

– ولكن كنت تقول أن صفوان خير المحبين .

– وهذا هو الذنب الذي اسألك ان تغفريه لي .

فظل صفوان ساكتاً وهو ارفع من ان يجيب .

فقالت : مارأيك يا صفوان فيما تسمع الآن ؟

– رأيي ان عبدالله اصيب بالجنون .

فقال عبدالله : وخير لك يا مولاي ان تصغي الى اقوال المجانين ألم تقل الآن ان مولاي زياداً يظن بك السوء ؟

– وهل تعرف هذا ايضاً ؟

– اعرف كل شيء لأني سمعت كل شيء .

– وبماذا تنصح لي ؟

– أنصح لك بأن تهجر ليلى قبل ان يصرعها الغرام .

– وأنا انصح لك بأن تكف عن هذا المزاح .

– فجلس قائلاً : أتضمن الزمان يا مولاي ؟

– من لا يستطيع ان يضمن نفسه لا يضمن شيئاً .

– اذن فمن يعلم ماذا يحدث لنا بعد ان ينقضي الصيف .

– انا اعلم . يجيئنا ملاك الموت فيخطف ارواحنا واحداً بعد واحد حتى لا يبقى لأحدنا ذكر . قل انت يا مولانا النبي مـاذا يحدث أتسقط السماء على الأرض ؟

– بل ترتفع الارض الى السماء .

– وعند ذلك نبلغ الجنة فنمكث فيها الى الابد . لقد قلت الآن ان الأمير سيجرح في تصوره ، هذه النفس التي لم تذل ، اتريد انت ان ترى بعينك هـذا

الذل فيخسر ابن الحارث شرفه ويموت من قهره؟

قال : انك يا مولاي اعظم من هذا في عيني زياد .

– لو كنت انا في مكان زياد لملأت الريبة نفسي ومع ذلك فما هو الغرض من الخطبة اليوم ؟

فالتفت عبدالله الى ليلى ثم قال : الغرض منها ان مولاتنا الاميرة لا تطيق الصبر ..

– بل الغرض منها ان تقوم الثقة بحبي في صدر ليلى. مقام هذا الشك اتظن ايتها الحبيبة ان ابن الحارث يخون عهده وينسى ليلاه ؟

قالت : اخاف جور الزمان .

قال : اذا كانت يد القدر قد كتبت لنا ان نشقى فلا بد لهذا الزمان من ان يجور ، والا فليس لنا ان نخشى جوراً لا وجود له .

ثم قال : وتلك الشهور التي سنقضيها في بصرى ليست دهراً، ان الحياة كلها تمرّ كما يمرّ البرق ، وسأعود لأبسط لك يدي فنعيش عمرنا كله تحت جناح الحب ، كما نعيش الآن .

قالت : اتطلب المال في الشام وقد وفر لك هذا المال في بلدك ؟

– ما كنت لأطلب شيئاً هو في يدي ، ولكني صرفت هذا العمر في مكة ولم أزر بعد بلداً من بلدان الروم ، ولا تنسي ان قصياً يريد ذلك كما قلت، ومتى أراد قصي امراً فقد اراده صفوان .

فقال عبدالله : واذا خطر لقصي ان يزوجك كنانية ؟

قال : يقوم في ذهني انك تريد اليوم ان تشعل النار . ان الزواج لا شأن لي به . واراد ان يداعبه فقال :

ان الامير بين رجال عشيرته وقد يحتاج اليك ألا تذهب .

– بلى وسأقص عليه حكايتنا من أولها ..

– وما هي حكايتك ؟

– حكاية السفر ، والخطبة ، وسوء الظن الى آخر الحديث ..

ـ أتفعلها يا عبدالله ؟

-- اي وربّ ..

فقاطعه قائلاً : لا تحلف انك اذا فعلت فقد جنيت على نفسك .

ـ وهل يطيب لك ان اكتم مولاي سراً يتعلق به ؟

ـ ستبوح لمولاك بجميع الاسرار عندما تأتي الساعة ، ثم الآن . ولكن لا .

فانت لا تنقل من هنا قدماً قبل ان تعاهدني على الكتمان .

فقالت ليلى : اذهب وانا اضمن سكوتك .

فانصرف وهو يقول في نفسه :

ما رأيت شبيهاً لهذا العاشق الكناني . تنتصر عزة نفسه على كل شيء حتى في مواقف الحب ..

وطال جلوس العاشقين ، وقد رضيت ليلى بان تكون الخطبة بعد رجوع القوم من رحلتهم ، غير انها كانت مضطربة خائفة ، وهي تعزو الخوف والاضطراب الى الفراق ، ولو لم يكن صفوان كبيراً في صبره ، لغسل يديّ ليلى بالدموع ..

* * *

- ٧ -

نعود فنكتب لك فصلاً صغيراً عن هؤلاء القضاعيين الذين لم يفكر قصي في رحلة الشام ، الاّ ليرى اخاه رزاحاً وهو منهم ، وقد مرّ ذكر القوم - ان كنت تذكر في الروايتين السابقتين ، الحارث الأكبر ، والنعمان الثالث ، عندما نقلنا اليك اسباب تفرق القبائل العربية في الأقطار ، ومع ذلك ، فالتبسط في البحث امر لا بد منه ، ولم تكن الراويات الخلاّبة التي نضعها غير تاريخ صحيح يستطيع القارىء الرجوع اليه .

اول من نزح من قبائل معد . بنو قضاعة . واما السبب في ذلك النزوح فحرب نشبت بينهم وبين بني ربيعة . لحادث فتاة تعشقها قضاعي من بني نهد ،

فدارت الدائرة بعد تلك الحرب على القضاعيين ولم يروا الا ان يهجروا بلادهم الى الأبد ، وينزلوا ربوع نجد ، وكثرت بطون قضاعة ، فتفرقت في جزيرة العرب ، في نجد كما قرأت ، وفي البحرين والعراق ومشارق الشام ، وهم ذوو بأس وشده ورجـــال صبر على المحن ، فما لبثوا حتى أنشأوا الدول ورفعوا أعلام النـفوذ والسلطان في الآفاق .

اجل . كان بنو قضاعة أقدم النازحين من عدنان ويدل ظاهر الحال ان نزوحهم كان حوالي الميلاد او قبله بقليل ، ولم ينزحوا في زمن واحد فأهــل البادية اذا كثروا مع الزمن وضاقت بهم الأرض . لجأوا الى مواضع يكثر فيها الماء والكلأ ، حتى اذا ضاقت بهم من جديد . عملوا الى هجرها طالبين رزقهم بالغزو وقوة السيف في موضع آخر على عادة العرب في البوادي ، وأنت ترى ، ان البطون التي جاورت البلد العامر ، بنت دولاً وفتحت مدناً ، وذلك الفريق الذي لم يترك البادية ضاعت اخباره وامحّى ذكره

ولكل فرع من فروعهم شأن خاص واخبار خاصة . تختلف هذه الشؤون والاخبار باختلاف البيئة والاقاليم ، غير ان السطور التي نكتبهـــا لا تتسع الا لذكر الفروع التي أنشأت الدول وكان لها في تلك العصور تأثيرها السياسي .

جهينة وبلى

من بطون قضاعة جهينة وبلى . منازل الاولى من حـدود رضوى والاشعر الى وادٍ بين نجد والبحر . ومنازل الثانية من تبوك الى جبال الشراة الى معان الى الداروم الى الجفار غرباً الى الفرما في حدود مصر .

ولم يكن للعشيرتين المذكورتين دولة وملوك . بـل كانت لهما بطولة الغزاه وقوة الفاتحين ، وهما الامم التي عناها ابن خلدون بقوله : « اجتاز منهم امم الى العدوة الغربية من البحر الأحمر وانتشروا بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هناك وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم وازالوا ملكهم وحـــاربوا الحبشه فأرهقوهم » .

ومثل ذلك ما كتبه اليونان من اخبار مصر في اوائل النصرانية ، فقد ذكر استرابون وبلينيوس ان العرب تكاثرت في ايامهم على العدوة الغربية من البحر الاحمر حتى شغلوا ما بينه وبين النيل في اعلى الصعيد . واصبح نصف سكان « فقط » منهم . وكانت لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر والنيل .

وبالغ اليونانيون في وصف خشونة العرب فقالوا :

« ان زعماءهم يدهنون وجوههم بالزنجفر كما يدهنون وجوه آلهتهم . وانهم يقاتلون للغزو لا للفتح حتى ضايقوا مصر واضطر الرومان ان يجعلوا الحامية عند شلال اصوان .

ويسمونهم عرب الاحباش ، وقالوا : كانت عليهم ملكة تدعى قنداقة . وقد تغيرت لغة الاثيوبيين وعبادتهم بنزول اولئك العرب فيها . فبعد ان كانت مصرية اصبحت عربية .

« راجع رواية الحارث الاكبر » .

تنوخ

وتنوخ فرع كبير من قضاعة ، ذكرته كتب اليونان باسم تانويت .

وذكر النسابون انه مزيج من قضاعة والأزد فقالوا :

ان زعيما من الأزد اسمه مالك بن فهم ، وزعيما آخر من قضاعة يدعى مالكا التقيا في البحرين ، فتحالفا على التعاون في القتال فسموا تنوخاً ، وكان ذلك في اوائل التاريخ المسيحي .

ودولة جذيمة الابرش في العراق اقدم دول تنوخ وهي الدولة ذات الشأن في التاريخ العربي ، وواضعة الحجر الاول في دولة المناذرة اصحاب الحيرة ، ملوك عمرو بن عدي .

والمضيرة ، بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا كانت داراً لملكها قبل ان يتخذ عمرو ابن عدي مدينة الحيرة عاصمة لدولته « راجع رواية النعمان .

تنوخ الشام

وقـــدمت الشام طائفة كبيرة من تنوخ بعد زوال دولة الانباط في بترا . فجعل الروم زعمـــاء التنوخيين عمالا لهم على بادية العرب والقطر الشامي ، كما جعلوا اخوانهم بني سليح والغساسنة بعد ذلك .

انك لا تجد اخباراً صادقة لهـــذه الدولة ، فالاراء التي يراها المؤرخون مضطربة متضعضعة ، ولم تذكر كتب العرب من ملوكها غير ثلاثة : هم النعمان بن عمرو ، وعمرو بن النعمان ، والحواري بن عمر . كما انهم لم يذكروا شيئاً عن اعمال هؤلاء الملوك واحوالهم وايام ملكهم .

على ان زمن هذا الملك لم يطل ، فان بطناً آخر من قضاعـة اسمه سليح غلب التنوخيين في الشام على كل مالهم ، فتفرقت تنوخ واقام بعضها في قنسرين .

سليح

امـــا بنو سليح فقد نزلوا مشارق الشام مع اخوانهم بني تنوخ ولكنهم لم يملكوا الا بعدهم كما قرأت .

وكانت الدولة في فريق منهم يقـال لهم الضجاعمة ومنـازلهم في بلاد مؤاب من ارض البلقاء . وفي سلمية وحوارين .

وكانوا سادة العرب في بلاد الشام . يجبون منهم الخراج ديناراً رومانياً عن كل رجل ويدفعون ما يجبونه للروم حتى تهدم السد في مأرب . فخرجت قبائل اليمن تطلب الرزق في بلاد الله ، واقبل بنو غسان على الشام فصاروا في تلك الربوع اصحاب الكلمة والسلطان .

وكما تفرق بنو قضاعة في زمنهم الاول ، تفرقوا بعد ان غلبوا في الشام ، فعـاد بعضهم الى العراق ، ولبث البعض الاخر في تلـــك الديار . وفي البلقاء وفلسطين . من هذا البعض تلك الطائفة الكثيرة العدد التي ينتمي اليها رزاح بن ربيعة اخو قصي بن كلاب .

كانت بصرى .في أوائل الجيل الخامس .زاهية زاهرة بفضل الملوك الغسانيين الذين ملأوا القطر الشامي محامد وعدلا وآثاراً خالدة .

وكانت اسواقها على مر الايام تغص بوفود الناس . من جميع الاجناس وجميع الاقاليم . هذا يحمل سلعته ، وهذا يقص في بلاط الملك ظلامته . واخر يستندي اكف المحسنين من الامراء ويذكر لهم حاجته .

وفي ضواحي بصرى ، بل في جميع المدن الغسانية . يمد الامن رواقه ويبسط الهدوء جناحيه. ان سيف بني غسان يفل الحديد . ودولتهم دولة قوة وعدل كما هي دولة ادب وشعر . وكما هي دولة مروءة واحسان .

واطيب ما في بصرى ان الغريب اذا قدمها . تاجراً أم زائراً ، أم محتاجاً ، احس بما يراه من مظاهر الدعة والترحيب ، انه سيد الموقف . لاتمس كرامته ولا تمتهن حرمته . ولا يجرح له عز . كأن اولئك الغسانيين النبلاء جعلوا اهل عاصمتهم عبيداً للغريب . يمهدون له اسباب الكسب والارتزاق . حتى امست بصرى في نظر المسيطر الرومي ارقى عواصم ولايته الكبرى التي يدعونها ولاية الشرق واعظم شأناً من تلك المدن الاهلة بالسكان ، القائمة على الشاطىء . وانك لتعجب ، عندما تعلم ان ولاية الشرق احد عشر اقليما تحت كل اقليم منها مدن كثيرة وبلاد واسعة وان بصرى ، المدينة العربية البدوية عروس هذه المدن والاقاليم .

وقد حجب نورهاالساطع ، نور انطاكية ودمشق .

اما تلك الاقاليم فهذه اسماؤها :

سوريا الأولى وعاصمتها انطاكية . والثانية وعاصمتها حماة . وسوريا الثالثة وعاصمتها منبج ، ثم فنيقية الاولى البحرية ، وفنيقية الثانية اللبنانية والعاصمتان صور ودمشق . ثم العربية ، والجزيرة وفلسطين الاولى والثانية ، والثالثة ، وعواصمها ، بصرى ، وديار بكر ، واورفا وقيسارية وبيسان وبترا .

ولقد عرفت ان التجار اذا قدموا بلداً . قدموه جماعات وفرقاً ، فتزيد الموارد ويكثر المال ، وتكتنف بصرى من جميع النواحي مظاهر السعة والنعيم

ولكل وفد وقت يجيء به، اما الصيف فخير فصول السنة للرواح والمجيء.

وكان أهل بصرى ذوي علاقة طيبة بأهل مكة . وهم يعلمون انه اذا جاء الصيف أقبلت طلائع الكنانيين ، كما كانوا يعلمون ان بني كنانة اشراف الناس يجب لهم التكريم والإحترام .

* * *

هذه طلائعهم قد أقبلت .

يتقدمهم فتىً ساحر النظرات عالي الجبين هو قصي . والى جانبه فتىً آخر يفيض وجهه بشراً ونوراً هو صفوان، وهنالك فتىً ثالث اسمر اللون جذاب هو يزيد بن ربيعة الثائر ..

اجل ، كان يزيد مع القوم ، لأن صفوان لم يشأ ان يبقى في مكة خوفاً من ان تمتد اليه يد الغدر ، وشيوخ القوم وكهولهم وراء الفتيان الثلاثة كأنهم جند يمشي وراء قواده .

وعبيد الكنانيين والموالي يسوقون النوق التي تحمل الزاد ، فلما وصلوا الى الموضع الذي يخيمون فيه ، نزلوا ، ولم يستريحوا حتى رأوا وجوه تجار بصرى امام الخيام ، فجاء زهرة بن كلاب فقال لأخيه : على أي أمر عولت يا قصي ؟

– على الذهاب الى منازل قضاعة كما قلت لأرى رزاحاً وأصافح رؤساء القوم الذين نشأت بينهم ..

– أنذهب غداً ؟

– اجل وانت تتولى عني أمر الشراء .

– وسأحمل لك أثمن ما في الشام من ديباج وخز لتبيعه في اسواق فارس كما يفعل ابناء عمك .

– بل أبيع ما تشتريه في دمشق .

قال : تشتري من دمشق ثم تبيع فيها ما تشتريه ؟

– نعم .

– ولكنه رأي جديد في الأخذ والعطاء لا أدرك الحكمة فيه .

قال : اذا أردت ان تعرف كل شيء فاسدل ستار الخيمة ولنتكلم همساً.
ففعل زهرة ، وجلس بالقرب منه وهو يحبس انفاسه .
فقال قصي : اذا رحل قومنا في الشتاء الى بلاد فارس او الى اليمن بقيت انا في مكة .
– لماذا ؟
– لأني وعدت بالبقاء .
– ويخيل اليّ اني أعرف هذا الوعد .
فاستغرب قصي قائلاً : انه وعد لم أبح لأحد به فكيف عرفته ؟
قال : لقد خبرتني سودة ..
– وسودة لا تعرف شيئاً عنه ..
قال : أتظن اني لا أعلم من هو يزيد ؟
– من هو ؟
– هو أحد فتيان البحرين يطوف في الحجاز طالباً بدم وقد وعدته بالبقاء في مكة لتساعده في البحث .
قال : اخطأت فليس ليزيد شأن بما أقول . اني وعدت رجلاً آخر اعظم منه
فأطرق زهرة وهو لا يهتدي .. ثم قال : صفوان ؟
– بل اعظم من صفوان أيضاً .
قال : أتعرف امراء مكة يا قصي ؟
– لا أعرف غير كبيرهم وهو الذي وعدت ..
– ومتى بدأت هذه الوعود بينك وبين حليل ؟
– بدأت عندما عاهدته على البقاء في مكة ، في الشتاء المقبل .
قال : انها الغاز لا أفهمها .
– ولكنك تفهم هذه الألغاز عندما أقول لك بالوضوح والجلاء ، اني سأتزوج.
فلم يستغرب زهرة ولم يضطرب . كأن فكرة الزواج كانت تجول في خاطره ، بل قال بهدوء : وهل خطبت حبّى .

– اجل وكانت الخطبة غير ما ألفته العرب .. سألت سادن الكعبة ان يرضى بي صهراً ففعل وانتهى الأمر .

– ثم جعلتما الشتاء موعداً للزواج ؟

قال : بعد رجوعنا من الشام يتم كل شيء ثم أقضي في مكـــة بضعة شهور أتهيأ فيها لرحلة الى اليمن في العام الثاني .

– اذن بعد شهرين تضع الحجر الأول من البناء الذي ستبنيه وتبدا حياتـك الجديدة في الحجاز ..

– نعم وبعد شهرين ينظر اليّ امراء مكة نظرهم الى الشياطين .

– ويغلي الحقد والحسد في الصدور ..

– ليفعلوا ما يطيب لهم فأنا لا اعبأ بأحد .

– ولماذا لا تخبر قومك ؟

– لأن الزمان الذي يجب فيه ان أشاور قومي لم يأتِ بعد ، وانت ، اجل انت لو لم تكن زهرة بن كلاب لما سمعت مني كلمة .. اني سأستعين بالسكوت على قضاء كل أمر ولولا شعوري الأخوي كما قلت لما بحت لك بسري بعـد اتفاقي مع الأمير الأكبر على الكتمان ، والآن فقل لي يازهرة : الا يساعدني قومي في استرجاع عزهم القديم ومجدهم البالي بقوة السيف ؟

قال : رأيت قومنا يجودون بدمهم إذا كانت لـك غاية بهذا الدم ، ولكن الحرب ...

قال : اما الحرب فلا بد منها ولا سبيل الى الوصول الى القمة إلا اذا خاض مكة بحراً من الدماء ..

– وحاجب البيت ؟

– قل ماذا تعني بحاجب البيت .

– أتحاربه وهو ابو حبى .

– كل يد تمتد اليّ بالسيف أقطعها ولو كانت يد حبى،ولكن الأمير لا يفعلها ولا يطيق على ما أرى الا أن يتم الظفر لي .. ثم قال : ومـــع ذلك فقد تخلق

احادثات اموراً لا تخطر بالبال .

قال : اذا أردت أن تعرف أسرار قومنا وتقرأ ما في قلوبهم فسل صفوان .

– وهل يستطيع صفوان بن الحارث ان يعلم من شؤون قومه ما لا يعلمه زهرة بن كلاب ؟

– ان لصفوان جيشاً من الفتيان ..

– وانا أحتاج أيضاً الى الكهول فمن يقودهم ؟

– أنا .

– وأنت واثق بأنهم لا يخرجون عن الطاعة ؟

– نعم فاذا أكرهتنا الأقدار على امتشاق السيف كنا نحن كهول كنانة في المقدمة .

– اذن فاكتم ما سمعت الآن ولننصرف الى السوق .

– ولكن اريد أن أسألك سؤالاً آخر .

– قل .

– أنبوح غداً لأخينا رزاح بما ذكرته لي ؟

قال : لا أعلم الآن ماذا أفعل ، فإما ان أعود وهو لا يعرف شيئاً واما يعرف كل شيء .

– وماذا تصنع في السوق ؟

– أدور حول هذه القصور فأرى عظمة الملوك الغسانيين .

فقال ضاحكاً : ولعلك تريد بلاط الملك فتجعل لك بلاطاً مثله .

– هو ذاك ، فقل لأحد أصدقائك المقربين ان يمهد لنا سبيل الدخول.

* *

رأى زهرة كبيراً من تجار بصرى فسأله ان يستأذن لهما في الدخول الى القصر ، وكان ذلك سهلاً ، ففي كل يوم تدخل الوفود يتقدمها قهرمان القصر وحاجب من حجابه . وليس على هذه الوفود إلا أن تظهر رغبتها في الدخول ليأذن لها أولياء البلاط .

فمضى ذلك التاجر يستأذن للكنانيين ، ثم دخل الثلاثة .. فمشى الحاجب أمامهم في رواق كبير على جدره صور القمر والشمس والبهائم والأزاهير .وعلى سقفه نقوش عجيبة على الطراز الشرقي في دوره الأول .

وطول ذلك الرواق اكثر منعشرين ذراعاً ينتهي ببهو يقوم على العمد كالبهو الذي رأوه في مدخل القصر ووراءه حجرات على سطوح مستطيلة كأنها ابراج مطلة على الجانب الجنوبي .

وقصي رأى الكثير من هذه الأبراج في ديار الشام .

ثم تقدمهم الحاجب الى رواق آخر فيه الشرفات عليها القبب حتى انتهوا الى قاعة كبيرة جداً فيهامن الزخرف ما يخلب اللب وفي جانبيها مقاعد منخفضة من الحجر السنجابي وضعت فوقها الوسائد .

فقال قصي : انها قاعة تشبه في سعتها صحن الكعبة وأظن انها قاعة الجلوس.

فاجابه الحاجب : اجل في هذه القاعة يستقبل مولانا الحارث الثالث ابن الأيهم وفود بصرى الغرباء . انظروا هذا المقعد الذي عن يمين العرش هو للنعمان ولي العهد والى جانبه المقاعد لابناء عمه ورؤساء العشائر عندما تجمعهم هذه القاعة . ومقاعد الشمال هي لأخي مولانا الاكبر وقواد الجيش .

– وكيف يستقبل الملك هؤلاء الأضياف ؟

قال : تدخل الوفود من هذا الباب فتقف اولاً صفين متقابلين امام الوسائد ثم يدخل من هذا الباب حاجبان شاهرين سيفيهما هما من اشراف غسان ويطل الملك وراءهما بثيابه المذهبة ومعه النعمان ورجال البلاط .

– ثم ماذا ؟

– فتنحني الرؤوس اجلالاً لصاحب التاج ثم يستوي الحارث في عرشه فتتقدم الرجال واحداً بعد واحد يلثمون يده وعلى كل رجل منهم ان يذكر اسمه واسم قومه ويعود الى موقفه .

فيأذن لهم في الجلوس ويبدأ بالسؤال عما يطيب له .

-- واين يجلس لابناء شعبه ؟

– في الجهة الثانية من القصر على شمـــال الداخل من الدهليز وقد يجلس للحاجات ولي العهد او أحد الامراء من اخوته عندما يكون مولانا الملك مع حاكم دمشق الرومي او مع سواه من كبار رجال الروم .

– وكيف يقضي الحارث ايامه ؟

فابتسم قائلاً : ليس للملك ساعة واحدة يستريح فيها من متاعب الملك حتى ليخيل اليّ انه يحسد حجاب القصر على الراحة ، يوم للعطاء ، ويوم للمظـــالم ، ويوم للروم ، ويوم للجيش ويوم للوفود . فتنقضي الأيام كلهـــا وهو مستند الى وسادته ينظر في شؤون الناس الا يوماً واحداً يخرج فيه الى البر مع انجاله الامراء ومن ينتمي اليه من اسرته ليصيدوا الغزلان .

ثم قال : اتعرف الآن مــاذا يصنع ؟ انه يحدث شيوخ العرب القادمين من البادية ينقلون اليه اخبار العشائر والضيق الذي تحسه في هذا العام ، بل اقول لك غير ذلك ألم تر اني مشيت امامكم للطواف في هذا القصر دون ان أقول كلمة ودون ان أتردد في الامر ؟

– بـــلى .

– : وهل سألتك عن اسمك او سألت هذا العربي عن اسمه ؟

« وكان الحاجب يعرف التاجر الذي يرافق الاخوين » .

– لا

– ولكن اعلم ان الملك يعرف الاسمين الآن .

– وكيف عرفها ؟

– عندما استأذن لكما عمرو « اسم التاجر » ذكر الاسمين لحـــاجب آخر يكتب اسماء الناس وينقلها الى الملك .

قال : أفلا يدخل القصر احد قبل ان يؤذن له ؟

– يدخله رجـــاله وموظفوه والمقربون الى الحارث ليس غير . وكيف يدخله الغريب بدون اذن والحجاب ببابه يمنعونه من الدخول ؟ اسمع ، يجيء حـــاكم دمشق والخيل امامه وخلفه ، فيقف بالباب حتى يصدر الامر له . واذا أقدم

على غير ذلك حوّل الملك عنه وجهه ولم يأذن له في ان يراه .

– ومن هم شيوخ البدو الماثلون بين يديه ؟

– شيوخ قضاعة ولهب والجاهيل وهم من رعيته .

– وهل ينصرفون الآن ؟

– ماذا؟ ايخرجون من القصر قبل ان يتناولوا الطعام؟ انها اهانة لا يفعلها الا الذي يجهل عادات القصر .. يأمرهم الملك بالانصراف ولكن الى منازل الضيافة حتى اذا شبعوا خرجوا الى حيث يشاؤون .

فقال قصي في نفسه: سأرى هؤلاء القضاعيين قبل ان يتركوا بصرى وسأذهب معهم الى باديتهم التي لا تبعد غير خمس مراحل ، وقد يكون رزاح بينهم فينقضي الامر .

– ووليّ العهد ، أيكون الآن مع الملك ؟

قال : امـا ولي العهد ففي الرواق الآخر الذي ينتهي ببرج القصر الاسود ومعه اخوته .

– وماذا يصنعون في ذلك الرواق ؟

– انهم في الساعة يصيدون الضب او السنجاب ..

فظهر الاستغراب على وجه قصي وهو يقول ؟

يصيدون الضب والسنجاب في البلاط ؟

– اجل يصيدونها كل يوم ..

– ومتى كان بلاط الحارث بن الايهم بادية او غاباً يأوي اليه الحيوان .

– ليس عليك الا ان تتبعني لترى ما تقول .

وخرج من القاعة وهم وراءه يمشون بين صفين من الغرف لرجال القصر حتى استقبلوا الشمس في بهو ثالث مكشوف كأنه بناء مستقل ، يتصل بهذا البهو سلم ذو درجتين امامه حاجز من الخشب ووراء الحاجز ثلاثة قضبان من الحديد تتدلى منها الحبال .. ومن ذلك الحاجز الخشبي يبدأ الرواق ..

فرأى القوم طائفة من الغلمان ، فقال قصي: اهذا هو الرواق الذي ذكرت؟

– نعم فانظر الى الساحة التي تحته .

فأرسل نظره فابصر اقفاصاً على جانبي الساحة فيها الاسود والانمار ومعظم صنوف الحيوان يقابلهـا اقفاص لأصناف الطير بينها الطاووس ، فقال : لقد عرفت الآن فهنا مأوى السنجاب ..

– اجل وهذا هو البلاط الذي يجعله الملك غاباً .

ومشى الى باب صغير مفتوح وهو يقول : ادخلوا فسترون اعجب مـا في بصرى بل اعجب ما في الشام .

وذلك الباب يؤدي الى سرداب مظلم. فبعد ان مشوا عشرين خطوة ابصروا النور من باب آخر اكبر من الاول فوقف الحاجب قائلاً : اسمعوا ، هذه اصوات ولي العهد والامراء يشدون أقواسهم ؟

قال : اندخل ؟

– احذر ان تفعل ذلك قبل الاستئذان، وغادر السرداب الى الخارج وقصي يفكر في عظمة الملوك .. ثم عاد الحاجب فقال لهم :

لقد أذن ولي العهد فاذكروا اسماءكم قبل ان تلثموا يده .

فتبعوه . فاذا النعمان مع خمسة من اخوته وأبنـاء عمه ، وجميعهم فتيان ، جالسون في الطرف الآخر من الرواق على بساط أحمر ، ووراء ظهورهم ذلك البرج الاسود الذي ذكر لهم وبين ايديهم ثلاثة من العبيد .

والنعمان لا يجاوز الخامسة والعشرين . ضعيف البنية صغير الوجه تكاد لا ترى فيه مظهراً واحداً من مظاهر الخشونة في الرجال .

فأقبل عمرو فقبل يده وايدي من حوله وتبعه زهرة ثم قصي وقد انتسبوا وتراجعوا الى الوراء ، فقال وهو يبتسم لهم :

اجلسوا على بساطنا واذكروا ما قدمتم لاجله .

فجلسوا وزهرة يقول : قدمنا بصرى للتجارة على عادتنا كل عام .

قال : انكم أهـل مكة تجار وبنو كنانة من اشرافهم ، وجعـل يتفرس في قصي قائلاً : وهذا أخوك ؟

- نعم يا مولاي وقد خرج معنا للمرة الاولى .
- ولكن رأينا من الحجاز تجاراً أصغر منه ..
قال : لقد نشأ بعيداً عن مكة يا مولاي ، ثم قص عليه ماضي قصي .
فوجه الكلام الى قصي قال : اذن كنت في بلادنا مع القضاعيين .
- نعم وقد نشأت غسانياً مخلصاً اخلاص بني قضاعة .
- اجل واعطيتنا من عمرك عشرين سنة .
قال : ليتني أستطيع أن أقضي العمر كله في الشام .
- وماذا يمنعك من ذلك ؟
- قومي ووطني يا مولاي غير اني سأكون في مكة أشد إخلاصاً ..
وكان ولي العهد يشد قوسه بيديه فقال : أتحسنون الرمي انتم الكنانيين ؟
قال : تطيش سهامنا اكثر مما تصيب ..
- ولكن احسنتم الضرب بالسيف فكنتم اصدق الضاربين .

واشار الى السهام بين يديه قائلا : انظروا الى هذه السهام انـّا ننزع بمثلها كل يوم، حتى قال الملك لسفراء الروم ووجوه رجاله : ان ولي عهده ارمى العرب.. وقد أذنـّا لكم في أن تروا الآن كيف نصيب الاهداف .. علق الضب يا غلام .

فأحضر الضب من قفصه وعلق امام الحاجز بينه وبينه شبر ، وهو يضرب الهواء بيديه .

والضب صغير الحجم وجلده قاس كجلد التمساح ، فنز النعمان عن القوس ورمى قائلاً : هذا هو السهم الاول نرسله الى القلب فيستريح الضب لمسكين من حياته .. واذاالسهم يخترق القلب كما قال ويثبت في ذلك الخشب الصلب القائم بالقرب منه .

ثم قال : وهذا الثاني نجعله تحته ، وأرسله فوضعه حيث أراد ، ثم أخذ يرمي فقراته فقرة فقرة ، السهم تحت السهم ، لا يبعد الواحد عن الآخر قيد اصبع ، حتى ملأ جسمه الصغير سهاماً الا الرأس والذنب .. وزهرة وقصي ينظران وقد تولاهما العجب .

ثم أخذ النعمان سهماً آخر وهو يقول :

لقد حنى الموت رأس المسكين فيجب ان يرفعه . ورماه فرفع السهم ذلك الرأس ..

والتفت الى قصي قائلاً : اذا تعلمت الرمي فافعل كما نفعل .

فقال ورب الكعبة لم أر قط مثلما رأيت الآن ، لقد اصاب مولانا الملك في قوله انك أرمى العرب .

فقال احد الامراء : سترى ايضاً أغرب من هذا .

وصاح ولي العهد بغلمانه قائلاً : السنجاب ...

فاحضروه وعلّق امام الضب .

فقال : سنجعل الرأسين في سهم واحد ، ولم تكن الا لحظة حتى نفذ السهم من رأسيها كأن رجلاً وضعه بيده .

وجعل يغرس سهامه في ذلك الجسم الناعم حتى احتجب كما احتجب الضب قبله في ظل السهام ، فهمس زهرة في أذن أخيه يقول :

اذا أردت ان تصير ذا عرش فكن كالنعمان .

قال : قتلتني الآلهة ان لم اصبح مثله ، ثم قال وقد رفع صوته :

لتضم مثلك قصور الملوك يا مولاي .

فوضع النعمان يده على كتف اخيه الأصغر وقال : سنصور لك طاووساً كالطاووس الذي تراه في الساحة . هات الطاووس يا بدر . انظر ايها الكناني . ورأس الملك سنجعل هذه السهام الباقية ذنب طاووس .

وحمل الغلمان الطاووس الى الرواق . ثم وضع احدهم على الحاجز وسادة كبيرة محشوة من الكتان اثبتها بالمسامير واستند الى الجدار . وهزّت الخيلاء الطاووس فعقد ذنبه . فبدأ ولي العهد يرسل سهامه ويصفها على الوسادة جاعلاً اياها كالطاق وهو يدنو حيناً ويبعد حيناً ثم يدور حولها حتى اضحت الوسادة بسهامها شبيهة بذنب ذلك الطاووس الهندي وقد نفدت سهام ولي العهد ، فارتفعت اصوات الاستحسان . اما قصي فكان محلقاً في فضاء الاحلام .

وكأن النعمان اراد ان يحمل الكنانيان شهرته الى الحجاز ، فقال :
نصيد النمر بسهم واحد وهو يثب هارباً ونبقيه حياً عندما نشاء .
فقال زهرة : ليس كثيراً عليك يا مولاي ان تفعل هذا فالذي يصيب فقراء الضب يصيب الذبابة ..
قال : وأغرب من هذا كله ان الملك يرسل سهمه الى الدابة وهي تعدو فيضعه في الحافر . اجلسوا الآن نسألكم عن بيت العرب ، كم صنماً في الكعبة ؟
– لكل قبيلة من قبائل العرب واحد او اثنان .
– وهبل أعظمها جميعاً أليس كذلك ؟
– نعم يا مولاي ويجيء بعده اللات والعزّى . ألا تعرف الكعبة ؟
– يزورها من رعية الملك كل عام اكثر من ألف ، اما نحن فلم نحجها وقد لا نفعل فيما بعد .
وكان الغسانيون قد تنصروا وزهرة يعرف ذلك ، فسكت ولم يبدِ رأياً .
فعاد النعمان الى القول : ان الكعبة حصن الحجاز وهي تمنع أهله . ولولا الكعبة لامتدت اليه أيدي الفاتحين واستولوا على كل شيء . هكذا يقول الملك نعم ، والعرب جميعها تحترم البيت وتلقي بسلاحها على بابه . وجعل يقول : نحن لا نطمع بالحجاز . فهو بعيد عنا ولا نحب ان نهدم ما بنته العرب منذ أجيال فليبقَ اذن لأمرائه وليهنأوا به . وكذلك الروم . انهم لا يفكرون في ذلك القطر ، على رغم الاطماع التي تملأ صدور القواد ، وعلى رغم الجند السكران الذي يقودون .
فجاء عندئذٍ دور قصي فقال :
مع ان الروم الفاتحين لا يملون الحرب ، أتراهم يخافون يا مولاي ؟
قال : انهم يخافون السيف كما يخافون ذلك الشعور العربي العام . أهل الحجاز وقبائل العرب جميعها من جانب . وملك الفرس عدو الروم وحليفه ملك العراق من الجانب الآخر . فيضيع الجيش الرومي في بوادي العرب ولا يرجع منه جندي .

واستدرك قائلاً : نقول هذا لتكونوا آمنين فليس في العالم كله بـلد كمكة لا تطأ ارضه اقدام الفاتحين ولا تدوسها حوافر خيلهم .

قـال : اذا قصر الحجازيون عن حفظ ارضهم حمتها سيوف الملوك الغسانيين حماة العرب .

– ولكن اسمع اخباراً اريد ان اذكرها الآن .

– ما هي يا مولاي ؟

– يقول الحجاج ان الماء في مكة لا يكفيهم ، أيعجز امير الكعبة والامراء الذين حوله عن حمل الماء من الينابيع والابار ليسقوا العرب ؟.

قال : لقد صدق الحجاج فيما نقلوه .. وماذا يقولون غير ذلك ؟

– ويقولون ان القوي اذا آنس من اخيه ضعفاً وهما في الموسم سلبه ماله وحقه لا يجد من يمنعه .

– وهذا صحيح يا مولاي .

– ثم يقصون علينا ما هو اغرب من هذا كله أتعرف ماذا ؟

قال : انهم لا يذكرون لنا ما يذكرونه للملوك . ماذا يا مولاي ؟

قال : خبرنا احـــد امراء البادية ان سادن الكعبة نفسه الذي هو كبير امرائكم لا ينهى خاصته ورجاله عن الظلم الذي يسومونه الحجاج. فقل لنا الآن، أليس لما يفعله هؤلاء حدّ ؟

قال : اذا كان هنالك ظلم فدواء الظلم السيف .

قال : عندنا دواء خير منه . ان الاشراف في مكة كثيرون ولهم رأيهم .

– نعم

– فعلى هؤلاء الاشراف ان يقولوا كلمتهم فينتهي الامر .

– واذا لم يسمعوا لهم ؟

– بل يسمعون؛فان العرب اذا نفروها تركت الحج،وفي تركه خراب مكة .

– أتترك اصنامها يا مولاي ؟

– تنحت لها اصناماً اخرى وتجعلها في منازلها كما يفعل بعض القبائل اليوم.

هذه غسان. لا يحج منها في العام المقبل اكثر من مئة، ثم يجيء العام الثاني فلا تجد منها في مكة احـــداً .. والويل لبلد لا يسود العدل اهله . انه ينهار اذا ثارت العاصفة ويسقط على الرؤوس المرتفعة فيمحو أثرها الى الابـد . وكانت الالفاظ التي يقذف بها فم النعمان مثالة تلقيها الاقدار على مسمع قصي ، كأن ولي العهد الغساني رسول الآلهة الى ذلك الفتى الطامع الذي يفكر في الملك .

اجل . لقد دفعت يد القضاء ذلـك الكناني الى بلاط الحـــارث الثالث . ليسمع آراء ملوك العرب في الحجاز . من حيث لا يعلم اولئك الملوك ذلك الغرض الذي يسعى اليه .

وسكت النعمان قليلاً كأن حديثه قد انتهى ،

فهم الثلاثة بالانصراف فاذا هو يقول :

كم يبلغ حليل بن حبشية من العمر ؟

فقال زهرة : لقد جاوز السبعين يا مولاي .

– اذن فالسبعون سبب الفوضى .

– ولكن له همة هي همة الشباب .

قال : لو كان الامر كما تقول لمـــا ارتفع للحجاج صوت .. خير لحليل ان يتخلى عن الولاية لرجل من قومه ..

فابتسم زهرة قائلاً : أيفعل هذا وله ولد ؟

قال : نسينا ان نقص عليكم ما يقوله الحجاج عن هذا الولد الذي تذكرون . لقد رآه بعضهم في آخر المطـاف وهو سكران ؛ ثم قيل للذين رأوه هذا ابن حاجب البيت وكانوا يحسبونه من أوباش العرب . أصحيح هذا ؟

فتردد زهرة ، اما قصي فقال : كل ما نقل اليـك صحيح يا مولاي .. وهو يريد من ذلك ، ان يعطف ملوك غسان على قضيته ، اذا هو أقدم عـــلى الأمر الذي يفكر فيه .

ثم قال النعمان : ويشربها في الشهر الحرام ؟

قال : لو أعطوه زقاً من الخمر وهو على قدمي هبل في جوف الكعبة لشربه

كله في ساعة وأشراف العرب ينظرون اليه .

قال : اذا أراد حاجب البيت ان يجني على العرب ويقوّض أركان الكعبة فليوصِ بالحجابة للمحترش ، وليملأ له حياض المـاء في فناء الكعبة خمراً يرتوي منها في كل يوم .

فاهتز قصي واصفر جبينه .. ان ذلك الفكر الذي يبديه النعمان بن الحارث فكره . والرأى رأيه . كأن الأثنين تعاهدا على الامر .

ولم يدرك زهرة تلك الحكمة التي تقضي على أخيه قصي بان يبوح لرجـال البلاط الغساني بجميع أسرار الأمارة العربية الكبرى التي لا تعني آل غسان ..

وكان مضطرباً ، لكنه تعود ان يرى من اخيه ما لا يعلم . كما تعود ان يطيع دون ان يتردد . مدفوعاً بقوة ذلك التأثير السحري المنبعث من عينيّ اخيـه ، وقد فاته ان قصياً استلذ تلك النغمة العذبة التي هي نغمة نفسه ، ومطمح امله ، وانه كان يريد بصراحته واعترافه ان يستدرج الأمير الشامي الى الإفضاء بكل ما يعلم من شؤون الحجاز .. وبقي على قصي أن يعرف شيئاً واحداً يبدو لـك من خلال الحديث الذي تقرأ فقال :

أتظن يا مولاي ان سادن الكعبة يتخلى مختاراً عن الحجابة ؟

قال : امامه واحد من امرين . إما ان يعتزلها وإما أن ينقذ الحجاز من ظلم امرائه .

– لو قيل لحليل ان قبائل تهامة ونجد والعراق تزحف الى مكة بعـد شهر لتجعل البيت الحرام أنقاضاً لوقف بباب ذلك البيت يؤثر الموت على ترك المفاتيح.

– ولكنه حرص في غير موضعه .

– بل له عذره يامولاي . ان خزاعة تملأ مكة وفيها الرجال أبناء الشرف والعز فأي رجلٍ من هؤلاء يختاره حليل ؟

– لو عرفناهم لسمينا أحدهم .. ليختر أبعدهم صوتاً واعظمهم شأناً .

– اذا فعل ارتفعت اصوات الطامعين وهم كثيرون ..

– ويعمد عندئذٍ الى الشدة فيخنق أصواتهم ..

– بالحرب ؟

– لا فالحرب ليست من رأينا ولكن بقوة النفوذ .

– وقد يضيع في ذلك الموقف نفوذ حليل يا مولاي .

قال : لم يبق الا ان ينهى الأقوياء عما يفعلون .

قال : خير له أن يحمل السيف ويخوض المجال من أن يفعل هذا ...

– لماذا ؟

– لأن ذلك النهي نفسه أشد وقعاً على النفوس من الحرب ..

– أتراهم يثورون ؟

– اجل ولا يخمد نار ثورتهم الا السيف .

– اذن فالسيف ، وكل عرش لا تحميه السيوف يهوي بصاحبه .

ونهض قائلاً: بالسيف بنى أجدادنا هذا الملك ولا يزال هذا السيف في ي ... نصونه به . فأذا أردتم أنتم الحجازيين ان تحفظوا بهجة البيت فافعلوا كما نفعل ومد يده اليهم فلثموها وهو يقول : دلهم يا غلام على بيت الضيافة ..

فقال زهرة : الا يأذن لنا مولانا في الانصراف الآن ؟

قال : لايدخل زائر بلاط الملك الا ويذوق طعامه قبـــل ان ينصرف . اذهبوا ولكن لا تنسوا ان يحسن امراؤكم الى الحجاج .

فتقدمهم الحاجب الى بيت الضيافة وقصي يقول في نفسه : لقد تعلمت ... يا ولي العهد ان أحسن الى الحجاج ..

ومن اين لقصي البدوي ان يعلم ، ان للنعمان الغساني غرضاً بذلك ... الصريح الذي سمعه منه ، بل من اين له ان يعلم ان ذلك البلاط ينفـــخ ... التمرد في صدور العرب ، ليختلف الرأي العربي في شأن الكعبة ، وتتفرق ... العشائر ؛ فيتزعزع موقف النعمان بن امرىء القيس مـلك الحـــيرة ويضعف نفوذه ..

وملوك العراق اعداء ملوك الشام ، لا يبرح الواحد منهم يكيد للاخر حتى يتم له النصر ..

* * *

- ٨ -

تناولت الوفود طعـــام الغداء على بساط الملك . في بيت الاضياف ، وهي خليط من جميع الاقاليم ، قدمت بصرى لحـاجات لها . ثم مالبثت حتى زارت القصر لترى ما فيه من عجائب الصور ..

وكان قصي يتبين الوجوه ليرى شيوخ قضاعة الذين مثلوا بين يدي الملك مع شيوخ لهب والجاهيل ، فوقع نظره بين الصفوف على وجه خيل اليه أنه يعرفه .

فقال لجاره : أتعرف هذا الرجل الذي يأكل أكل جائع ؟

قال : انه رفيقي الى بصرى .

– ممن هو ؟

– من قضاعة .

– وأنت ؟

– من بني لهب ، وقد قدمنا لزيارة الملك على عادتنا في كل عام ، إن الملك الغساني أعظم الملوك .

ثم قال : متى تركت الحجاز ؟

فأجابه قائلاً : كيف عرفت أني حجازي ؟

فأومأ الى قلنسوته وهو يقول :

لا يلبس مثل هذه إلا أهل الحجاز .

قال : أصبت فأنا حجازي وقد قدمت اليوم مع قومي جيران الكعبة .

– أعنيت خزاعة ؟

– بل كنانة التي تقيم بالشعاب .

فهز رأسه قائلاً :

اعرف مكة كما أعرف بصرى وأسمع ان قومك الكنانيين اعـــز الناس ،
ولكن لماذا تسأل عن هذا القضاعي ؟
– لأني رأيت هذا الوجه من قبل وأحب ان أحدث صاحبه .
– لعلك رأيته يطوف حول البيت .
فكره قصي ان يعترف للرجل بكل شيء فقال : قد يكون هذا .. والآن
أرجو ان تعرفني به .
– سأفعل بعد ان يرفع الطعام .
وأكل القوم حتى امتلأت البطون .. فلمـا هموا بالأنصراف قـال اللهبي :
ألا تذكر لي اسمك فاذكره لأبي ذهل ؟
فوضع الفتى يده على جبينه وقد ذكر في تلك الساعة ان ابا ذهل القضاعي
من أصدقاء أخيه .
وأطرق قليلاً ثم قال : اما اسمي فقصي بن كلاب ..
فنادى الرجل ابا ذهل قائلاً :
ضع يدك بيد هذا الحجازي الذي يعرفك .
فجعل القضاعي يتفرس فيه . وعيناه تلمعان . واسمه يبدو على شفتيه ، ثم
يختفي حتى قال :
قصي .. أخو رزاح بن ربيعة ؟
– نعم ..
– ولكن بقيت في مكة ولم تعد الينا بعد الحج .
– اجل . وأني لأذكر القوم النبلاء الذين نشأت فيهم وقضيت بينهم عشر .
عاماً تكتنفني مظاهر الحب .
ثم قال : كان رزاح يقدم بصرى في مثل هـــذا الشهر وهو أول من يشهد
المواسم ، فأين هو ؟
– لم يبرح الحي ..
قالها وهو يبتسم ..

– وما يمنعه ؟

فأصبح ذلك الأبتسام ضحكاً ، ثم قهقهة .. ثم هامسه قائلاً : يمنعه كثرة المال بين يديه ..

فخيل اليه انه يريد أن يمازحه ، فقال :

أتهزأ برزاح ؟

– بل أذكر لك ما أعرفه عنه . ان رزاحاً سيد الأغنياء في قضاعة وقد أمطرته السماء نعماً ووهبت له الأرض كلّ ما فيها من بركات ..

فأشرق جبين الفتى .. ان ذلك المال الكثير يرفعه الى القمة التي تطمح اليها نفسه ..

وزاد ابو ذهل فقال : حتى ان رزاحاً يستطيع أن يسلح العشيرة من شيخها الى غلامها ، من ماله دون ان يحتاج الى درهم واحد ، وقد يحارب ملكاً مثل الحارث عاماً كاملاً دون أن يمد يده الى أحد .

فجعل قلب قصي يرقص في صدره . تلك بشرى جديدة تزفها اليه الأقدار . ولبث ساكتاً كأنه يفكر فيما سمع .

فقال القضاعي : ومن الرأي ان ترى عيناك ما تسمعه اذناك ..

– أي انك تدعونني الى الذهاب معك لأرى أخي .

– نعم .

– ولكني لا أستطيع ذلك ، فقومي سيعودون الى مكة بعد بضعة أيام .

قال : اذا كنت لا تذكر اخاك فاذكر امك ..

– أذكر الأثنين وأتوق الى رؤيتهما ، ولكن ماذا أصنع والرجوع من الشام الى الحجاز لعبة خطرة لا يقدم عليها قصي بن كلاب .

– تريد ان تقول انك سترجع وحدك .

– اجل ، وهذا ما لا يسلم به رزاح ، فاضطر الى البقاء عندكم حتى تنصرف قضاعة الى الحج .

قال : لي رأي أقوله لك الآن .. متى قدمت كنانة ؟

– اليوم .

– اذن فهي تمكث في بصرى أكثر من عشرين يوماً أليس كذلك ؟

– لا أعلم فسل اخي زهرة .

ثم عرّفه بأخيه ، فقال : ألا تعلم يا زهرة متى تعودون الى الحجاز ؟

ل : نبقى في بصرى خمسة ع‍... وماً على الاقل .

فألتفت الى قصي قائلاً : وانت لا تغيب اكثر من عشرة ايام ترجع بعدهما الى قومك .

فجعل قصي يعتذر والقضاعي يلج في طلبه حتى عرف زهرة ان أخاه لا يريد ان يظهر رغبته في الذهاب الى منازل القضاعيين ، فقال له ، وكأنه يساعد ابا ذهل في أمره :

وما الذي تخشاه ياقصي ؟

– أخشى ان ينصرف قومي قبل ان اعود ..

قال : لا ننقل من بصرى قدماً الا اذا كنت في المقدمة .

– وأخشى ان يضيع مالي .

قال : سأتولى انا أمر هذا المال ، فأبيع لك ما حملته من مكة وأشتري بثمنه ماتشاء ..

ولكن قد تأمرني امي بالبقاء فأخسر كل شيء .

قال : اذا ذكرت لأمنا ان كنانة لا تترك بصرى الا اذا كنت معها هيأ لك اسباب الرجوع .

وكان الحديث قد طال وقد ضعفت مظاهر الاعتذار فقال قصي : اذا كان هذا فيجب ان نسافر غداً .

فقال ابو ذهل : ونخرج من بصرى قبل ان يبزغ الفجر .

فدلّه زهرة على الموضع الذي ينزلون فيه وهو يقول : لولا هذا المال الذي نحمل لسرت معكم لأرى امنا التي كادت تنسى الحجاز . وخرجوا من قصر الملك

وقصي يقول لأبي ذهل :
الى اللقاء .

* * *

ثلاثة شيوخ . وثلاثة فتيان . تركوا عاصمة الغسانيين قبل بزوغ الفجر ومشوا في طريق يتجه الى الشرق بانحراف قليل الى الشمال .

هم : القضاعي ابو ذهل ، يتبعه سيد لهب وسيد الجاهيل ، وقصي بن كلاب يتبعه صفوان بن الحارث ويزيد بن ربيعة ، من أركان الحرب ..

والشيوخ ، يقصون على الفتيان حكايات العرب النازلة في ربوع الشام في ظل الغسانيين ..

ثم يجيء دور صفوان فيورد لهم الروايات عن افراسه ويصف لهم بتلك العذوبة الجذابة ، جمال تلك الافراس .

حتى قال قصي: سيحدثنا الآن أبو ذهل بما دار بينهم وبين الملك من أحاديث.

قال : أرأيت الملك يا قصي ؟

– ومن أين لي ان أراه وأنا في مكة ..

– ولكنك تعرف بصرى من قبل وكنت ترافق قضاعة اليها وأنت صغير .

– نعم غير ان الصغير لا يعبأ بالملوك ولا يبالي بما يراه من آثار العظمة والمجد.

– ألم تره خارجاً الى الصيد او ذاهباً بموكبه الى دمشق في فصل الصيف ؟

قال : لا اعرف للملك وجهاً كما اني لم ادخل بلاطه إلا هذه المرة كما رأيت ..

– وماذا وجدت في البلاط ؟

– وجدت مدينة كبيرة في قصر . ورأيت صوراً وتماثيل تخلب الالباب ، ولولا هذا اللسان الذي ينطق به الغسانيون .. اي ورب الكعبة لولا لسانهم العربي لقام في ذهن الناس الذين يرون قصورهم انهم من الرومان .

– وبعد ذلك ؟

– ولعل النعمان ولي العهد الذي لثمت يده وحدثته اليوم اعظم رجال هذه الدولة نفساً واقربهم الى القلوب .

قال : وهو اثبتهم جناناً وأصدق من حمل سهماً من رماة العرب .
قال : وقد رأيت منه امس ما لا أنساهِ ..
– ألم يفقأ بسهمه عين الهر ؟
– بل فعـل اعظم من هذا .. أصاب فقرات الضب فقرة فقرة كأن السهم بيده يثبته حيث يشاء .. ثم جعل يرسل سهامه الى احدى الوسائد فجعلهـا طاووساً ...
وراح يروي للقوم كل ما رآه في ذلك الرواق .
ثم قال : والملك يا ابا ذهل ؟
فقال : اما ولي العهد فصورة ابيه ، ان الحـارث خير الملوك كما قلت ، اذا سئل اعطى ، وان استوهب وهب، واذا لجأت اليه جعلك بين ولده وكنت اعز الناس عليه .
– وهل تفدون عليه في كل عام ؟
– ذلك لا بد منه . فالعشائر النازلة في بلاده كثيرة العدد ، ورجال هـذه العشائر جنود الملك لا يخرج منهم رجل واحد عن طـاعته .. يأمرنا بالمجيء في كل عام فنجيء،ثم يسالنا عن اموالنا وارضنا وسلاحنا فنقص عليه ما نعلم فيعمد الى المال والسلاح يعطينا منهما ما نحتاج اليه .
– وماذا أعطا امس ؟
– ان العشائر اليوم لا تحتـاج الى شيء . المال يملأ الأيدي والخصب في هذا العام يكتنف ربوع الشام ؛ ولكني أذكر لك احسان الملك الى رجل من أهـل العراق مثل بين يديه أمس ونحن في مجلسه .
قال : العراق عدو الشام !
– اجل ، وأهل العراق جميعهم خصوم الغسانيين لا يرى الرجل منهم رجلاً من هؤلاء حتى يشهر عليه السيف ..
– وكيف يجرؤ العراقي عـلى الدخول الى البلاط ؟ بل كيف يجرؤ على الاستئذان وهو مكره على ذكر اسمه ؟

قال : يفعل ذلك وهو مطمئن لوثوقه بحلم الملك ،ولكن هنالك ما هو اغرب من هذا ؟ خبره يا أخا لهب .

فقال اللهبي : لم يكن الرجل عراقيـاً عادياً بل هو من فرسان لخم المشاهير الذين تعرفهم الشام ..

– وقد قيل ذلك للملك على ما أرى .

فرفع صوته قائلاً : لم يكن الملك بحاجة الى من يقول له كلمة عنه، انه يعرفه من قبل وصورته مطبوعة في ذهنه .

فاصغى القوم الى الرجـل ، وحبس قصي انفاسه ليحفظ المثالة الجديدة في حلم الملوك . .

وكان اللهبي يقول : دخل الحاجب فذكر للحارث اسم العراقي فاذن له وهو لم يسمع من قبل ذلك الاسم، ولكنه عندما مثل بين يديه تفرس فيه ساعة ثم قال: يخيل الي اني أعرف من انت ..

– وماذا قال الآخر ؟

– اطرق ولم يجب ، والملك يبتسم وعيناه تختلجان حتى حسبنا ان صدره سينفجر بعد ذلك الابتسام ..

غير انه لم يخرج عن هدوئه ، بل قال له :

الا تذكر ايها الرجل تلك الواقعة الهـائلة التي جرت بيننـا وبين قومك اللخميين في وادي الغرور ؟

فقال: اذكرها يا مولاي. قال : وتذكر كيف مرق جوادنا بين صفوفكم حتى قاربنا الراية وكدنا ننتزعها من يد حاملهـا لو لم يفاجئنا احد اللخميين بضربة سيف من الوراء ؟

فجعل العراقي يرتجف ..

اما هو فالتفت الينا قائلاً : كان ابن عمنا حجر بن حفنة يتبعنا عـلى فرسه مع ثلاثة من فتيان غسان ، فلمـا اهوى لنا العراقي بالسيف ضيقوا ضربته وصاحوا قائلين :

اترك الراية ايها الملك ففرسان العراق يغدرون ..
فهمزنا الجواد فاندفع الى الامام ، ثم لوينا عنقه فاذا السيوف تتلاحم وفارس من فرسان لخم يقاتل الغسانيين الثلاثة وهو يقول :
نحن أبطال الحيرة . نحمي الميادين ..
ثم اشتعلت النار من جديد وخسرنا المعركة في ذلك اليوم .. أتعلمون من هو الرجل الذي كاد سيفه يقطع عنق الملك ؟
فقلنا : كنا نقاتل في صفوف الملك في ذلك اليوم ، وقد سمعنا ان رجلا كاد يغدر به لولا حجر ، ولكن لم نعلم من هو . فخفض الملك عندئذٍ صوته وقال لنا :
هذا هو الرجل ..
وأومأ الى العراقي الذي صبغت وجهه صفرة الموت ..
فساد الصمت في تلك الساعة حتى كدت تسمع خفقان القلوب .
ومع ذلك فتلك الابتسامة لم تفارق ثغر الحارث ، ثم سمعناه يتمتم قائلا :
ماذا يستحق هذا اللخمي ؟
فعلت الاصوات تطلب قتله ..
فاشار الحارث بالسكوت وقال :
أتقتلونه ؟
فارتفعت الاصوات ثانية : اقتله يا مولانا ..
فضحك ..
فقام في الاذهان انه يضحك كما يضحك النمر لفريسته .
ثم قال لأبي ذهل :
تكلم انت فلك رأي . وهذا ما دار بين الاثنين .
قال ابو ذهل : ان الذي يحاول قتل الملك يجب ان يموت .
– ولكنه حاول قتلنا في ساحة الحرب .
قال : كاد يغدر بك يا مولاي .
قال : خذ عدوك في الحرب كيف شئت ، ألا ترى القبيلة تغزو القبيلة وهي

نائمة فتدوس الخيل الاطفال والنساء والعرب لا تبالي ؟

– ولكن حياة الملك ..

فقاطعه قائلاً : الملك في الميادين مثل جميع الناس ، أنقتل هذا اللخمي لانه من الغادرين ؟

– نعم .

– إذن تنهي عن الغدر ثم تسألنا أن نغدر ..

قال : وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : يدخل العراقي بلاطنا ويطأ بساطنا فنعمد إلى السيف فنضرب به عنقه ويلطخ دمه يد الملك وثوبه ؟.. ألا تعلمون أنه يستظل الآن بظل العدل الغساني ويحتمي بحلم الحارث الثالث ؟

– إذن ليخرج من بصرى ودمه هدر ..

– بل يخرج منها آمناً حاملاً إحسان الملك .

وخاطب اللخمي قائلاً :

إن لك واحداً من غرضين أيها الرجل فلا تكذب .

فقال : أعترف لك بكل شيء يا مولاي ..

قال : بعثك صاحب الحيرة عيناً علينا أم ماذا ؟

قال : لا يعلم ملك الحيرة أني في الشام .

– وما هي غايتك من الدخول إلى هذا القصر ؟

– دخلت سافر الوجه يا مولاي لم أتنكر ولم أخفِ الاسم الذي ادعى به . أفي هذا ما يثبت أني من الجواسيس ؟

– إن لم يكن هذا فقد أعماك حب المال فأتيتنا ماداً يديك تحمل بهما ما نجود به ..

– بل أتيتك لألمس بيديّ المدودتين هذا الحلم الذي تملأ اخباره العراق ..

– وماذا رأيت الآن .

– رأيت أن الذين نقلوا الينا أخبار حلمك كانوا صادقين فيما نقلوه .

– ولم يخطر لك ان الموت يكمن لك في هذا البلاط ؟
– خطر لي ان هذا الموت لايجسر على الدنو مني وأنا فيه ..
– والآن ماذا تطلب من الملك ؟
– أطلب إحسانه .
– ألأنك كنت غادراً ؟
– بل لانني كنت شجاعاً .. إن الرجل الذي يقتحم الاسنة ويصارع ثلاثة من فرسان غسان لا يتهمونه بالغدر ..
– ولكن خانك الحظ فلم يبلغ سيفك رأس الملك .. أتفعلها ثانيةً إذا عفونا عنك الآن ؟
فسمعناه يقول ، أي والله سمعناه يقول :
أفعلها إذا جمعتنا الحرب ...
وبدلاً من أن يتجهم وجه الملك ويثور ثائره ، استند إلى وسادته وقال :
لو قلت غير ذلك لما صدقناك .
ثم قال : أعطوه درعاً ومغفراً وسيفاً وفرساً . أيكفيك هذا ؟
قال : اعطيتني يا مولاي ولم تعطِ أهل بيتي ..
– واعطوه خمسة أثواب .
قال . و جعل لأهلي ما يعيشون به عامهم هذا ..
– وأعطيناك مئة دينار من دنانير الروم .. قم فاخرج الآن فلم نرَ أعجب مما رأيناه منك .
فنهض الرجل وهو يهتف للغسانيين ومشى قيّم القصر وراءه ليعطيه ما أمر به الملك .
فناداه الملك قائلاً :
احذر أن ينصرف هذا اللخمي قبل أن يأكل مع أضيافنا .
ونظر إلينا وهو يقول :
إذا قدرتم أن تعفوا ولم تفعلوا فلستم من العرب .

فقال قصي لصفوان : أي ملك يصنع ما صنعه الحارث ؟
فوضع فمه على أذنه وقال :
قصي بن كلاب عندما يصبح ملك الحجاز ..
فغاص الفتى في لجة من التفكير بعيدة الغور . وقد أعجبه الملك الحارث وولي عهده واتخذ منذ تلك الساعة حياتها في القصر مثلاً لحياته إذا هو استطاع أن يتربع في العرش ..
وكانت الشمس قد ملأت الارض نوراً ، فجلس القوم على كثيبٍ صغير يتناولون الطعام ..

* * *

تبعد منازل قضاعه عن بصرى ثلاث مراحل .
وهي أقرب من منازل بني لهب وعشيرة الجاهيل .
الاولى في الشرق الشمالي ، والاخرى في الجنوب .
لكن الطريق واحـــد . وقد تجاوزت هذه المنازل واتحدت تلك العشائر حتى مست كالشعب الواحد يجمعه رأي الرؤساء .
فلما وصلوا ، قيل لفاطمة : لقد أقبل قصي .
فجلست بباب الخيمة وقلبها يضرب حتى وقعت العين على العين ، ففتحت ذراعيها ، وارتمى الفتى بينها وكانت دموع الأم أفصح ترحيب .
ثم جعلت تسأله عـــن زهرة وعن القوم وهي تظهر رغبتها في ترك الشام والرجوع الى الحجاز .
وكان رزاح واخوته الثلاثة : حنّ وجلهمة ومحمــود ، يجمعون مع الرعاة مواشيهم الكثيرة التي يسرحونها في ذلك السهل .
وتلك عادتهم في كل يوم ، في الصباح وفي المساء ، يمشي رزاح وهو أصغرهم ولكنه سيدهم ، ثم يتبعونه على الخيل يرافقون ماشيتهم في الرواح والمجيء .
وليس في بني عذرة القضاعيين أحرص وأحزم من الفتى رزاح ، كما أنــه لم يقم بينهم من هو اكرم منه أي انه يحسن وضع الشيء في موضعه في حالتي البذل

والحرص يجود بالذهب الكثير عندما يكون هنالك مجال للجود ، ويحفظ الدرهم في كمه حتى تمرّ الايام ولا تراه العيون ..

وله على رغم سنه . المنزلة العالية في قومه كما قرأت ، لحرمـــة ابيه الميـ ، ولخلقه الكريم .

ولم يبالغ ابو ذهل فيما ذكره عن كثرة ماله . فجميع مظاهره تـــدل على الغنى ، ويقول الناس انه عثر على كنز هو من بقايا بني سليح .

وقد يكون ذلك صحيحاً فالمال لا يكثر في عام واحد كما كثر ووفر بـين يدي رزاح .

* * *

اقبـــل من في الحي من عشراء قصي يصافحونه ويسالونه عن مكة و... البيت وما فيه .

وهو يجذبهم اليه بحديثه العذب ولهجته الجديدة الناعمة التي لم يتعودوها ... من قبل .

كان بالامس سكوتاً، يؤثر العزلة فاذا هو اليوم كثير الكلام فصيحه يبتسم للجماعات ، وكانت مظاهره مظاهر فتى لا يبالي الا بغنمه ونوقه يرعاهـا ويعود في المساء ليحتجب في خيمته ، فاصبح ذلك الراعي ، بين ليلة وضحاهـا ، ر... يبدو الجلال كله عـلى جبينه وترسل عينـــاه نوراً ساحراً هو نور السيـادة ، والارادة ، والقوة .

كان صغيراً في كل شيء، فصيره الحجاز كبيراً في كل شيء، كان هواء الحجاز وارضه الجافة يبعثان الحياة الى النفوس الهادئة والبطولة الكاملة الى القلب الضعيف ..

واي وحي نزل على قصي ؟ ان حديثه حديث ملك . وجلاله جلال الملوك وكل كلمه تخرج من فمه تحمل سحراً ، حتى ان الشيوخ الذين عرفوا الغلام قد... كانوا يقولون في انفسهم : هذا قصي آخر ..

وصفوان ويزيد جالسان بين يديه . كانهما غلاماه وهمـــا ينظران الى القوم

المعجبين به فيملكهما الاعجاب بصاحبهما من جديد .

اما فاطمة فقد اصيبت بالذهول، بل استولى عليها الاستغراب بكل معناه . ان قصياً لم يكن في تلك الساعة كما كان منذ بضعة عشر شهراً .. أرأيت ولداً ينظر الى امه فترخي تلك الام نظرها الى الارض لا تستطيع ان تحدق اليه؟ ذلك كان شأنها مع ذلك الفتى الذي ربته بعيداً عن أهله . بعيداً عن وطنه ..

ولو نظرت في ذلك الحين الى ابي ذهل الجالس مع القوم ، لرأيته يهامس من حوله وهو يتفرس في قصي .

وكان يقول لهم : هذا ابن كلاب سيد بني النضر وان له لشأناً فيقولون : وسيخلف اباه في السيادة . ونستعيد نحن بني معد ما خسرناه ..
« بنو قضاعة ينتمون الى معدّ كما رأيت » .

* * *

غابت الشمس فغصت تلك الساحات حول خيام بني عذرة . بطوائف الخيل والغنم والنوق ..

وقد خرجت النساء والغلمان يجعلون ماشيتهم في الحظائر .

وقيل لرزاح واخوته : جاء قصي .

فمشى رزاح . الحب الأخوي الطاهر في قلبه ، والشوق في عينيه وسار إخوته وراءه ليروا ذلك الغلام ..

وما لبثوا حتى عانقوه ، ثم صافحوا صفوان ويزيــد . وجلس الاخوان الاصغران يبتسم الواحد منهما للآخر ابتسامة الحب .

وكان قصي قبل دخول رزاح. يصف مكة لمن لا يعرفها من القوم، فلما جلس اخوه عاد الى وصفه بتلك اللهجة التي عرفت حتى ذكر سادن الكعبة حليل بن حبشية وما يكتنفه من اسباب الرفاد والجاه .

فقال ابو ذهل وهو صاحب الرأي الاول في قومه :
يكفينا من جاه سادن الكعبة اننا نصفه للناس .

وقصي يريد ان يوغر الصدور على بني خزاعة المسيطرين على مكة وهو وراء ستار كثيف من الرصانة والهدوء ..

فقال : اما حاجب البيت فهو أمير العرب كلها والسلطان الذي له هو لنا وكان ابو ذهل صريحاً وجريئاً ، فقال :

السلطان لقومه ..

— وقومه منا ..

— بل من اليمن لا تربطنا بهم رابطة نسب .

— ومع ذلك فهم سادة الحجاز يتوارثون الامـارة منذ ثلاثة اجيال لا تمتـد اليها يد عربي ..

— اجل وهـــذا معناه اننا نحن الذين ولدنا ونشأنا في جزيرة العرب اغنام يسوقنا اليمني الغاصب الى حيث يشاء .

قال : ارى ابا ذهل ثائراً، وأكاد ألمس في حديثه روح العصيان ..

قال : اصبت فانا ثائر ولو طاوعني قومي لزحفت الى مكة ودفعتكم يا بني كنانه بالرماح الى البيت الذي كان ملكاً لاجدادكم والذي استسلمتم الى الخزاعي الذي يتربع فيه .

فاجابه وهو هادىء : ومن يقول لك ان قومنا لا يفكرون فيما تقوله الآن ؟

— ومن قال لك ان الفكر وحده يرفع قوماً ويحط آخرين ؟ نريـــد سيوفاً تشهر في الايدي لا افـكاراً تخطر بالرؤوس .

قال : وتدعو الى الحرب ؟

— لا ادعو قومي بل ادعوكم انتم اهل الشعاب الذين لا تعبأون الا بالشاء تشترونه وتبيعونه في الاسواق .

— ان جدنا جدكم يا ابا ذهل فنحن كلنا ابناء معدّ .

— العذري النازل في هذه الارض لا يترك البر الفسيح ليقيم بالوادي الجاف ، نحن في الشام وانتم حول الكعبة، فإذا كنتم اولئك الرجال ؛ فاسترجعوا بيتـكم

وإلا فاهجروا الحجاز الى فارس او إلى العراق أو إلى أرض الروم فــلا ترى عيونـكم كل يوم ذل البلد المقدس وخمول اهله ..

فاتجهت العيون إلى ابي ذهل

وكاد قصي يثب من مكانه ليضمه الى صدره ..

ان تلك الروح المتمردة هي روحه . وذلك الخطاب الحربي الذي يلقيه هو تلك اللغة السرية التي سيحدث بها اخاه ..

فاطرق قليلاً ثم قال :

يخيل اليّ انك تستهين بخزاعة .

– وماذا تفعل خزاعة ؟ اتجعل السماء ارضاً والارض سماء ؟ إنها قبيلة عربية فضلها ان حاجب البيت منها وانها تحتمي بالكعبة عندما تدور رحى الحرب .

– بل تبرز الى الميدان بقلوب لا تعرف الخوف .

– ولكن لا تثبت فيه الى النهاية . انها واحدة وقبائل العرب لا تعد .

قال : انسيت ان لها انصاراً .

قال : اذكر لي هؤلاء الانصار ..

قال : اذكر لك فرعاً من فروع كنانة هو بكر بن عبد مناة ومن حوله من اتباع . فماذا تقول ؟

– وغير هذا ؟

– ويقوم بنو صوفة وهم كثيرون .

– ثم ماذا ؟

– ثم تستعين بالأوس والخزرج فهما من اليمن وقد تستعين بالملوك الذين لا ينسون دمهم اليمني ..

– وهل بقي لك ما تقوله ؟

– لا ..

قال: لقد استولى على اهل مكة الذعر حتى قام في اذهانهم ان سادن الكعبة اذا جرد سيفه جردت العرب جميعها سيوفها خلفه تمنعه وتحميه . ورب الكعبة

لو رأيت الأوس والخزرج تطعنان الصدور دفاعاً عن حليل بن حبشية لما صدقت .. اتراهما تقذفان برجالهما الى اشداق الموت طمعاً برضى ذلك الخزاعي الذي يفتح باب البيت ويغلقه ؟

قال : من يعلم فقد تعصف الريح فتحمل ألسنة النار الى البلد الذي لا تفكر فيه ..

قال : اذا أخذت الأوس والخزرج فقد بقي في المدينة خيبر قريظة والنضير فخذوهما .

ثم قال : ومن هم الملوك حلفاء خزاعة ؟

قال : لنفرض انهم ملوك غسان ..

فضحك قائلاً : ليس للحارث الثالث همّ الا مكة .. انه ينظر الى العراق قبل ان ينظر الى الحجاز ..

– وملوك كندة ..

اولئك ملوك ليس لهم الا ان يحفظوا الامن بين القبائل الخاضعة لتبع .

– اذن لم يبقَ لخزاعة مرجع تلجأ اليه .

قال : اذا نشبت الحرب لا تجد ملجأ الا الذين ذكرتهم من جيران الكعبة

– وماذا تصنع بهؤلاء ؟

– ليطلب أحدكم السدانة لنفسه وعليّ الباقي ..

قال : أتضمن الحرب ؟

– أضمنها ولا اتردد في ذلك ، اسمع يا قصي ، ان أهل الشعاب يبارزون قوم حليل ، ونحن .. نحن بني عذرة نبارز بكراً وصوفة وينتهي الأمر .

وهذا ما أراد قصي ان يعرفه . ان القوم الذين احب ان يستعين بهم سيكونون عوناً له . والنفوس التي أراد ان يتبين ما فيها باح باسرارها ابو ذهل

وتلك هي يد القضاء تمهد لقصي الأسباب .

واستطرد الشيخ قائلاً :

نعم يا بني ، سنكون في مقدمة القوم الذين يغضبون لعزهم . وسنحمل

بأيدينا ذلك الكناني الذي يختاره قومه فنضعه على العرش .

فتظاهر الفتى بالاستخفاف ثم قال :

انك تحج البيت في كل عام أليس كذلك ؟

– اجل .

– وتعرف سادة الشعاب واحداً واحداً على مـــا أرى، فهل لك ان تختار أحدهم في هذه الساعة ؟

– لو كنت حراً بالاختيار لما ترددت فيه ولكني بعيد عن قومك ولك انت يا ابن كلاب ان تختار .

قال : اما انا فلا أفعل .

فرفع صفوان صوته قائلاً : أتأذنون لكناني ان يدلكم على الرجل الذي يصلح لحجابة البيت ؟

– نعم . فمن هو ؟

– هو هذا . واشار الى قصي ..

فقال يزيد : اي ورب الكعبة .

وردد ابو ذهل وفتيان عذرة ما قاله صفوان .

وارتفعت الاصوات في المبايعة :

نريد قصياً ، لا نريد سواه .

ثم قام أحدهم فقال : لقد اخترناه ونحن من العرب ..

وقال آخر : وهذه سيوفنا تشهد لنا اننا سادة الميادين .

لكن قصياً لم يسمع كل ما قيل .. ولولا تلك الابتسامة الساحرة على ثغره لما رأى الناس على وجهه مظهراً واحداً من مظاهر الرضى .

كأن القوم عنوا سواه فيما ذكروه .

او كأنه يهزأ في سره . بأولئك الذين بلغ بهم الهوس ذلك الحد

فقال رزاح : وكيف تجعل العرب حاجب البيت من الفتيان ؟

فاجابه صفوان قائلاً : حليل بن حبشية ورث اباه وهو في العشرين من عمره

ورضيت العرب ..

– وهل يتولى عربي أمر الكعبة وهو لا يعرف مكة ؟

– بل يعرفها كما يعرفها حليل نفسه وله فيها عبيد وجنود .

– وشيوخ كنانة ؟

– ماذا ؟

– أيرضون به ؟

– عندما يقول قصي كلمته تنحني الرؤوس وتخرس الالسنة .

فنظر الى أخيه قائلاً : أصحيح هذا يا قصي ؟

قال : انهم ينظرون اليّ بعين الحب، اما انا فالامارة لم تخلق لي ولست أهلاً لما يقولون .

فسمع ابو ذهل يقول : ان السيوف تخلق الامارات .

فتمتم قائلاً : والرجل من يدفع هذه السيوف الى المجال .

ولكن الجماعة لم تفهم ما قال .

وبعد قليل تغـــير الحديث .. فانتقلوا الى اقاصيص الحرب ثم الى اقاصيص الصيد ، وجعلوا موضوع حكاياتهم في آخر الليل ، بصرى ودمشق، حيث يقيم نبلاء الغسانيين والرومان من قواد وامراء .

وباتوا يتحدثون حتى انتصف الليل فقام القوم فانصرفوا الى مضاربهم ، وخرج قصي مـع رفيقه الى خيمة تجاور خيمة رزاح، امامهم محمود بن ربيعة يهيء لهم وسائل الراحة في ذلك الليل .

ولم يقل قصي كلمة لأخيه ، ان الليل كله لايكفي لأن يقص عليه فيه حكايته الطويلة التي ليس لها حد ..

ونام قصي ملء جفنيه ، كأنه أمسى واثقاً بان السدانة ستكون له ..

* * *

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

سعر الجزأين ٢٥ ل. ل.